محمد الخضر حسين

رسائل الإصلاح

الجزء الأول

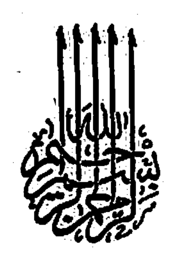
دار الاعتصام

دار الاعتصام
للطبع والنشر والتوزيع
القاهرة ٨ شارع حسين حجازى
تليفون ٣١٧٤٨

١٦٠ قرشا

رسائل الإصلاح

دار الاعتصام
للطبع والنشر والتوزيع
القاهرة ٨ شارع حسين حجازى
تليفون ٣١٧٤٨



محمد الخضر حسين

رسائل الإصلاح

الجزء الأول

دار الاعتصام

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

نحمدك اللهم على أن هيأت لنا من أمرنا رشداً ، وأبيت لنا أن نتخذ من المضلين عضداً ، ونصلى ونسلم على سيدنا محمد الذى أرسلته بشيراً ونذيراً ، وعلى آله وصحبه الذين جاهدوا فى الحق ، ولم يتخذوا من دونك ولياً ولا نصيراً .

أما بعد فقد جرى القلم بتحرير مقالات فى أغراض شتى ، فاقترح على بعض أهل العلم أن أجمعها فى سفر أو أسفار ، حتى يسهل تناولها ، وتكون طوع يد من يريد مطالعتها ، فحل هذا الاقتراح من النفس محل القبول ، وأخذت أجمعها ، وأعيد النظر فى بعض عباراتها ، ثم قسمتها إلى أربعة أقسام :

١ ــ قسم الأخلاق والاجتماعيات .

٢ ــ قسم المباحث الدينية من أصول الدين وأصول الفقه ، والأحكام العملية .

٣ ــ قسم السيرة النبوية ، وتراجم الرجال والبحوث التاريخية .

٤ ــ قسم مباحث اللغة وصناعة الأدب .

نظرت فى هذه الأقسام ، ووضعت لها اسماً هو « رسائل الإصلاح »

وسيرى القارىء الألمعى أنى قد طرقت فى هذه الرسائل نواحى هى فى حاجة إلى أن تبحث بفكر لا يتعصب لقديم ، ولا يفتتن بجديد ،

يعتمد الرأى حيث يثبته الدليل ، ويتقبل الحكم متى لاحت بجانبه حكمة ، ويثق بالرواية بعد أن يسلمها النقد إلى صدق .

وقد بذلت جهدى فى أن أسلك بالبحث هذا السبيل ، ولعلى سرت فيه شوطاً غير قصير ، فإن لم أبلغ فيه غاية بعيدة ، فحسبى أنى كنت قد تبينت رشده ، ووليت وجهى شطره ، وآنست فى أقلام إخوانى الذين يجاهدون فى الإصلاح أثره .

وكأنى بالناشىء الذى سلمت فطرته ، واتقدت قريحته ، يهب هذه الرسائل قسطاً من وقته ، ويلقى عليها أشعة من ثاقب فكره ، فإذا هو ينظر إلى قلم أمين ، يطارحه الحديث فى أسلوب حكيم .

وإذا نفقت كتب تمكر بالحق ، أو تسمى المجون أدباً ، ووجدت نفوساً كثيرة تتهافت عليها تهافت الفراش على النار ، فحسب « رسائل الإصلاح » أن تحظى عند قوم يبحثون عن الرشد بحث الخبير بقيمته ، ويتعشقون الأدب النزيه كأنما صورت نفوسهم من طينته .

ولو سبق لبعض الناشئين أن نظروا فى تلك الكتب المنطوية على زيغ أو مجون ولم يتنبهوا لما دس فى عباراتها من سموم ، ثم أقبلوا على هذه الرسائل ، نابذين تقليدهم القديم ، صارفين قلوبهم عن إكبار أولئك الزائغين أو الماجنين ، لما كان بعيداً أن يعودوا إلى إيمان نقى ، وأدب سنى ، فينفعوا الأمة بجدهم وكمال رجولتهم ، ويتمتعوا بالحياة الطيبة المطمئنة فى أولاهم وآخرتهم .

محمد الخضر حسين

فضيلة الإخلاص

خلق الإنسان ليعرف مبدعه الحكيم ، ويعمل فى حياته على صراط مستقيم ، والعمل القيم ما كان موافقاً لما رسمه الشارع ، وصحبته نية طيبة ، فإن كان العمل غير موافق لما ورد عن الشارع ، فهو عمل باطل وإن قصد به صاحبه التقرب إلى الله ، وذلك هو البدعة التى سماها النبى صلى الله عليه وسلم ضلالة . وإن كان العمل على نحو ما رسمه الشارع ؛ ولكن صاحبه لم يقصد به امتثال أمر الله ، فهو مردود على صاحبه ، لأنه فقد الروح الذى يعطيه حياة وبهجة ، وهو الإخلاص .

ومدار الإخلاص على أن يكون الباعث على العمل أولا امتثال أمر الله ، ولا حرج على من يطمح بعد هذا إلى شىء آخر ، كالفوز بنعيم الآخرة أو النجاة من أليم عذابها ، بل لا يذهب بالإخلاص بعد ابتغاء وجه الله أن يخطر فى باله أن للعمل الصالح آثاراً فى هذه الحياة ، كطمأنينة النفس ؛ وأمنها من المخاوف ، وصيانتها من مواقف الهون ، إلى غير هذا من الخيرات التى تعقب العمل الصالح ، ويزداد به إقبال النفوس على الطاعات قوة على قوة .

ومن المعروف عند أهل العلم أن قصد المصلحة الدنيوية من عمل الخير بعد تحقق قصد الامتثال لأمر الله ، لا ينزل به عن درجة القبول ، كأن يقصد من رحلته التجارة مع قصد أداء فريضة الحج ، أو يقصد التبرد بعد قصد التطهر بالماء لأداء فريضة الصلاة ، أو يقصد التلذذ بالعلم بعد أن يقصد الوجه الذى اقتضى أمر الشارع بدراسته . فمن يطلب علوم الدين ليصلح نفسه ويرشد غيره ، أو يدرس فنون الحرب ليدافع عن شريعته ، ويحمى ذمار أمته ، فلا جناح عليه بعد هذا أن يذكر ما فى العلم من لذة فيزداد ارتياحه ، ويقوى نشاطه .

حضر الشريف التلمسانى وهو صبى درس الأستاذ أبى زيد بن الإمام ، فذكر أبو زيد نعيم الجنة ، فقال له الشريف : هل يقرأ فى الجنة العلم ؟ فقال أبو زيد : نعم ، فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، فقال الشريف : لو قلت لا ، لقلت لك لا لذة فيها . فعجب منه الشيخ ودعا له .

والإخلاص يرفع شأن الأعمال حتى تكون مراقى للفلاح ، وهو الذى يحمل الإنسان على مواصلة عمل الخير ، فمن يصلى رياء أو حياء من الناس لا بد أن تمر عليه أوقات لاينهض فيها إلى صلاة ، ومن يحكم بالعدل ابتغاء السمعة ، أو خوف العزل من المنصب ، قد تعرض له منفعة يراها ألذ من السمعة ، أو يصادفه عهد حكومة يأمن فيه من العزل ، فلا يبالى أن يدع العدل جانباً ، ومن يدعو إلى الإصلاح ابتغاء الجاه قد ينزل بين قوم لايحظى بينهم إلا من ينحط فى أهوائهم ، فينقلب داعياً إلى الأهواء .

وقد أرتنا الأيام أشخاصاً كانوا يظهرون فى اعتدال وغيرة على الحق ، ثم اتصلوا بنفر من أهل الدنيا يناوئون هداية الله ، فلم يكن منهم إلا أن طرحوا ثوب الاعتدال ، وصاروا ينطقون بلهجة أولئك النفر فى شىء من التورية .

ومن يفعل المعروف لتردد ذكره الألسنة فى المجالس أو الصحف قد يرى بعينه سبيلا من سبل الخير فى حاجة إلى مؤازرة ، ولكنه لا يرى بجانبه لساناً أو قلماً شأنه إطراء المؤازرين ، فيصرف عنه وجهه وهو يستطيع أن يمد إليه يده ، ويسد حاجته .

والإخلاص هو الذى يجعل فى عزم الرجل متانة ، ويربط على قلبه فيمضى فى عمله إلى أن يبلغ الغاية ، وكثير من العقبات التى تقوم دون بعض المشروعات لا يساعدك على العمل لتذليلها إلا الإخلاص ، ولولا الإخلاص يضعه الله فى نفوس زاكيات ؛ لحرم الناس من خيرات كثيرة تقف دونها عقبات .

قد يخلص الرجل فى بعض الأعمال ، ويتغلب عليه الهوى فى بعض ؛ فيأتى بالعمل صورة خالية من الإخلاص ، والذى يرفع الشخص إلى أقصى

درجات الفضل والمجد إنما هو الإخلاص الذى يجعله الإنسان حليف سيرته فلا يقدم على عمل إلا وهو مستمسك بعروته الوثقى . ولا أكون مبالغاً إذا قلت : إن النفس التى تتحرر من رق الأهواء ، ولا تسير إلا على ما يمليه عليها الإخلاص ، هى النفس المطمئنة بالإيمان ، المؤدبة بحكمة الدين ومواعظه الحسنة .

فالإخلاص الذى يقوم على الإيمان الصادق ، والتهذيب الدينى ، هو الذى يسمو سلطانه على كل سلطان ، ويبلغ أن يكون مبدأ راسخاً تصدر عنه الأعمال الصالحة بانتظام ، وهو الذى يجد له صاحبه حلاوة فيسهل عليه أن يكون أحد السبعة المشار إليهم بقوله صلى الله عليه وسلم « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » إلى أن قال : « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » وحكى أشعب بن جبير أنه كان فى بعض سكك المدينة فلقيه رجل وقال له : كم عيالك ؟ قال فأخبرته ، فقال لى : قد أمرت أن أجرى عليك وعلى عيالك ما كنت حياً . فقلت : من أمرك ؟ قال : لا أخبرك ، قلت : إن هذا معروف يشكر . قال : الذى أمرنى لم يرد شكرك . قال : فكنت آخذ ذلك إلى أن توفى خالد بن عبد الله بن عمر ابن عثمان ، فحفل له الناس فشهدته ، فلقينى ذلك الرجل فقال : يا أشعب ؛ هذا والله صاحبك الذى كان يجرى عليك ما كنت أعطيك !

هذا فاعل للخير من وراء حجاب ، وأين هو من أشخاص لا يتورعون أن يلبسوا الحق بشىء من الباطل ، ويزيدون على هذا أن يزعموا أن هذا اللبس إصلاح ، ويعلنون بأجهر صوت أنهم مخلصون فيما يقولون أو يفعلون ؟

ولعلك لا تجد أحداً يتصدى لعمل إلا وهو يدعى الإخلاص فيما يعمل ؛ ذلك لأن الإخلاص موطنه القلب ، والقلوب محجوبة عن الأبصار ، وإذا وصفت أحداً بالإخلاص أو عدم الإخلاص ، فإنما ترجع فى وصفك إلى أمارات تبدو لك من أحواله الظاهرة .

ومن هذه الأحوال ما يدلك على سريرة الرجل دلالة قاطعة

مالا يتجاوز بك حد الظن ، وهذا موضع التثبت والاحتراس ، فني وصف المخادع بالإخلاص ، ووصف المخلص بالخداع ، ضرر اجتماعي كبير ، فإن وثقت بمجرد الظن لم تأمن أن تقضي على فاسد الضمير بالإخلاص ، فيتخذه الناس موضع قدوة ، فيستدرجهم إلى فساد صغير ، حتى إذا ألفوه نقلهم إلى فساد كبير ، وربما قضيت على طاهر القلب بعدم الإخلاص ، فكنت كمن يسعى لإطفاء سراج والناس في حاجة إلى سرج تنير لهم السبيل .

والإخلاص الذي يخالط النفوس حتى يكون القابض على عنانها هو في نفسه فضيلة ؛ وهو لا ينزل إلا حيث تنزل فضائل كثيرة ، فالإخلاص يمد جأش صاحبه بقوة ، فلا يتباطأ أن ينهض للدفاع عن الحق ، ولا يبالي ما يلاقي في دفاعه عنه من أذى ، والإخلاص يشرح صدر صاحبه للإنفاق في بعض وجوه البر ، فتراه يؤثرها بجانب من ماله وإن كان به خصاصة . والإخلاص يعلم صاحبه الزهد في عرض الدنيا ، فلا يخشى منه أن يناوىء الحق أو يلبسه بشيء من الباطل ولو أمطر عليه أشياع الباطل فضة أو ذهباً .

والإخلاص يحمل القاضي على تحقيق النظر في القضايا ؛ فلا يفصل في قضية إلا بعد أن يتبين له الحق . والإخلاص يوحي إلى الأستاذ أن يبذل جهده في إيضاح المسائل،وأن لا يبخل على الطلاب بما تسعه أفهامهم من المباحث المفيدة ، وأن يسلك في التدريس الأساليب التي تجدد نشاطهم للتلقي عنه .

والإخلاص يصون التاجر عن أن يخون الذي يأتمنه في صنف البضاعة أو قيمتها ؛ ويحمل الصانع على إتقان عمله حسب الطاقة .

والإخلاص يردع قلم الكاتب عن أن يقلب بعض الحقائق . أو يكسوها لوناً غير لونها ، إرضاء لشخص أو طائفة .

وإذا كان للإخلاص هذه المآثر العظيمة ، فحقيق علينا أن نربي الناشئين على أن يكونوا مخلصين في كل ما يقولون أو يفعلون ؛ ونلقنهم ماذا يناله المخلص من حمد وكرامة وحسن عاقبة ، لكي تخرج لنا معاهد الدين والعلم رجالا يقوم كل منهم بالعمل الذي يتولاه بحزم وإتقان .

الأمانة فى العلم

فلاح الأمة فى صلاح أعمالها ، وصلاح أعمالها فى صحة علومها ، وصحة علومها أن يكون رجالها أمناء فيما يروون أو يصفون ، فمن تحدث فى العلم بغير أمانة فقد مس العلم بقرحة ، ووضع فى سبيل فلاح الأمة حجر عثرة .

لا تخلو الطوائف المنتمية إلى العلوم من أشخاص لا يطلبون العلم ليتحلوا بأسنى فضيلة ، أو لينفعوا الناس بما عرفوا من حكمة ، وأمثال هؤلاء لا تجد الأمانة فى نفوسهم مستقراً ، فلا يتحرجون أن يرووا ما لم يسمعوا ، أو يصفوا ما لم يعلموا ، وهذا ما كان يدعو جهابذة أهل العلم إلى نقد الرجال ، وتمييز من يسرف فى القول ممن يصوغه على قدر ما يعلم ، حتى أصبح طلاب العلم على بصيرة من قيمة ما يقرءونه ، فلا تخفى عليهم منزلته ، من القطع بصدقه أو كذبه ، أو رجحان أحدهما على الآخر ، أو احتمالهما على سواء .

قيض الله للسنة النبوية رجالا أشربوا فى قلوبهم التقوى ، فنهجوا فى روايتها نهج أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يروون إلا ما وثقوا من صحته ، وهم بعد هذا الاحتراس البالغ على فريقين : فريق يحافظون فى الرواية على الألفاظ لا يغيرون منها حرفاً ، ومن أصحاب هذه الطريقة القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ، ورجاء بن حيوة ، ومحمد بن سيرين .

وفريق من أولئك الراشدين يحافظون فيما يروون من الحديث على المعنى ، ولم يروا بأساً فى التعبير عنه بلفظ غير لفظ الرواية على شرط أن يؤدى المعنى كما هو ، ومن أصحاب هذه الطريقة الحسن البصرى ، والشعبى ، وإبراهيم النخعى .

اندس بين هؤلاء الأمناء أشخاص يتشابهون فى الاستخفاف بصدق اللهجة ، ويختلفون فى الأغراض التى دعتهم إلى هذا الاستخفاف ، فمنهم الجاهل الذى يحسب أن من طرق الإحسان إلى الدين وضع أحاديث للترغيب فى بعض ما ندب إليه من أعمال صالحة ، كما وضع نوح بن أبى مريم أحاديث فى فضل سور القرآن ، وقال : رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبى حنيفة ومغازى ابن إسحاق ، فوضعت هذه الأحاديث حسبة .

ومنهم المغلوب على رشده ، يضع الحديث لنحو تأييد مذهب أو إصابة عرض زائل ، كأن يضع حديثاً فيما يوافق هوى ذى سلطان ليزداد عنده حظوة ، مثل غياث بن إبراهيم : رأى المهدى يلعب بالحمام ، فتصرف فى حديث (لا سبق إلا فى نصل أو خف أو حافر) فزاد فيه (أو جناح) وقد شاء الله تعالى أن يتنبه المهدى لهذه الخيانة . فأنب غياثاً وترك الحمام وأمر بذبحها .

ومنهم الزنديق : يضع أحاديث ليفسد القلوب ويزعزع الإيمان ، كما وضع بعض عباد الأوثان حديث « لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه » .

ونهض باللغة العربية وآدابها رجال طبعوا على الأمانة . مثل أبى عمرو ابن العلاء ، والمفضل الضبى ، والخليل بن أحمد ، وسيبويه ، والأصمعى ، وابن الأعرابى ، وابن عمرو الشيبانى ، ومحمد بن مسلم الدينورى ؛ ولم تخلص اللغة وآدابها من أن ينتمى إليها نفر لا يتحاشون أن يدخلوا فيها ما ليس من حقائقها كقطرب(١) ، وحماد الراوية . ولولا العلماء الذين ينقدون ما يرويه أمثال هؤلاء لأصيبت اللغة بفساد كبير .

وللتاريخ القسط الأوفر من اختلاق الرواة ، وتزوير الكتاب . فكم من حقائق شاخصة حاولوا أن يذهبوا بها هباء ، وكم من سير نقية أخرجوها فى صورة ما يستحق هجاء ، وسير مدنسة ألبسوها ثوب ما يستأهل ثناء ،

---

(١) كان متهماً فى رأيه وروايته عن العرب (مقدمة التهذيب لأبى منصور الأزهرى) .

ومن ناحية المحرومين من نعمة الأمانة فى العلم صدرت كتب مثل كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة — وصفت كثيراً من أفاضل السلف فى غير إنصاف ، وولغت فى أعراض الصحابة وهم خير أمة أخرجت للناس ، وقد حذر أهل العلم من التسرع إلى تسليم ما يكتبه المؤرخون فى شأنهم ، وإنما يعول فى أخبارهم على الروايات الموثوق بها كالأخبار الواردة على طريق علماء الحديث .

وكذلك ترى فى غير الحديث واللغة والتاريخ من العلوم رهطاً يمسونها بأيد غير مؤتمنة ، ويحشرون فيها مالا يصح رواية أو لا يقبل دراية ، فيتناولها الجهابذة بالنقد ، فينفون خبثها كما تنفى النار خبث الحديد .

فالأمانة زينة العلم وروحه الذى يجعله زاكى الثمر لذيذ المطعم ؛ وإذا قلبت النظر فى تراجم رجال العلم ، رأيت بين العالم الأمين وقرينه غير الأمين بوناً شاسعاً ، ترى الأول فى مكانة محفوفة بالوقار ، وانتفاع الناس منه فى ازدياد ، وترى الثانى فى منزلة صاغرة ، ونفوس طلاب العلم منصرفة عن الأخذ عنه أو متباطئة .

وقد تقرأ كتاباً فتراه حافلا بالمسائل النادرة . فيكبر صاحبه فى عينك ، ومتى عرفت أنه من المطعون فى أمانتهم ، شعرت بأن شطراً من ذلك الإكبار قد ذهب ، وخالطك الريب فى صحة ما أعجبت به من المسائل الراجعة إلى الرواية .

كيف تكون منزلة الجاحظ عندك لو درست حياته فخرجت مالعاً يدك بالثقة من أنه راوية أمين ؟ لا أشك فى أن الأمانة إذا انحازت إلى مثل ذكاء الجاحظ وسعة اطلاعه بلغ صاحبها فى الشرف والسؤدد المكانة القصوى ، ولكنك تقرأ ما شهد به بعض(١) ناقدى علماء العربية من أن الجاحظ

---

(١) أبو منصور الأزهرى فى مقدمة كتاب التهذيب .

غير مأمون فيما يروى ، فلا يبقى فى نفسك من احترامه إلا ما جاءها من ناحية سعة علمه وبراعة بيانه .

ولا أظنك بعد أن تعلم أن أبا الفرج الأصبهانى صاحب كتاب الأغانى غير معدود فيمن يطمأن إلى روايته(١) إلا أن تقرأ كتاب الأغانى على أنه كتاب أدب يجمع بين الصحيح والسقيم ، حتى إذا أردت تحقيق موضوع تاريخى لم تعول على ما ينفرد بروايته فتورده كما تورد ما يرويه ابن جرير الطبرى مثلا — وأنت مطمئن إليه ، ولو كنت إذ درست حياة أبى الفرج وجدتها خالصة مما يخدش فى أمانته لأخذ فى نفسك مكانة فوق المكانة التى حازها من جهة سعة اطلاعه وإتقانه لصناعة التأليف .

فالرجل الذى يكون على جانب من العلم ولا يتصرف فيه بأمانة حصينة ، يرمقه الناس بازدراء ، وتذهب ثقتهم به ، فلا يكادون ينتفعون بما يمكنهم أن ينتفعوا به من معلوماته الصحيحة . وهذا صاعد بن الحسن البغدادى دخل قرطبة أيام المنصور بن أبى عامر ، وكان عالماً باللغة والأدب والأخبار ، ولكن أهل العلم اختبروه فوجدوه يتنفق بالكذب ، فأعرضوا عنه ولم يأخذوا منه شيئاً ، وألف كتاباً سماه الفصوص نحا فيه نحو الأمالى لأبى على القالى ، فغلب شؤم ما فيه من كذب على ما فيه من صدق ، وكان شكرهم لهذا الكتاب أن طرحوه فى النهر .

قد يقع الرجل فى حال يرى أن الاعتراف فيه بالجهل يذهب بشىء من احترام سائليه له ، فيقف بين داعيين : فضيلة الأمانة تدعوه إلى أن يقول « لا أدرى » وحرصه على أن يبقى احترامه فى نفوس سائليه غير منقوص يدعوه إلى أن يستمد من غير الحقيقة جواباً ، وفى مثل هذا الحال يظهر مقدار صلة العالم بمزية الأمانة ، فإن كان راسخاً فيها رسوخ الجبل تشتد به العواصف فلا تزحزحه قيد شعرة ، أجاب داعيها واستيقن أن الاحترام الحق فى الوقوف عند حدودها ، وإن كانت الأمانة كلمة يقولها بفمه

---

(١) انظر عيون التواريخ لابن شاكر .

ويسمعها بأذنه دون أن تتخلل مسالك الروح منه ، آثر لذة الاجترام فى ذلك المشهد ، وأجاب بما ليس له به علم .

حضر بعض أدباء المغرب مجلس السلطان إسماعيل أو ابنه محمد ، وقرأ هذا الأديب بين يديه صحيفة ، فجاءت كلمة « الوخيد »(١) فقرأها « الوخيذ » بالذال المعجمة ، فأرجعه السلطان ، فقال ذلك الأديب : إنه بالمعجمة والمهملة فطلب منه شاهداً على ذلك فارتجل :

أقــول لصاحبى لــما ارتحلنا	وأشرعنا النجائب فى الوخيذ
تمتع من لذيذ كلام حــورا	فــما بعد العشية من لذيذ

وإذا كان هذا الأديب قد خرج من مجلس السلطان فى ستر . فقد لقى ما يلقاه المستخف بحق الأمانة فى العلم . فافتضح أمره . ووعت صحف التاريخ حديثه فأزرى بقدره .

وإذا أبديت فى العلم رأياً . ثم أراك الدليل القاطع أو الراجح أن الحق فى غير ما أبديت ، فمقتضى الأمانة أن تصدع بما استبان لك أنه الحق ؛ ولا يمنعنك من الجهر به أن تنسب إلى سوء النظر فيما رأيته سالفاً ، فما أنت إلا بشر ، وما كان لبشر أن يبرىء نفسه من الخطأ ، ويدعى أنه لم يقل ولن يقول فى حياته إلا صواباً . والأمانة هى التى كانت تحمل كبار أهل العلم على أن يعلنوا فى الناس رجوعهم عن كثير من آراء علمية ، أو اجتهادات دينية ؛ تبينوا أنهم لم يقولوا فيها قولا سديداً . تجد هذه الفضيلة فى الأئمة المقتدى بهم كمالك بن أنس وأبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل ؛ والفتاوى التى رجع عنها أمثال هؤلاء العظماء منبه عليها فى كتب الأحكام ، ولا يعد شىء منها فيما يصح الاقتداء به إلا أن يراه بعض المجتهدين صحيح الاستنباط ثابت الأصل ، فحكمه العمل على ما رأى .

---

(١) الوخيد الإبل : الإسراع .

يسئل العالم ذو الخلق العظيم عما لا يعلم ، فلا يجد فى صدره حرجاً أن يقول « لا أعلم » وهذه سيرة علمائنا الأجلاء ، يلقى على الواحد منهم السؤال فى العلم الذى علا فيه كعبه ، فإذا لم يحضره الجواب أطلق لسانه بكلمة « لا أدرى » غير مستنكف ولا مبال بما يكون لها من الأثر فى نفوس السائلين . وإذا فاته أن يجيب طالب العلم عما سأل ، لم يفته أن يعلمه خلقاً شريفاً هو أن لا يتحدث فى العلم إلا على بصيرة . فيحفظ مقامه من أن يرمى بضعف الرأى إن كانت المسألة من قبيل الدراية ، أو بقلة الأمانة إن كانت عائدة إلى الرواية ، ولأن يقال : سئل فقال : لا أدرى . خير من أن يقال : سئل فقال خطلا ، أو روى ما لم يكن واقعاً . قال ابن هرمز : ينبغى للعالم أن يورث جلساءه قول « لا أدرى » .

والمسائل التى قال فيها كبار العلماء « لا أدرى » بالغة من الكثرة مالا يحيط به حساب . سأل رجل مالك بن أنس عن مسألة ، وذكر أنه أرسل فيها من مسيرة أشهر من المغرب . فقال له : أخبر الذى أرسلك أنه لا علم لى بها ، قال : ومن يعلمها ؟ قال : من علمه الله . وسأله آخر عن مسألة استودعه إياها أهل المغرب ، فقال : « ما أدرى ماهى » فقال الرجل : يا أبا عبد الله تركت خلفى من يقول : ليس على وجه الأرض أعلم منك . فقال مالك غير مستوحش : إذا رجعت فأخبرهم أنى لا أحسن . وقال الكاتبون فى سيرته : لو شاء رجل أن يملأ صحيفته من قول مالك « لا أدرى » لفعل .

ونقرأ فى سيرة الشعبى أنه سئل عن مسألة فقال « لا أدرى » فقال له السائل : فبأى شىء تأخذون رزق السلطان ؟ فقال : لأقول فيما لا أدرى : « لا أدرى » .

ومن شواهد أمانة محمد بن الأعرابى أن محمد بن حبيب سأله فى مجلس واحد عن بضع عشرة مسألة من شعر الطرماح . فكان يقول : لا أدرى ، ولم أسمع ، أفأحدس(١) لك برأيى !

وقد تخون الرجل ذاكرته أو تأخذه غفلة فيقع لسانه فى خطأ وينبه بعد أو يتنبه من نفسه إلى هفوته ، فإن كان على حظ عظيم من الأمانة بادر

---

(١) الحدس : التخمين .

إلى إصلاح خطئه بنفسه غير مستنكف من الاعتراف بما أخذه من ذهول قلب أو غلط لسان . حضر أبو بكر بن العربى(١) مجلس أبى الفضل النحوى فسمعه يقول : طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآلى وظاهر (٢) فلما انصرف قصده إلى منزله ، وقال له : أصلحك الله ! قلت : إنه صلى الله عليه وسلم طلق وآلى وظاهر . وإنه صلى الله عليه وسلم لم يظاهر ، فإن الله جعل الظهار منكراً من القول وزوراً . فكان من أبى الفضل أن شكره ومن الغد قال أبو الفضل لأهل مجلسه بعد أن قرب ابن العربى إليه : إنى قد قلت لكم بالأمس : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق وآلى وظاهر وإن هذا أرشدنى إلى أنه لم يظاهر ، وهو كما قال ، وإنه شيخى فى هذه المسألة .

من الأمانة الرجوع إلى الحق ، وهو كمال لا تحرص عليه إلا نفوس ذللت لها سبل المكارم تذليلا ، ومن الأمانة أن تنقد الآراء ولا تغمض فيما تراه باطلا وإن كان بينك وبين صاحبها صلة الصداقة أو القربى : قدم أبو جعفر أحمد بن يوسف الفهرى للملك المستنصر فى تونس كتاباً فى النحو ، فدفعه المستنصر للأستاذ أبى الحسن حازم ، فزار أبو جعفر حازماً يوماً ، فرأى الكتاب بين يديه ، فقال له : يا أبا الحسن « وعين الرضا عن كل عيب كليلة » فقال له حازم : أنت سيدى وأخى ، والعلم لا يحتمل المداهنة ، فقال له أبو جعفر : فأخبرنى بما عثرت عليه ، فأراه مواضع فسلمها وأصلحها بخطه . .

ومن أمانة العالم أن لا يفتى أو يقضى بما يراه باطلا . فحرام عليه أن يفتى أو يقضى برأى غيره وهو لا يتردد فى بطلانه ، ويبقى النظر فى المسائل التى تعود إلى الاجتهاد ولا يتعدى حكمها مراتب الظنون ، وهذا ما يمكن أن يكون موضع اختلاف الفقهاء فى قضاء العالم أو إفتائه بغير مذهبه ؛ كأن يقضى بين خصمين من أتباع بعض المذاهب على مقتضى المذهب الذى

(١) هكذا وردت هذه القصة فى كتاب الفائق لابن راشد القفصى وأوردها أبو بكر ابن العربى فى كتاب الأحكام على أنها وقعت لمحمد بن قاسم العثمانى حين حضر لمجلس أبى الفضل الجوهرى .

(٢) آلى : أى حلف على أن لا يدخل على نسائه مدة من الزمن . وظاهر : أى قال لامرأته : أنت على كظهر أمى .

تقلداه . كان العالم الجليل قاسم بن محمد بن سيار يفتي في الأندلس بمذهب مالك وهو يخالفه في كثير من المسائل ، فقال له أحمد بن خالد : أراك تفتي الناس بما لا تعتقد وهذا لا يحل لك ، فقال : إنما يسألونني عن مذهب جرى في البلد فعرف فأفتيهم به . ولو سألوني عن مذهبي لأخبرتهم به .

ويسهل على العالم السبيل لافتاء القوم بمذهب إمام تقلدوه أن المجتهد وإن خالف غيره من المجتهدين في بعض الأحكام المستنبطة ، يرى أن عبادات كل مجتهد ومن يقلدونه في مذهبه صحيحة . لأنها قائمة على الاجتهاد الذي هو أقصى ما كلفهم الله بالعمل عليه . وليس عليهم أن يكون اجتهادهم مطابقاً لما هو الصواب عند الله .

وممن لا يجيز للعالم أن يحكم بمذهب غير راجح في نظره أبو بكر الطرطوشي ، فإنه كان ينكر ما يفعله ولاة قرطبة من أنهم إذا ولوا أحداً القضاء شرطوا عليه أن لا يخرج عن قول ابن القاسم . وقال : هذا جهل عظيم .

والحق أن ولاية القضاة المتبعين لمذهب بعض الأئمة المقتدى بهم – عند فقد المجتهدين – صحيحة . ولولي الأمر أن يشترط عليهم الحكم بالمشهور أو الراجح في مذهب بعينه عند الولاية ، ضبطاً للأحكام وسداً لأبواب اتباع الأهواء . ولا حرج في قضائهم على هذا الشرط وإن حكموا بما لا تطمئن إليه نفوسهم : فإن آراء من لم يبلغ رتبة الاجتهاد المطلق أو المقيد تسقط أمام آراء المجتهدين . وليس لها في نظر الشارع من قيمة . أما بالغ رتبة الاجتهاد فليس له أن يحكم بغير ما قامت الأدلة القاطعة أو الراجحة على أنه حكم الله الذي شرع لعباده .

وإذا كانت الأمانة في العلم منبع حياة الأمم وأساس عظمتها . زيادة على أنها الخصلة التي تكسب صاحبها وقاراً وجلالة . كان حقاً علينا أن نعطف على نشئنا من طلاب العلم . ونتخذ كل وسيلة إلى أن نخرجهم أمناء فيما يروون أو يصفون . ذلك بأن نتحرى في دروسنا الأمانة فيما نروى ؛ ولا نجيب سؤالهم إلا بما ندرى أو بقولنا « لا ندرى » وإذا أوردنا رأياً استبنا

بعد أنه مأخوذ من غير أصل ، قلنا لهم فى صراحة : قد أخطأنا فى الفهم ، أو خرجنا على ما تقتضيه أصول العلم .

ومن أساليب تلقينهم الأمانة فى العلم أن نتلقى مناقشاتهم بصدر رحب ؛ ولا نقتل آراءهم بالكلمات الجارحة ، أو نتعسف فى ردها فندافعها بما نعتقد فى أنفسنا أنه غير كاف لدفاعها .

وعلى الأستاذ بعد أن يقوم بحق الأمانة ملاحظة سير الطلاب حتى إذا وقع أحدهم فيما يدل على أنه غافل عن رفعة شأنها وغزارة فوائدها ، أرشده إلى أن العلم بغير أمانة شر من الجهل ، وأن ذكاء لا يصاحبه صدق اللهجة نكبة على العقل **(ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا)** .

* * *

التعليم الديني في مدارس الحكومة

يشعر كل من يطلع على ما ينشر في الصحف ، أو يشهد مجالس طوائف من الناس مختلفة ، أن انحرافاً غريباً طرأ على الأخلاق ، وأخذ يدب في نفوس النشء دبيب السم الناقع في جسم اللسيع ، ويمتاز هذا الانحراف بأنه ناشئ عن زيغ العقيدة ، لا عن مجرد الأهواء الغالبة ، وزيغ العقيدة مصدر الأخلاق المرذولة في كل حين ، إلا أن الدعاية إلى القبائح فيما مضى لم تبلغ علانيتها ما بلغته اليوم ، ألم يبلغ الحال أن يكتب الكاتب أو يخطب الخطيب داعياً إلى ما يمزق رداء العفاف والكرامة مخادعاً الشباب باسم الحرية أو الفن الجميل ، ولا جمال إلا مع الفضيلة ، ولا حرية إلا لمن يلقى الناس بعرض سليم.

والانحراف الناشيء عن زيغ العقيدة أصعب علاجاً من الانحراف الناشيء عن طغيان الشهوة ، فإن زائغ العقيدة يستهين ببعض محاسن الآداب بزعم أنها ليست من الحسن في شيء ، ويخرج عن حدود المكارم بدعوى أن هذه الحدود رسمت على غير حكمة .

والمغلوب للشهوة وحدها قد ينصرف عن الحسنة معترفاً بأنه أقبل على سيئة ، وينتهك حرمة الحق غير منازع في أنه ارتكب جريمة ، وإذا احتجت في تهذيب أخلاق الزائغ إلى إصلاح عقيدته بالحجة ، فإنه يكفيك في تقويم أخلاق المنحط في أهوائه شيء من الموعظة ، وتأثير الموعظة في زجر من يعرف الحق حقاً ، والباطل باطلا ، أيسر من تأثير الحجة فيمن يبصر الباطل حقاً ، أو الحق باطلا .

وقد يندى جبين المغلوب لأهوائه إذا أنبته ، ويعرف لك فضل النصيحة إذا ذكرته ، أما زائغ العقيدة فإنه يحمل بين حاجبيه وناصيته . ما هو أشد

قسوة من الحجارة ، ويرى إرشادك له لغواً فى القول ، فلا يعبرك فؤاداً صاغياً إلا أن تبقى فيه للإنصاف وحرية النظر بقية .

ولا مرية فى أن انحراف الزائغين أظهر فساداً وأشد فتنة من انحراف الشاعرين بقبيح ما يفعلون ، فإن الزائغ يندفع فيما لا يليق إلا أن يرهب قانوناً حازماً ؛ ولا يبالى أن يبصر به من لا يملك للقانون نفاذاً . أما الشاعر بقبيح ما سيفعل ، فشأنه أن يجتهد فى التستر عن أعين الناس حتى فى حال أمنه من أن يناله القانون بأذى ، فإذا قست الجاحد بأمثاله فى التعلم أو الأمية ، وجدت لخروجه عن مكارم الأخلاق مواطن أكثر ، ومشاهد أظهر ؛ فتكون جنايته فى الناس أكبر وأفظع ، فلا شبهة فى أن إصلاح العقائد أساس لتهذيب الأخلاق وأن الأخلاق الكريمة لا تستقيم إلا على العقيدة السليمة .

لم يتفش زيغ العقيدة فيما سلف تفشيه اليوم . لأن وسائل ساعدت على سريان وبائه لم توجد قبل . وأمهات هذه الوسائل ثلاثة أمور :

(أحدها) هذه المدارس التى يفتحها الأجانب فى أوطاننا باسم العلم ، ويغفل بعض المسلمين عن سريرتها . فتأخذهم بمظاهرها ، حتى يسلموا أطفالهم وهم على الفطرة إلى من يصبغ هذه الفطر بسواد ، وينزع منها روح الأدب الذى يجعلهم أولياء لعشيرتهم . نصحاء لأمتهم .

(ثانيها) تهاون بعض الآباء بواجب أبنائهم . إذ يرسلون الناشىء إلى معاهد العلم بأوربا قبل أن يتلقن من علوم الدين ما يجعل عقيدته مطمئنة ، فيلاقى فى أثناء الدراسة هنالك أو فى بعض المحادثات شبهاً لا يجد فى نفسه من الحجج ما يدفعها ، وإذا تواردت الشبه على الناشىء رانت على قلبه ، وأصبح يبصر وجه الحق أسود قاتماً ، فيعود إلى وطنه وهو يحمل لأبويه عقيدة أنهما فى ضلال قديم ، وذلك جزاء من يستهين بهدى الله ، ولا يهمه إلا أن يكون لابنه مورد رزق واسع ، أو منصب فى أحد الدواوين وجيه .

(ثالثها) إن كثيراً من الحكومات الإسلامية ضعف فيها روح الاعتزاز بالدين الحنيف ، فاستباح واضعو برامج التعليم العام فى مدارسها أن لا يضربوا

لعلوم الدين بسهم ، ومن يضرب لها فبسهم لا يغنى من جهل ، والتعليم الذى يهضم فيه جانب العلوم الدينية ، لا يرجى منه تهيئة نشء تتساقط عليهم الشبه فيطردونها ، أو توسوس إليهم الشياطين فيستعيذون منها .

وإذا كان سوء الأخلاق الذى هو علة اختلال النظام ، ينشأ من زيغ العقيدة تارة ، ومن طغيان الشهوات تارة أخرى ، فإن الإسلام دين ينير العقول بالحجة ، ويهذب النفوس بالحكمة ، وكم أخرجت مدارسه أو مجالس القوامين على هدايته من رجال يلاقون الأسود فيصرعونها ، ويجارون الرياح فيسبقونها ، يخفضون أجنحتهم تواضعاً للمستضعفين ، ويرفعون رءوسهم عزة على الجبارين . تعترضهم الأخطار فيخوضون غمارها ، وتعتل قلوب أو عقول فيضعون الدواء موضع عللها . عدل كأنه القسطاس المستقيم ، وسخاء كأنه الغيث النافع العميم . وجد فى طلب العلم وإن كان بمناط الثريا ، وطموح إلى المعالى وإن انتبذت وراء الفلك الدوار مكاناً قصياً ، إلى ما يشاكل هذا من الخصال التى ترفع بعض الأمم على بعض درجات .

والأمة فى حاجة إلى نشء ترتبط قلوبهم بالتعاطف ؛ وتمتلىء صدورهم بالغيرة على حقوق الوطن ، والإخلاص فى كفاح من يروم اغتصابها ، والدين يفجر ينبوع التعاطف ، ويجعل الغيرة على الحقوق حامية ، ويبعث فى النفوس إخلاصاً يأبى لها أن تتخذ من المنافع الخاصة غرضاً .

والتاريخ يملأ آذاننا بأسماء رجال أحرزوا بعلمهم الزاخر مكانة تكفيهم لأن يعيشوا بين الناس فى هناءة وإجلال ، ولكن ما يبذره الدين فى نفوسهم من غيرة وإخلاص يأبى لهم أن يقضوا حياتهم بين جدران المدارس أو المساجد دون أن ينفقوا منها فى تعرف الشئون العامة ، والجهاد فى نجاة الأمة قسطاً وافراً ؛ ولو أخذنا نضرب الأمثال على أن التعليم الدينى يطبع النفوس على خصال الشرف ، ويملؤها هماً لا تقف عند حد ، وغيرة لا تلهو عن حق ؛ لملأنا صحفاً كثيرة أو أسفاراً ، ولكن المقام للتذكرة ومن مقامات التذكرة ما يغنى فيه الإيجاز عن الإسهاب .

وإذا رأينا فى بعض المتلقين لعلوم الدين عوجاً ، فتلك سنة الله فى الخليقة أن لا تخلص الطوائف الكثيرة من أفراد يشربون بكأسها ، ويظهرون فى زيها ، ثم هم يشذون عنها ، ويسيرون فى غير وجهتها ، لعوارض تجد فى نفوسهم من الاستعداد للهو أكثر من الاستعداد لجد ، ويكفى شاهداً على استقامة الطريق أن يبلغ أكثر سالكيه غاية الفلاح ؛ فإن قعد فى منتصفه ذو همة خامدة ، أو التوى عنه ذو هوى غالب ، فالطريق لا يزال طريق رشد وفلاح ، والوزر على رقبة من قعد فى منتصفه لاهياً ، أو التوى عنه قبل أن يدرك من الاهتداء به حظاً كافياً .

فسماحة الدين وماله من الأثر الخطير فى إعداد أمة روحها البطولة ، وزينتها التقوى ، وغايتها السيادة ، من أشد ما يبعث أولى الأمر منا على أن يضعوا علوم الدين بالمكانة العليا ، ويقرروا لها فى جميع المدارس وفى كل سنى الدراسة ما فيه الكفاية .

ومما يقضى عليهم بأن يعنوا بها عناية ضافية أن الأمة مسلمة . والأمة المسلمة لا ترضى إلا أن يكون أبناؤها مطمئنين بحجج الدين الحنيف ، سائرين فى ضوء حكمته الغراء . فمن سلك فى تعليم أبنائها طريقاً لا يأتى بهم على هذه الحجج ، ولا يدخل بهم فى نهار من ضوء هذه الحكمة ؛ فقد تصرف فى شئونها تصرف من لا يرعى ذمتها ، ولا يحترم وكالته على أمرها ، وإذا وجد فى الناس من لا يؤلمه أن يكون ولده فى ظلام من الغى ، فأمثال هؤلاء على قلتهم طائفة استهواهم زخرف الحياة غروراً ، ولم يهتدوا إلى خير أبنائهم سبيلا . وما كان للحكومة الرشيدة إلا أن تقيم سياستها على رعاية ما فيه خير النشء ، وما يرتضيه أهل العلم والعقل ، ويكون قسط تلك الطائفة من هذه السياسة تقويم عوجهم ، وإصلاح ما فسد من أخلاقهم ، وإذا أهملت التعليم الدينى حكومة باض الإلحاد فى أدمغة رؤسائها وفرخ ، فأعلنوا فسوقهم عن الدين فى غير استحياء ؛ فإن حكومة يكون على رأسها ملك يعتز عرشه الرفيع بعزة الدين الحنيف ، وينص فى دستورها على أن دينها الرسمى الإسلام ، لجديرة بأن يكون للتعليم الدينى فى مدارسها شأن لا يقل عن شأن غيره من العلوم النافعة فى الحياة .

ولا يكفى فى تعليم الدين أن تكون له جامعة كالأزهر وما يتصل به من معاهد ، فإن قصره على الأزهر والمعاهد الدينية يجعل تربيته العالية فى طائفة من الناس خاصة ، والخير فى أن تكون روح الدين سارية فى نفوس الأمة قاطبة ، وبثها فى جميع الأفراد مدعاة إلى الائتلاف والاتحاد الذى هو أساس كل نهضة ، وكل عمل اجتماعى يقام على غير هذا الأساس ، فمنقلب إلى فساد .

ولو كان التعليم الدينى آخذاً حقه فى جميع مدارسنا ، لم ير الناس ما يرونه من التجافى بين أفراد نشأوا فى مدارس دينية ، وآخرين نشأوا فى مدارس ليس للدين فيها من نصيب ، ولا منشأ لهذا التجافى إلا بعد النشأتين ، وإدخال العلوم الحديثة فى المعاهد الدينية يذهب بجانب هذا التجافى ، فإذا عنيت وزارة المعارف بدراسة علوم الدين درساً جدياً ، اتحد أبناؤنا فى أصل التربية ، فيكون فضل المعاهد الدينية والمدارس الرسمية على الشرق فى إخراجهما نشئاً يتقارب شعورهم وتتدانى عواطفهم ، فيتسابقون إلى أعباء الحياة بكواهل متساوية ، ويرمون فى وجوه العظائم عن قوس واحدة .

لا يغيب عنا أن فى بعض الأمم التى لا تعنى وزارات معارفها بدرس علوم الدين شيئاً من كمال أو قوة ، ونقول مع هذا : إن الأمم التى يقوم تعليمها على روح دينية قوية تبلغ من العظمة مالا تبلغه أمة تساويها فى غير هذه الروح من وسائل الحياة .

فإذا تقدمت فرنسا – مثلا – على بعض الشعوب الشرقية ، وكانت أبسط منه سلطاناً وأنعم بالا ، فإنما فضلته بالقوة المادية ، ثم بجانب من الأخلاق التى ينتظم بها شأن الاجتماع فى بلادها وبجعلها قوية أمام خصومها . ولو جاراها ذلك الشعب الشرقى فى وسائل الحياة المادية ، واستنار فى تقويم أخلاقه بحكمة الدين لكان أسعد منها حالا ، وأرسخ فى السيادة قدماً ، وأعلى يوم ينادى المنادى علماً .

وليس فى إعطاء علوم الدين بمدارس الحكومة حقها ما يجحف بحق

دراسة العلوم الأخرى ، لأنا لا نرجو من وزارة المعارف أن تغذى التلاميذ من علوم الدين بمقدار ما يتغذى به طلاب العلم بالمعاهد الدينية ، وإنما نرجو منها أن تقرر من هذه العلوم ما يستنير به التلميذ فى كل سنة من سنى الدراسة ، وتجعله مادة أساسية فى امتحانى النقل والشهادة ، وأن تسن لهذه العلوم مناهج حكيمة ، ولا تغمض عن كفاية من تعهد إليهم بتدريسها .

وقد دلنا التاريخ والمشاهدات على أن وزارات المعارف فى بعض الشعوب الإسلامية ، قد تستخف بالتعليم الدينى متى ألقى أمرها إلى من نشأ فى غفلة عن آداب الدين ، وقصر فى السياسة شأوه ، فليس له بصيرة يحس بها فضل الدين ومحاسنه . ولا بعد نظر فى السياسة يفقه به أن خير ما تتآلف به الأمم الإسلامية رعاية دينها ، وجعله روحاً فى تربية أبنائها ؛ ومن أشد ما تبلى به المصالح العامة أن يصرفها من لايدرى كنهها ولا يتدبر العواقب فى تصريفها ، وإذا انتهز أولئك الخاطئون غفلة الأمة فرصة لاهتضام حق التعليم والتربية ، فإنها اليوم فى يقظة تميز بها المهوشين من المصلحين ؛ فتقابل المهوش بامتعاض وتنديد ، وتلاقى المصلح بإقبال وتأييد ، ورجاؤنا فى حضرة صاحب المعالى وزير المعارف أن يكون الرجل الذى يؤثر إقبال الأمة على امتعاضها ، وتأييدها على تنديدها ، بل صلاحها على فسادها ، وسعادتها على شقوتها ؛ فيوفى للتعليم الدينى حقه . حتى تصبح مدارسنا منبع العلم ومطلع الهداية .

ومن فائدة الشرق أن تكون له عاصمة تلتقى فيها آراء المصلحين ، ويتدفق منها الشعور السامى إلى سائر الأقطار . وموقع مصر فى البلاد يستدعى أن تكون مصر هى ملتقى تلك الآراء ، ومصدر ذلك الشعور ؛ ولا يكفيها لهذه الزعامة أنهارها التى تجرى من تحتها ، والعلوم والفنون الماثلة ما بين جوانبها ، وإنما تحن لها القلوب ، وتمتلىء بمهابتها العيون ، إذا أضافت إلى هذه الأنهار والمدارس تربية دينية عامة ، حتى يقول كل زائر لها فاضل — مثل ما قال العلامة أبو عبد المقرى — حين زارها وعاد إلى المغرب فى أثناء المائة الثامنة «من لم ير مصر لم ير عز الإسلام» .

القضاء العادل فى الإسلام

أحاط الإسلام بضروب السعادة هداية وتعليماً . فدل على كل ضرب منها دلالة تقوم بها الحجة ، وتقطع عن الناس عذر الجهل به ؛ وله فى هدايته درجات ، فقد يرشد إلى الشيء دون أن يلهج به ، أو يلحف فى الترغيب فيه ، حيث يكون سهل المأخذ على النفس ، أو يكون فى طبيعة البشر ما يسوق إليه ، كإحسان الوالد لولده ، والسعى فى الأرض لابتغاء الرزق .

وقد يكون فى الأمر ثقل على النفس وصرف لها عن بعض شهواتها . فلا تكاد تقبل عليه إلا بعزم صميم ، ونظر فى العواقب بعيد ، كإقامة الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد . وهذا ما يأمر به المرة بعد الأخرى ، ويسلك فى الدعوة إليه أساليب شتى ، حتى يأخذ إليه النفوس على تفاوت هممها واختلاف رغائبها . وكذلك ترى مسلكه فى الدعوة إلى العدل فى القضاء.

يتقدم الخصمان إلى القاضى وكثيراً ما يجد فى نفسه ميلا — شديداً أو ضعيفاً — إلى أحدهما ، يميل إليه لنحو قرابة أو صداقة أو وجاهة أو غنى أو يميل إليه لأنه فقير أو ضعيف أو خصم لمن يناوئه ، وقلما استطاع القاضى فى هذه الأحوال أن يضع الخصمين من نفسه فى درجة واحدة إلى أن يفصل فى القضية بما أراه الله من الحق .

تلك العواطف التى تثور فى القاضى حال النظر فى القضية . هى فى حكم المعفو عنه إلا أن يكون لها فى رجحان أحد الخصمين على الآخر أثر غير ما تقتضيه البينة وأصول الحكم .

شأن تلك العواطف أن تجاذب القاضى وتناجيه أن ينحو بالحكم نحو منفعة المعطوف عليه ، وعلى قدر العطف تكون هذه المجاذبة والمناجاة ،

ومتى قويتا فى نفس لا تخاف مقام ربها ، ولم تكن على بصيرة مما فى لباس العدل من زينة وفخار ، نبذت الحق وراء ظهرها ، وانحدرت مع عاطفتها إلى هاوية الظلم ، وما هاوية الظلم إلا حفرة من النار .

هذه العواطف التى تجاذب القاضى وتناجيه أن يرضى خصما بعينه ، تجعل العدل فى القضاء من قبيل ما يثقل على النفس ويجمح عنه الطبع ، فكان من حكمة الدعوة الإسلامية أن تعنى به عناية صافية . وتدخل إلى الترغيب فيه من أبواب متعددة .

عنيت الشريعة بالعدل فى القضاء عنايتها بكل ما هو دعامة لسعادة الحياة ، فأتت فيه بالعظات البالغات : تبشر من أقامه بعلو المنزلة وحسن العاقبة ، وتنذر من انحرف عنه بسوء المنقلب وعذاب الهون .

فمن الآيات المنبهة لما فى العدل من فضل وكرامة قوله تعالى : (وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين) فقد أمر بالعدل ، ونبه على أن خيراً عظيماً ينال الحاكم بالقسط : هو محبة الله له ، وما بعد محبة الله إلا الحياة الطيبة فى الدنيا والعيشة الراضية فى الأخرى .

ومن الأحاديث الدالة على ما يورثه العدل من شرف المنزلة عند الله تعالى قوله صلى الله عليه وسلم : « إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين : الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا(١) » . وهذا كناية عن شدة قربهم من رب العالمين وفوزهم برضوانه وفى ذكر « الرحمن » تربية للرجاء والثقة بأن الحاكم العادل يجد من النعيم ما تشتهيه نفسه وتلذه عينه . شأن من يكون قريب المنزلة من ذى رحمة وسعت كل شىء .

وإن شئت مثلا من آيات الوعيد فانظر فى قوله تعالى : (يا داود

---

(١) صحيح الإمام مسلم .

إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بمانسوا يوم الحساب) تجد الآية تنادى بأن الفصل فى القضايا جرياً مع الأهواء ضلال عن سبيل الله ، والضلال عن سبيل الله ملق فى شديد من العذاب . ومن ذا الذى يستخف بعذاب وصفه الكبير المتعال بالشدة ، ويشتريه بمتاع من هذه الحياة إلا من سفه نفسه ، ولم ينفذ الإيمان إلى سويداء قلبه ؟

فلهذه الآية أثر بليغ فى النفوس المطمئنة بالإيمان ، كان أحمد بن سهل جاراً لقاضى مصر بكار بن قتيبة ؛ فحدث أنه مر على بيت بكار فى أول الليل فسمعه يقرأ هذه الآية ، قال : ثم قمت فى السحر فسمعته يقرؤها ويرددها . فلا عجب أن يكون بكار هذا من أعدل القضاة حكما . وأشرفهم أمام أولى الأمر موقفاً .

ومن الأحاديث الواردة فى الوعيد على الجور فى القضاء قوله صلى الله عليه وسلم : « من ولى القضاء فقد ذبح بغير سكين (١)» فى هذا الحديث تمثيل القاضى إذ يلاقى جزاءه فى الآخرة ، بأشد الناس عذاباً فى هذه الحياة ، وهو المذبوح بغير سكين ، وهذا حال من يكون حظه من علم القضاء بخسا ، أو يكون خلق العفاف فى نفسه واهياً .

ويصح حمل الحديث على معنى الإشارة إلى صعوبة القضاء ، حتى كأن القاضى من أجل ما يلاقيه من تعرف الحق وتنفيذه من مكاره ومجاهدة للأهواء ، مذبوح بغير سكين ، وهو بعد هذا مشعر بسمو منزلة القضاء ، إذ كان القاضى العادل يضاهى القتيل فى سبيل الله بما انقطع عنه من شهوات وقاساه من آلام ، يبتغى أجر الله والله عنده أجر عظيم .

ومما جمع بين الوعد والوعيد قوله صلى الله عليه وسلم : (القضاة ثلاثة : اثنان فى النار ، وواحد فى الجنة : رجل عرف الحق فقضى به فهو فى الجنة ،

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجة والحاكم وصححه .

ورجل قضى للناس على جهل فهو فى النار ، ورجل عرف الحق وجار فى الحكم فهو فى النار(١) .

وصف هذا الحديث عاقبة من يقضى بالحق على بينة منه ، وهى المصير إلى الجنة ، وآذن بعاقبة من يقضى على جهل أو جور ، وهى المصير إلى النار . ولا يتناول هذا الوعيد العالم بأصول الشريعة يجتهد رأيه فلا يصيب الحق ، ويقضى بما رأى ، قرأ الحسن البصرى قوله تعالى : **(وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين، ففهمناها سليمان ، وكلا آتينا حكماً وعلماً)** . . وقال : لولا ما ذكر الله من أمر هذين لرأيت أن القضاة هلكوا ، فإنه أثنى على هذا بعلمه ، وعذر هذا باجتهاده .

وصف الإسلام ما فى العدل من فوز ، وأعلن بما الحيف من شقاء ، وكان قضاؤه صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى لصيانة الحقوق والتسوية بين الخصوم : ويكفى شاهداً على هذا أنه صلى الله عليه وسلم أراد إقامة الحد على امرأة مخزومية سرقت فخاطبت قريش أسامة ليكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إسقاط الحد عنها فقال صلوات الله عليه وسلم : « أتشفع فى حد من حدود الله » ! ثم قام فخطب قال : « يأيها الناس إنما ضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه . وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

رسم عليه الصلاة والسلام طريق العدل فى القضاء قيمة غير ذات عوج ، وزادها بسيرته العملية وضوحاً واستنارة . فاستبانت لأصحابه فى أجلى مظهر ، فاقتدوا بهديها الحكيم . وأروا الناس القضاء الذى يزن بالقسطاس المستقيم ، انظر إلى قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى رسالته إلى أبى موسى الأشعرى : « آس(٢) بين الناس فى مجلسك وفى وجهك وقضائك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك » .

---

(١) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة والحاكم .

(٢) آس : سو بينهم واجعل كل واحد أسوة خصمه .

كان للإسلام وسيرة الذين أوتوا العلم من رجاله أثر في إصلاح القضاء ، كبير ، ولا تشرق المحاكم بنور العدل إلا أن يمسك زمامها رشيد العقل ، راسخ الإيمان بيوم الفصل .

فتقوى الله تحمل القاضى على تحقيق النظر فى كل واقعة حتى يتعرف الحق ، ولا يأخذ بأول ما يلوح له من الفهم وإن تيقن أن قضاءه نافذ ، وماله فى الرؤساء من معقب ، ومن أمراء الأندلس من كان يعزل القاضى متى رأى منه السرعة فى فصل القضايا التى تستدعى بطبيعتها شيئاً من التروى ، إذ يفهم من هذه السرعة عدم تحرجه من إثم الخطأ فى الحكم .

وتقوى الله هى التى تقف القاضى فى حدود العدل : لا يخرج عنها قيد أنملة فى حال . قيل للقاضى إسماعيل بن إسحاق المالكى : ألا تؤلف كتاباً فى أدب القضاء ؟ فقال : « اعدل . ومد رجليك فى مجلس القضاء . وهل للقاضى أدب غير الإسلام » ! وفى سيرة أبى عبد الله محمد بن عيسى أحد قضاة قرطبة أنه « التزم الصرامة فى تنفيذ الحقوق . والحزامة فى إقامة الحدود والكشف عن البيان فى السر ، والصدع بالحق فى الجهر ولم يهب ذا حرمة . ولا داهن ذا مرتبة ، ولا أغضى لأحد من أرباب السلطان وأهله . حتى تحاموا حدة جانبه ، فلم يجسر أحد منهم عليه » ونقرأ فى وصف إبراهيم ابن أبى بكر الاجنادى أحد قضاة مصر أنه « كان لا يقبل رسالة ولا شفاعة ؛ بل يصدع بالحق ، ولا يولى إلا مستحقاً » .

وامتحن عبد الله بن طالب — أحد قضاة القيروان — فكان يقول فى سجوده وهو فى السجن : « اللهم إنك تعلم أنى ما حكمت بجور ، ولا آثرت عليك أحداً من خلقك ولا خفت فيك لومة لائم » ووصف المؤرخون محمد بن عبد الله بن يحيى — أحد قضاة قرطبة — بأنه « لم يداهن ذا قدرة . ولا أغضى لأحد من أصحاب السلطان ، ولم يطمع شريف فى حيفه ، ولم ييأس وضيع من عدله ؛ ولم يكن الضعفاء قط أقوى قلوباً ولا ألسنة منهم فى أيامه » .

ومن القضاة العادلين من تطرح بين يديه قضية يدلى فيها أحد الخصمين بشهادة الخليفة نفسه فيرد الشهادة فى غير مبالاة ، شهد السلطان بايزيد عند شمس الدين محمد بن حمزة الفنارى قاضى الأستانة فى خصومة رفعت إليه فرد القاضي الشهادة ، ولما سأله السلطان عن وجه ردها قال له : إنك تارك للجماعة ! فبنى السلطان أمام قصره جامعاً ، وعين لنفسه فيه موضعاً ، ولم يترك الجماعة بعد ذلك .

ورفعت قضية إلى محمد بن بشير قاضى قرطبة أحد الخصمين فيها سعيد الخير عم الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وأقام سعيد بينة أحد شهودها الخليفة نفسه ، ولما قدم كتاب شهادة الخليفة إلى القاضى نظر فيه ثم قال لوكيل سعيد : هذه شهادة لا تعمل عندى فجئنى بشاهد عادل ، فمضى سعيد إلى الخليفة ، وجعل يغريه على عزل القاضى ، فقال الخليفة : القاضى رجل صالح لا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولست والله أعارضه فيما احتاط به لنفسه ولا أخون المسلمين فى قبض مثله ! ولما سئل ابن بشير عن رد شهادة الخليفة قال : إنه لا بد من الأعذار فى الشهادة ، ومن الذى يجترىء على القدح فى شهادة الأمير إذا قبلت ! ولو لم أعذر لبخست المشهود عليه حقه .

فالإسلام يلقن القاضى أنه مستقل ليس لأحد عليه من سبيل ؛ وقد قص علينا التاريخ أن كثيراً من القضاة العادلين كانوا لايتباطئون أن يحكموا على الرئيس الذى أجلسهم على منصة القضاء حكمهم على أقصر الناس يداً وأدناهم منزلة . قال ابن عبد السلام يصف القضاة العادلين : « وربما كان بعضهم يحكم على من ولاه ولا يقبله إن شهد عنده » وقال المقرى يصف القضاء فى الأندلس : « أما خطة القضاء بالأندلس فهى أعظم الخطط عند الخاصة والعامة ؛ لتعلقها بأمور الدين وكون السلطان لو توجه عليه حكم حضر بين يدى القاضى » وحكم ابن بشير قاضى قرطبة على الخليفة عبد الرحمن الناصر فى قضية رفعها عليه أحد المستضعفين من الرعية ، وأبلغ الخليفة الحكم مقروناً بالتهديد بالاستقالة من القضاء إذا لم يسلم الحكم ويبادر إلى تنفيذه .

ومن القضاة العادلين من يرى بالمنصب فى وجه الدولة إذا أخذ بعض رجالها يتدخل فيما يرفع من خصومات ؛ فعل هذا إبراهيم بن إسحق قاضى مصر حين تخاصم إليه رجلان وأمر بكتابة الحكم على أحدهما فتشفع المحكوم عليه إلى الأمير ، فأرسل إليه يأمره بالتوقف عن الحكم إلى أن يصطلحا ، فترك القضاء وأقام فى منزله ، فأرسل إليه الأمير يسأله الرجوع ؛ فقال لا أعود إلى ذلك أبداً ، ليس فى الحكم شفاعة .

وفعل هذا برهان الدين بن الخطيب بن جماعة أحد قضاة مصر ، عارضه محب الدين ناظر الجيش فى قضية . فقال : لا أرضى أن أكون تحت الحجر ، وصرف أتباعه . وصرح بعزل نفسه وأغلق بابه ؛ فبلغ أمره الملك الأشرف فانزعج وما زال يسترضيه حتى قبل ، واشترط أشياء تلقاها منه بالإجابة .

والرئيس الناصح يكبر القاضى الذى يأنس منه استقامة ويعمل لإرضائه حتى يصرفه عن الاستقالة . أرسل أبو عبيد قاضى مصر أبا بكر بن الحداد إلى بغداد ليستعفى له عن القضاء . فأبى الوزير على بن عيسى بن الجراح أن يعفيه وقال : ما أظنه إلا أنه كره مراقبة هلال بن بدر لأنه شاب غر لا يعرف قدره ، فأنا أصرف هلالا وأولى فلاناً وهو شيخ عاقل يعرف قدر القاضى .

والرئيس العادل يعجب بالعالم الذى دلته التجربة على استقامته عند الحكم وتجرده من كل داعية غير داعية ظهور الحق ، ويدعوه هذا الإعجاب إلى إقامته قاضياً بين الناس ، أخذ عمر بن الخطاب رضى الله عنه فرساً من رجل على سوم ، فحمل عليه فعطب ، فخاصمه الرجل ، فقال عمر : اجعل بينى وبينك رجلا ، فقال الرجل : إنى أرضى بشريح العراقى .

فقال شريح : أخذته صحيحاً سليماً ، فأنت ضامن له حتى ترده صحيحاً سليماً ، قال الشعبى — وهو راوى القصة — فكأنه أعجبه فبعثه قاضياً .

ولصعوبة القضاء من ناحية التثبت من الحق أولا ، والقدرة على تنفيذه ثانياً ؛ أبى كثير من العلماء الأتقياء أن يقبلوا ولايته ، ورفضوها بتصميم

يخشون أن يعترضهم في التنفيذ مالا طاقة لهم بدفعه ، أو يخشون الزلل عند النظر في بعض النوازل وتعرف أحكامها ، فإن إدراج الوقائع الجزئية تحت الأصول الكلية عسير المدخل لكثرة ما يحوم حوله من الاشتباه ، فكثير من الجزئيات تحتوى أوصافاً مختلفة ؛ وكل وصف ينزع إلى أصل ، وقد يكون في الأصل الذى هو أمس بالواقعة خفاء لا ينكشف إلا أن يردد القاضي الألمعي نظره ، ويجهد في استكشافه رويته . عرض هارون الرشيد على المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث قضاء المدينة المنورة بجائزة قدرها أربعة آلاف دينار : فأبى وقال : لأن يخنقني السلطان أحب إلى من القضاء .

ومن العلماء من يأبى قبولها ويكون الأمير ممن يقدر قدره ويراه أقدر أهل العلم على القيام بها ، فيهدده بالعقاب أو يسومه العذاب ليكرهه على قبولها ، ومنهم من يقبلها بعد التهديد البالغ ، مثل عيسى بن مسكين أحد الفقهاء بالقيروان ، عرف الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب من زهده في المناصب أنه يأبى ولاية القضاء ، فأحضره وقال له : ما تقول في رجل جمع خلال الخير أردت أن أوليه القضاء وألم به شعث هذه الأمة فامتنع ؟ قال له عيسى بن مسكين : يلزمه أن يلى ، قال : تمنع ، قال تجبره على ذلك بجلد ، قال : قم فأنت هو ، قال : ما أنا بالذى وصفت ، وتمنع حتى أخذوا بمجامع ثيابه وقربوا السيف من نحره ، فتقدم لها بعد أمر خطير .

ولارتباط سعادة الأمة باستقامة القضاء جاز للرئيس الأعلى متى رأى في أهل العلم من هو أدرى بمسالكه ، وأقدر على القيام بأعبائه أن يكرهه على ولايته بالوسائل الكافية ، قيل للإمام مالك : هل يجبر الرجل على ولاية القضاء ؟ قال لا ، إلا أن لا يوجد منه عوض فيجبر عليه ؛ قيل له : أيجبر بالضرب والسجن ؟ قال : نعم . وطلب ابن الأغلب أمير القيروان الإمام سحنون لولاية القضاء فامتنع . وبقى نحو سنة يطلبه لها وهو يمتنع ، حتى قال له حالفاً : لئن لم تتقدم لها لأقدمن على الناس رجلا من غير أهل السنة : فاضطره هذا الحلف إلى قبولها .

ومن العلماء من يطلب للقضاء فلا يجيب إلا على شرط يصعب على رجال

الدولة قبوله ولا يسعهم إلا أن يتركوه ، طلبوا أبا محمد بن أبي زيد لقضاء القيروان وقطعوا دون قبوله كل عذر ، فشرط عليهم أن يجعلوا لمن بين يديه من الأعوان ما يقوم بكفايتهم من بيت المال بحجة أن من واجب السلطان أن يوصل لكل ذي حق حقه ؛ وليس على صاحب الحق أن يعطي من حقه شيئاً(١) ؛ فاستكثروا ما ينفق في هذا السبيل ، وتركوه .

وإن شئت مثلا يريك الاعتزاز بالعلم والزهد في المناصب إلا أن يتيقن السير بها في استقامة ، فإليك قصة زياد بن عبد الرحمن : دعاه هشام عند ما تولى الخلافة بالأندلس إلى القضاء فأبى ، وبعث إليه الوزراء فلم يتخلص منهم حتى قال لهم : على المشي إلى مكة إن وليتموني القضاء وجاء أحد يشتكي بكم ، لآخذن ما بأيديكم وأدفعه إليه وأكلفكم البينة ، لما أعرفه من ظلمكم ! فعرفوا أنه سيفعل ما يقول ، فتركوه .

وعناية الإسلام بالقضاء رفعته إلى درجة أفضل الطاعات ؛ فمن سار فيه على بينة وهدى كانت الأوقات التي يشغلها بالنظر في التوازل وإعداد الوسائل لساعة الفصل أوقاتاً معمورة بالعمل الصالح كافلة لصاحبها الكرامة في الدنيا والفوز في الأخرى . ولهذا ترى بعض العلماء يتقلدون القضاء ويأبون أن يأخذوا عليه رزقاً ، ومن هؤلاء العلماء الزاهدين أبو القاسم حماس بن مروان ولاه زيادة الله بن الأغلب قضاء إفريقية فتولاه وأبى أن يأخذ عليه أجراً « وكانت أيامه أيام حق ظاهر ، وسنة فاشية ، وعدل قائم » وكان سحنون قاضي إفريقية « لا يأخذ لنفسه رزقاً ولا صلة من السلطان ، وإنما يأخذ لأعوانه وكتابه من جزية أهل الكتاب » .

ومن أبى أخذ الأجر على القضاء فليدخر ثوابه كاملا عند الله ، أو لأنه كان في غنى ، وليس في أهل العلم من يكفي كفايته ، فتكون ولايته من

---

(١) نص على هذا ابن رشد في كتاب البيان . وعمل القضاة جار على غير هذا وهو أن أجرة العون على طالب الحق .

قبيل القيام بفرض عين . ومن تعين عليه القضاء وهو في بسطة من المال فهو الذى لا يجيز له الفقهاء أن يأخذ على ولايته عوضاً .

حقيقة إن الإسلام بنى القضاء على أسس محكمة ، ونظم صالحة ، وأخرج للناس قضاة سلكوا إلى العدل فى الحكم ، والحزم فى التنفيذ ، مسلكاً هو أقصى ما يستطيعه البشر ، وأرقى ما يجده الباحث فى القديم والجديد ، فإذا وفقت الدول الإسلامية لأن تربى رجالا مثل من وصفنا علماً وجلالة ، أمكنها أن تحتفظ بروح العدل الذى لا يجرى إلا على يد من تفقه فى كتاب الله وسنة رسوله ، واهتدى بحكمتهما إلى أن الدنيا متاع وأن الآخرة هى دار القرار .

* * *

الإنصاف الأدبي[١]

لا أريد أن أبحث تحت هذا العنوان عن الإنصاف الذى يفسر بالعدل ، ويوصف به من ينتصب للحكم بين المتخاصمين ، فقد سبق لنا أن تعرضنا لهذا الموضوع فى مقال « القضاء العادل فى الإسلام » . كما أنى لا أريد البحث عن الإنصاف الذى هو خلق يحمل صاحبه على أن يعطى الحقوق المادية من نفسه ، كأن يعرف الرجل أن هذا المال أو المتاع حق لفلان ، فيكف يده أو يرفعها عنه ، من تلقاء نفسه ، لا يخشى سطوة حاكم أو لومة لائم . فالحديث عن الإنصاف الذى هو تبرئة الذمة من الحقوق المادية مقام غير هذا المقام ، وإنما الغرض البحث عن ضرب خاص من ضروب الإنصاف وهو أن يقول الرجل صواباً ، فتعترف بأنه محق أو يحرز خصلة حمد فتقر بها ولا تنازع من يصفه بها . ولا أجد مانعاً من أن أسمى هذا النوع من الإنصاف « الإنصاف الأدبى » ويقابله من الأخلاق المذمومة « العناد » وهو جحود الحق ، ورده مع العلم بأنه حق .

والإنصاف الأدبى من الخصال التى لا ترسخ إلا فى نفس نبتت فى بيئة صالحة ، وارتضعت من ثدى التربية الصحيحة لبناً خالصاً . والجماعة التى تفقد هذا الخلق تفقد جانباً عظيماً من أسباب السعادة . ويدخلها الوهن بعد الوهن ، حتى تتفرق أيدى سبا . وعليك الإنصات وعلينا البيان :

بين الأخلاق روابط . وكثيراً ما يكون بعضها وليد بعض . كالعدل قد يكون وليد القناعة ، وكالشجاعة قد تكون وليدة عزة النفس ، وكالجبن قد يكون وليد الطمع ، وكذلك خلق العناد وعدم الاذعان للحق قد يكون وليد الحسد ، وقد ينشأ عن طبيعة الغلو فى حب الذات . وللغلو فى حب الذات فرعان : حب الانفراد بالفخر ، وإيثار النفس على كل شىء حتى الحق ، فالحاسد أو الحريص على الانفراد بالفخر ، هو الذى يسمع الرجل

يقول صواباً ، فيقول له : أخطأت ، أو يسمع الثناء عليه ببعض ما أحرز من خصال ، فيقول للمثنى عليه : كذبت ، وإيثار النفس على الحق هو الذى يحمل الرجل على التعصب لرأيه والدفاع عنه وهو يعلم أنه فى خطأ مبين .

فمن أراد أن يطبع ناشئاً على خلق الإنصاف نقب على علتى الحسد والغلو فى حب الذات ، فإن وجد لهما فى نفس الناشىء أثراً ، راوضه بالحكمة والموعظة الحسنة ، حتى يتهيأ الناشىء لأن يكون على هذا الخلق العظيم ، أعنى خلق الإنصاف .

وإذا كان منشأ الحسد قلة ملاحظة أن النعمة تصل إلى صاحبها من علام الغيوب ، وهو لا يرسلها إلا لحكمة ، فإن من وسائل علاج هذا الداء تلقين الناشىء أن النعم مادية أو أدبية إنما ينالها الناس بمشيئة العليم الحكيم ؛ وإذا كان منشأ الحرص على الانفراد بالفخر هو الغلو فى حب الذات ، كان على المربى تهذيب عاطفة حب الذات فى نفس الناشىء حتى تكون عاطفة معتدلة : تجلب له الخير ، وتأبى له أن ينال غيره بمكروه .

وإذا شفى الناشىء من مرض الحسد ، وخلص من لوثة الغلو فى حب الذات ، لم يبق بينه وبين فضيلة الإنصاف إلا أن تعرض عليه شيئاً من آثارها الطيبة ، وتذكره بما يدرك المحرومين منها والمستخفين بها من خسار وهوان .

وقلة الإنصاف تبعد ما بين الأقارب أو الأصدقاء . وكم من تجاف نشأ بين أخوين أو صديقين ، وإنما نشأ من جحود أحدهما بعض ما يتحلى به الآخر من فضل . أو من رده عليه رأياً أو رواية وهو يعلم أنه مصيب فيما رأى أو صادق فيما روى ، قال الحكيم العربى :

ولم تزل قلة الإنصاف قاطعة — بين الرجال وإن كانوا ذوى رحم

ومتى شعر الرجل من آخر بإنكار شىء من فضله ، أو بتعسفه فى معارضة رأيه ، رآه غير موضع للصحبة والمعاشرة ، وربما وقع فى ظنه أن الراحة فى عدم لقائه .

قلة الإنصاف تجر إلى التقاطع ، والإنصاف يدعو إلى الألفة ، ويؤكد صلة الصداقة ، فإذا كنت فى مجلس ، فقرر الرجل رأياً واضح الحجة ، فغلبك ما فى نفسك ، وحاولت أن تصوره للناس خطأ ، فقد ألقيت بينك وبينه عداوة ، فإن خضعت لحجته ، وأعربت له عن استحسان رأيه ، فقد مددت بينك وبينه سبباً من أسباب الألفة ، إذ يشعر من إنصافك أنك لا تحمل له ضغناً ، ولا تكره له أن ينال حمداً ؛ فإن سبق هذا الإنصاف خصومة شعر بأنك خصم شريف ، فيسعى لأن تنقلب الخصومة سلماً ، ويتبدل التقاطع ولاء .

وقلة الإنصاف تسقط احترامك من العيون ، فإن من يراك تهاجم الآراء المؤيدة بالحجة ، قد يحمل هذا الهجوم على قصر نظرك وعجزك عن تمييز الباطل من الحق ، فإن حمله على أنك تهاجمها كراهة أن تكسب صاحبها حمداً ، وقع فى نفسه أنك تتمنى لغيرك زوال النعمة ، أو أنك حريص على الانفراد بخصال الحمد ، فإن ذهب فى تأويل إبايتك لقبول الحق إلى أنك تموه على الناس حتى لا ينسبوا إليك نقيصة الخطأ ، علم ما لم يكن يعلم من إيثارك النفس على الحق ، ولا احترام لمن لا يدرك الآراء المؤيدة بالحجة ، أو يتألم من أن يرى غيره فى نعمة ، أو من يعمل للانفراد بالحمد من طريق التعسف والعناد ، أو من يدافع عن نفسه نقص الخطأ بمحاولة قتل الحق .

قلة الإنصاف تسقط احترامك من القلوب ، والإنصاف يزيد احترامك فى القلوب مكانة ، ذلك لأن إنصافك للرجال يدل على صفاء سريرتك ونقائها من أن تكون قد حملت شيئاً من دنس الحسد ، أو حام بها الغلو فى حب الذات .

نقرأ فى كتب الأدب أن منذر بن سعيد البلوطى دخل مصر ، وحضر مجلس أبى جعفر النحاس وهو يملى أخبار الشعراء ، فأنشد أبو جعفر أبيات مجنون ليلى هكذا :

خليلى هل بالشام عين حزينة تبكى على نجد لعلى أعينها
قد أسلمها الباكون إلا حمامة مطوقة باتت وبات قرينها
تجاوبها أخـرى على خيزرانة يكاد يدنيها من الأرض لينها

فأراد منذر أن ينبهه على أن قراءة « باتت وبات » من عجز البيت الثانى بالتاء المثناة خطأ ، فقال : يا أبا جعفر ماذا أعزك الله باتا يصنعان ؟ فقال أبو جعفر : كيف تقول أنت يا أندلسى ؟ قال منذر : « بانت وبان قرينها » .

كيف يكون مقام أبى جعفر فى نفسك لو قص عليك التاريخ أنه تلقى تصحيح منذر بن سعيد بالارتياح ، وقال له : أنا أخطأت ، وأنت أصبت ؟ لا شك أنك تحمل له من الاحترام فوق ما كنت تحمل ، ولكن منذر ابن سعيد يقول : إن ابن النحاس سكت وما زال يستثقلنى ، ثم عاد بعد حين إلى ما كنت أعرفه منه ، يعنى من الإقبال والحفاوة .

وقلة الإنصاف تحول بين الرجل وبين أن يزداد علماً ؛ فمن لم تنصفه من أهل العلم ، وجد فى نفسه مثبطاً عن أن يسرع إلى إفادتك أو يفيض القول فى مذاكرتك ، فيفوتك حظ من العلم لولا عدم إنصافك لازددت به قوة فى الفهم وسعة فى العلم . وقد يكون من أثر جحودك لفضل الرجل أن تقل رغبتك فى ملاقاته والتزود من آرائه أو رواياته ، وكم وصل الرجل بإنصافه إلى علم وأدب جم . قال أبو إسحاق الزجاج : لما قدم المبرد بغداد آتيته لأناظره ؛ وكنت أقرأ على أبى العباس ثعلب ، وأميل إلى قول الكوفيين ؛ فعزمت على إعنات المبرد ، فلما فاتحنى ألجمنى بالحجة وطالبنى بالعلة ؛ وألزمنى إلزامات لم أهتد إليها ، فتبينت فضله . واسترجحت عقله وجددت فى ملازمته .

فلو كان أبو إسحاق من أولئك الذين يجمح بهم التعصب للأشياع أو المذهب حتى ينبذوا الإنصاف ناحية ، لما اعترف بفضل المبرد وقد فاتحه بالمناظرة عازماً إعناته ، ولفاته العلم الذى غنمه بالجد فى ملازمته .

وقلة الإنصاف تحدث فى العلم فساداً كبيراً ، ذلك لأن من لا يقدر

الإنصاف قدره ، قد يرى بعض الآراء العلمية الصحيحة قد صدرت من شخص لا يرتاح هو لأن تكون قد صدرت منه ، فيقابلها بالرد والإنكار ؛ وقد تكون له براعة بيان ، فيصرفها فى تشويه وجه الحق وهو يعلم أنه حق ، فيظهر الجهل على العلم ولو فى فئة قليلة أو دائرة صغيرة .

قلة الإنصاف تخذل العلم ، وتطمس شيئاً من معالمه ؛ والإنصاف يؤيد العلم ، ويجعل موارده صافية سائغة ، ولو أخذ الإنصاف حظه من نفوس جميع الباحثين عن الحقائق لقلت مسائل الخلاف فى كل علم . فيكون حفظ العلوم أيسر ، ومدة دراستها والرسوخ فيها أقصر .

نقرأ فى تاريخ العلامة محمد بن عبد السلام أن ابن الصباغ اعترض عليه فى أربع عشرة مسألة . فلم يدافع عن واحدة منها ، بل أقر بالخطأ فى جميعها .

ومن النواحى التى غفل فيها بعض الناس عن فضيلة الإنصاف . فكانت منبت فساد غير قليل ، ناحية التعصب للمذهب تعصب من لا يسمع ولا يرى ولصاحب المذهب أو المقتدى به أن يبسط القول فى تقرير أصوله وإيراد حججه ، وله أن يناقش أقوال مخالفيه وأدلتهم ، فيردها ، ويصفها بالخطأ إذا شاء ، ومن الإنصاف أن يناقشها استبانة للحق ، ولا يصفها بالخطأ إلا بعد أن تأذن له الحجة فى وصفها ، والعالم الذى يطول نظره فى أقوال الأئمة يشهدهم كيف يرمون إلى غرض واحد هو الحكم المطابق للحق . فيمتلىء قلبه باحترامهم ، ويقف فى حدود الإنصاف عند درسه لمسألة من المسائل التى جرى فيها اختلافهم ، قال الإمام الشافعى : الظرف فى الوقوف عند الحق كما وقف .

لا يصعب على النفوس التى فيها بقية من خير أن تنصف الرجل يبتكر رأياً ، أو ينهض لعمل ، فتعترف لرأيه بالإصابة ، أو لعمله بالإجادة ، والإنصاف الذى قد تجمع عنه نفسك كثيراً أو قليلا ، أن تقول قولا تظنه صواباً ، أو تعمل عملا تحسبه حسناً ، فينقده آخر بميزان العلم الصحيح ،

ويريك أنك قد قلت خطأ ، أو عملت سيئا ، فى مثل هذا المقام قد تجد فى نفسك كراهة للاعتراف بالخطأ فى القول أو الإساءة فى العمل ؛ فإن كنت على ذكر من فضيلة الإنصاف وما تؤتيه من ثمار طيبة ، لم تلبث أن تكظم هذه الكراهة . ولا تجد فى نفسك حرجاً من أن تقول للناس : إنى قد أخطأت فى قولى ، أو أسأت فى عملى . وتاريخ علماء الإسلام مملوء بقصص الذين رجعوا عن آرائهم بعد محاورات أو مناظرات ظهر لهم منها أن الحق فى جانب من دارت بينهم وبينه المحاورة أو المناظرة . ومما روى فى هذا الصدد أن مناظرة جرت بين الإمامين : مالك بن أنس ، وأبى يوسف صاحب الإمام أبى حنيفة فى مقدار الصاع الذى تؤدى به زكاة الفطر ، فقال مالك : هو خمسة أرطال وثلث ، وكان أبو يوسف يذهب إلى أنها ثمانية أرطال ، فاحتج عليه مالك بالصيعان الموجودة لذلك العهد عند أبناء المهاجرين والأنصار بالمدينة ، فرجع الإمام أبو يوسف إلى ما قاله الإمام مالك .

لا يصعب على الرجل أن ينصف قريباً أو صديقاً ، بل لا يصعب عليه أن ينصف من لا تربطه به قرابة أو صداقة ، ولا تبعده منه عداوة ، والإنصاف الذى قد يحتاج فيه إلى مراوضة النفس كثيراً أو قليلا ، أن يبدى بعض أعدائه رأياً سديداً ، أو يناقشه فى رأى مناقشة صائبة ، فهذا موطن تذكير النفس بأدب الإنصاف ، وإنذارها ما يترتب على العناد من إثم وفساد.

ومن الإنصاف الذى يدل على الرسوخ فى الفضيلة أن يتحدث الرجل عن خصمه فينسب إليه ما يعرفه له من فضل . أنشد فى مجلس الإمام على ابن أبى طالب قول الشاعر :

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه ... إذا ما هو استغنى ويبعده الفقر
كأن الثريا علقت بجبينه ... وفى خده الشعرى وفى الآخر البدر

فلما سمعها على بن أبى طالب رضى الله عنه ، قال : هذا طلحة ابن عبيد الله . وكان السيف ليلتئذ مجرداً بينهما .

يسهل على الرجل أن ينصف من هو أكبر سناً منه ، أكثر مما يسهل

عليه أن ينصف قرينه ، ذلك لأن أكبر عائق عن الإنصاف التحاسد . وحسد الإنسان لأقرانه أكبر وأشد من حسده للمتقدمين عليه فى السن ويسهل عليه أن ينصف أقرانه أكثر مما يسهل عليه أن ينصف من هو أحدث سناً منه ، إذ يسبق إلى ظنه أن ظهور مزية لمن هو أحدث عهداً منه ، قد تفضى إلى أن يكون ذكره أرفع ، وفضل القرين على بعض أقرانه شائع أكثر من فضل المتأخر على المتقدم ، وشيوع الشيء يجعله أهون على النفس مما هو أقل شيوعاً منه .

فينبغى للإنسان أن يتيقظ للأحوال التى تتقوى فيها داعية العناد ، ويعد للوقوف عند حدود الإنصاف ، ومقاومة تلك الداعية ما استطاع من قوة .

ويقص علينا التاريخ أن فى الأساتذة من يحرص على أن يرتقى تلاميذه فى العلم إلى الذروة ، ولا يجد فى نفسه حرجاً من أن يظهر عليه أحدهم فى بحث أو محاورة يذكرون أن العلامة عبد الله الشريف التلمسانى كان يحمل كلام الطلبة على أحسن وجوهه ، ويبرزه فى أحسن صوره ، وروى أن أبا عبد الله هذا كان قد تجاذب مع أستاذه أبى زيد بن الإمام الكلام فى مسألة ، وطال البحث اعتراضاً وجواباً حتى ظهر أبو عبد الله على أستاذه أبى زيد ، فاعترف له الأستاذ بالإصابة ، وأنشد مداعباً :

أعلمــه الرماية كل يوم فلمــا اشتد ساعده رمانى

ومن نظر بروية إلى أن فضل العلم من جهة أنه وسيلة إلى إصلاح العمل وإسعاد البشر ، وكان مع هذا النظر ناصحاً لأمته ، وقف عند حد الإنصاف ، لم ينحرف عنه إجابة لداعى الحسد ؛ أو انسياقاً مع حب العلو فى الأرض ولو بغير حق .

أخذ رجال بأدب الإسلام فرسخوا فى فضيلة الإنصاف على قدر صفاء سرائرهم واحترامهم لأصول الدين وأحكامه ؛ وقد مثل الصحابة رضى الله عنهم الإنصاف فى أكمل صورة . بدا لعمر بن الخطاب مرة أن يضع للمهور

حداً » فخطب قائلا : « لا تزيدوا فى مهور النساء على أربعين أوقية فمن زاد ألقيت زيادته فى بيت المال » فقامت امرأة من صف النساء ، فقالت : ما ذاك لك ، قال : ولم ؟ قالت لأن الله عز وجل يقول : (وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً) فقال عمر : « امرأة أصابت ورجل أخطأ » ولو كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه من أولئك الذين يألمون من أن ينسب إليهم نقص أكثر من ألمهم لتحريف آية عن موضعها ، أو استبدال خاطر بشرى بحكم إلهى ، لما عدم وجهاً من أمثال تلك الوجوه التى يصورها المخادعون أو ضعفاء الإيمان تعصباً لآرائهم المخالفة للقرآن .

اختلف ابن عباس وزيد بن حارثة رضى الله عنهما فى مسألة من باب الحيض ، فقرر ابن عباس حكماً ؛ وخالفه زيد فرأى فيها رأياً آخر ، فقال له ابن عباس : سل نُسيئاتك : أم سليمان وصويحباتها . فذهب زيد فسألهن ، ثم جاء وهو يضحك فقال لابن عباس : القول ما قلت . وموضع العبرة من هذه القصة أن زيداً تمسك برأيه فى مخالفة ابن عباس حتى استبان له أن الحق مع ابن عباس ، فلم يجد فى نفسه حرجاً من أن يرجع إليه ضاحكاً . ويقول له : القول ما قلت .

ويروى أن الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه تكلم فى مسألة ، فقال له أحد الحاضرين : ليس الأمر كذلك يا أمير المؤمنين ، ولكنه كذا وكذا ، فقال على : أصبت وأخطأت ، وفوق كل ذى علم عليم . وعشاق الأخلاق الكريمة يجلون الإمام علياً لهذا الإنصاف إجلالهم له عندما يفتى فيصيب الحق ، أو يعظ فينطق بالحكمة .

وقد اقتدى بالصحابة فى هذا الخلق الكريم من جاء بعدهم من كبار العلماء ، وهذا الإمام الشافعى رضى الله عنه يقول : « ما ناظرت أحداً على الغلبة ، ووددت إذا ناظرت أحداً أن يظهر الحق على يديه » .

والراسخون فى فضيلة الإنصاف لا يبالون أن يكون رجوعهم عن الخطأ أمام من خالفهم وحده ، أو بمحضر جمع كبير لم يشعروا بالخلاف ، ولا بخطأ المخطىء أو إصابة المصيب . وها هو ذا التاريخ يحدثنا عن رجال

من علماء الإسلام بلغوا هــذه الغاية من الإنصاف ، قال عبد الرحمن ابن مهدى : ذاكرت القاضى عبيد الله بن الحسين فى حديث وهو يومئذ قاض ، فخالفنى فيه ، فدخلت عليه بعد وعنده الناس سماطين(١) ، فقال لى : ذلك الحديث كما قلت أنت ؛ وأرجع أنا صاغراً . فعبيد الله بن الحسين قد أحسن إلى نفسه إذ أخذها بفضيلة الإنصاف ، وأحسن إلى الناس إذ علمهم كيف يعترفون بالخطأ إذا أخطأوا ؛ ولا يتلبثون فى الرجوع إلى الحق ولو عظمت مناصبهم ؛ وعلت أقدارهم .

العناد قبيح . ويشتد هذا القبح بمقدار ظهور الحجة على الرأى الذى تحاول رده على صاحبه ، فمتى كانت الحجة أظهر كان العناد أقبح ؛ والإنصاف جميل ؛ ويكون جماله أوضح وأجلى حيث يكون فى حجة الرأى الصائب شيء من الخفاء ؛ وحيث يمكنك أن تتحيز لرأيك وتهيء كثيراً من الأذهان لقبوله .

وقد ينقل التاريخ شذرات من حوادث المنصفين لمن خالفهم فى أمر ، أو المعترفين لبعض خصومهم بفضيلة ، فتهتز فى نفوس قرائها عاطفة احترام لمن أقر بالخطأ أو اعترف لخصمه بخصلة حمد ، وربما كان إكبارهم لمن أقر بالخطأ فوق إكبارهم لمن خالفه فى الرأى فأصاب ، وربما كان إكبارهم لمن شهد لخصمه بمكرمة فوق إكبارهم للشخص المشهود له بتلك المكرمة ، وسبب هذا الإكبار عظمة الإنصاف ، وعزة من يأخذ نفسه بها فى كل حال ، قال ابن وهب : سمعت مالك بن أنس يقول : ما فى زماننا شيء أقل من الإنصاف .

وإذا لم ينصفك الرجل ، فرد عليك الحق بالشمال واليمين . أو جحد جانباً من فضلك وهو يراه رأى العين ، فلا تكن قلة إنصافه حاملة لك على أن تقابله بالعناد ، فترد عليه حقاً ، أو تجحد له فضلا ، واحترس من أن تسرى لك من خصومك عدوى هذا الخلق الممقوت ، فيلج فى نفسك .

---

(١) سماط القوم صفهم ، يقال قام القوم حوله سماطين أى صفين .

وينشط له لسانك أو قلمك وأنت تحسبه من محاربة الخصوم بمثل سلاحهم .
كلا . لا يحارب الرجل خصومه المبطلين بمثل الاعتصام بالفضيلة ، ولا سيما
فضيلة كفضيلة الإنصاف تدل على نفس مطمئنة ، ونظر فى العواقب بعيد .
ومن وجد فى خصمه فضائل ، حصر محاربته فى الأمر الذى هو منشأ
الخصومة ؛ وترك تلك الفضائل قارة فى مكانها ، بادية لمن أراد أن يقتدى بها.

وإذا كان الإنصاف فضيلة ترتفع بها أقدار الرجال ، وتتسع بها دوائر
العلوم ، وتصفو بها موارد الآداب ، ويشتد بها حبل الاتحاد ، وينتظم بها
شأن الاجتماع ، كان من واجب أولياء الأطفال وأساتذة الأخلاق ، ودعاة
الإصلاح ، أن يجعلوا له من تربيتهم وتعليمهم ودعوتهم نصيباً يكفى لأن
نرى أنديتنا ومؤلفاتنا وصحفنا نقية من إنكار الحق ، بريئة من جحود الفضل .

العلماء والإصلاح

نود من صميم قلوبنا أن تكون نهضتنا المدنية راسخة البناء ، رائعة الطلاء ، محمودة العاقبة . ولا يرسخ بناؤها ، ويروع طلاؤها ، وتحمد عاقبتها ، إلا أن تكون موصولة بنظم الدين ، مصبوغة بآدابه . والوسيلة إلى أن يجرى فيها روح من الدين يجعلها رشيدة فى وجهتها ، بالغة غايتها ، أن يزداد الذين درسوا علوم الشريعة عناية بالقيام على ما استحفظوا من هداية ، فلا يذروا شيئاً يشعرون بأنه موكول إلى أمانتهم إلا أحسنوا أداءه .

ينظر أهل العلم فى حال الناس من جهة ما يتقربون به إلى الخالق ، ويزنون أعمالهم ليميزوا البدعة من السنة ، ويرشدوهم إلى أن يعملوا صالحاً . ومن الذى لا يدرك أن البدع تقف كقطع من الليل المظلم فتغطى جانباً من محاسن الشريعة الغراء ، وهى بعد هذا ضلالات تهوى بأصحابها فى ندامة وخسران ؟

ينظرون فى أحوال الناس من جهة ما يدور بينهم من المزاعم الباطلة والأحاديث المصنوعة ، وينفون خبثها نفى النار لخبث الحديد ، يفعلون هذا ليكون الناشىء المسلم نقى الفكر صافى البصيرة ، لا يحمل فى نفسه إلا عقائد خالصة وحقائق ناصعة .

ينظرون فى أحوال الناس من جهة ما يجرى بينهم من المعاملات ، فيصلحون ما كان فاسداً ويصلون ما كان متقطعاً ، وما شاعت المعاملات التى نهى عنها الدين فى غير هوادة كالربا والميسر إلا حيث قل من يعظ الناس فى ارتكابها ويبسط القول فى شؤم عاقبتها .

ينظرون فى أحوال الناس من جهة ما يمسهم من السراء والضراء ، ويسعون ما استطاعوا فى كشف الضر عنهم ولو بعرض حالهم على أولى الشأن ،

وإثارة دواعيهم إلى أن يعالجوا العسر حتى ينقلب بفضل تدبيرهم يسراً يحدثنا الكاتبون فى تاريخ الأندلس أن العلماء المقيمين فى ضواحى قرطبة كانو يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة ويطالعونه بأحوال بلدهم وقال أحد علمائهم :

وأتعب إن لم يمنح الناس راحة   وغيرى إن لم يتعب الناس يتعب

ينظر أهل العلم بعين الاحتراس إلى كل من يدعو إلى مذهب باسم الدين ، ويتخذون الوسائل إلى الاطلاع على حقيقة قصده . ومن أسباب وهن حبل الإسلام وتقطع أوصاله مذاهب يبتدعها ملاحدة يمكرون . أو جهال لا يفقهون . أفلم يكن المذهب البهائى يعمل لهدم قواعد الإسلام واستهواء أبنائه من خلف ستار . وقد أحس بعض أتباعه اليوم بقوة فصاروا يخطبون على منابر بعض النوادى ويجهرون بشىء من مزاعمه ، وعرف بعض خصوم الإسلام قصدهم فقاموا يشدون أزرهم ويرددون الثناء على مذهبهم .

نحن نعلم أن في كل أمة فئة يفتحون صدورهم لقبول كل دعوة توافق أهواءهم ، أو تأتيهم فى طلاء يلائم أذواقهم ، ولكن نهوض العلماء بعزم وحكمة إن لم يسحق آراء زعماء هذه الفئة سحقاً ، فإنه يكشف عما فيها من سوء . فلا يسكن إليها إلا من هم إلى الحيوان الأعجم أقرب منهم إلى الإنسان .

يرقب أهل العلم كل حركة تقوم بها جماعة من الأمة ، فينقدونها بالنظر الخالص ، ويصدعون فيها بآرائهم مدعومة بالأدلة المقنعة ؛ ولا تعد هذه المراقبة وهذا النقد خارجين عن خطة العالم الإسلامى ، بل هما واجبان فى عنقه كواجب التعليم والإفتاء . وإذا قص علينا التاريخ أن فريقاً من أهل العلم قضوا حياتهم فى بحث المسائل العلمية البحتة ، فقد قص علينا أن أمة من عظمائهم كانوا ينظرون فى الشئون العامة ، ويمثلون السيرة التى تكسو صاحبها جلالة ، وترفع له بين الخلائق ذكراً .

كان أهل العلم يوجهون هممهم إلى الوسائل التى تقى الأمة ممن يبغونها الأذى ، فهذا أبو بكر بن العربى قاضى أشبيلية رأى ناحية من سور أشبيلية

محتاجة إلى إصلاح ولم يكن فى الخزانة مال موفر يقوم بسدادها . ففرض على الناس جلود ضحاياهم وكان ذلك فى عيد أضحى ، فأحضروها وصرفت أثمانها فى إصلاح تلك الناحية المتهدمة . وكان محمد بن عبد الله بن يحيى الليثى قاضى قرطبة كثيراً ما كان يخرج إلى الثغور ويتصرف فى إصلاح ما وهى منها حتى مات فى بعض الحصون المجاورة لطليطلة .

وظهور العلماء فى أمثال هذه المواقف يغرس لهم فى نفوس الأمة وداً واحتراماً ، ويورثهم فى رأى أولى الأمر مقاماً كريماً ، أفلا نذكر أيام كان أمراء الإسلام يعرفون فى طائفة من العلماء رجاحة الرأى وصراحة العزم وخلوص السريرة فيلقون إليهم بقيادة الجيوش فيكفون بأس أعدائهم الأشداء . وما كان أسد بن الفرات قائد الجيش الذى فتح صقلية إلا أحد الفقهاء الذين أخذوا عن مالك بالمدينة ومحمد بن الحسن فى بغداد وعبد الرحمن ابن القاسم فى القاهرة .

ينظر أهل العلم إلى ما غرق فيه بعض شبابنا من التشبه بالمخالفين وتقليدهم فى عادات لا تغنى من الرقى شيئاً ، وقد يرى بعضهم انحطاط كثير من أبنائنا فى هذا التشبه والتقليد ، فيعده قضاء مبرماً ، ويملكه خاطر اليأس حتى ينتكث من التعرض للشئون العامة ومعالجتها ، ولكن الذى يعرف علة هذا التسرع ويكون قد قرأ التاريخ ليعتبر ، يرى الأمر أهون من أن يصل بالنفوس إلى التردد فى نجاح الدعوة ، بله اليأس من نجاحها .

وأذكر بهذا أن كاتباً كتب فى إحدى المجلات مقالا تحت عنوان : « وحدة العالم » يدعو فيه إلى مسايرة أوربا فى السفور ونحوه ، وقال فى علة الدعوة إلى هذه المسايرة : ليخرج الشرق والغرب فى مدينة واحدة ، وأشار على دعاة الإصلاح فى الشرق بأن لا يقفوا فى سبيل هذه المدنية زاعماً أنهم لا يستطيعون مقاومتها ، ولا يزيدون على أن يجعلوا سيرها بطيئاً ، ورغب إليهم أن يحثوا الناس على المسارعة إلى قبولها .

والذين ينظرون إلى مدنية أوربا باعتبار ، يبصرون فيها على البداهة مالا يرتضيه العقل ولا يقبله الشرع . واختلاف الأمم بالحق خير من اتحادها

على باطل ، ولا يفوت الحكمة أن تجد نفوساً مهذبة وعقولا سليمة فتقبلها .
فحقيق على العلماء أن يبتسموا لهذا الرأى تبسم الازدراء ولا يقيموا لمثله وزناً إلا أن يكشفوا سريرته ويعرضوا على الأنظار سوء مغبته . والعالم بحق من يتدرع بالإيمان البالغ والثقة بما وعد الله به الداعى إلى الحق من الظهور على أشياع الباطل وإن أوتوا زخرفاً من القول وسعة من المال وكانوا أكثر قبيلا .

لا ينبغى لأهل العلم أن يغفلوا عن سير أرباب المناصب والولايات ، فمن واجبهم أن يكونوا على بينة من أمرهم ، حتى إذا أبصروا عوجاً نصحوا لهم بأن يستقيموا ، أو رأوا حقاً مهملا لفتوا إليه أنظارهم وأعانوهم على إقامته . أمر السلطان سليم بقتل مائة وخمسين رجلا من حفاظ الخزائن ، فبلغ هذا النبأ الأستاذ علاء الدين الجمالى وكان متولياً أمر الفتوى ، فذهب إلى السلطان وقال له : وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان ، وهؤلاء الرجال لا يجوز قتلهم شرعاً . فعليك بالعفو عنهم . فغضب السلطان سليم ، وقال له : إنك تتعرض لأمر السلطنة وليس ذلك من وظيفتك ، فقال الأستاذ علاء الدين : لا بل أتعرض لأمر آخرتك ، وإنه من وظيفتى فإن عفوت فلك النجاة . وإلا فعليك عقاب عظيم ، فانكسرت سورة غضب السلطان وعفا عن الجميع . ومتى كان فى ولاة الأمور شىء من العدل ، وكان فى الداعى إلى الإصلاح حكمة وإخلاص ، نجحت الدعوة فى سعيها ، وبلغت بتأييد الله مأربها .

يكون العالم رفيقاً فى خطابه ليناً فى إرشاده ؛ أما إذا أراده ذو قوة على أن يقول ما ليس بحق أو يأتى ما ليس بمصلحة ، أخذ بالتى هى أرضى للخالق ، وكان مثالا للاستقامة صالحاً . أذكر أن أحمد بن طولون دعا القاضى بكار بن قتيبة إلى خلع الموفق من ولاية العهد فأبى ، فحبسه وكرر عليه القول ، فأصر على الإباءة ، وبقى فى السجن حتى ثقل ابن طولون فى مرض الوفاة ، فبعث إلى القاضى بكار يقول له : أردك إلى منزلتك أو أحسن منها ، فقال بكار للرسول : قل له : شيخ فان ، والملتقى قريب ، والقاضى الله عز وجل . فأبلغ الرسول ابن طولون ذلك ، فأطرق ساعة ثم قال : شيخ فان ،

والملتقى قريب . والقاضي الله عز وجل . وأمر بنقله من السجن إلى دار اكتريت له .

وإنما يقوم العالم بإسداء النصيحة إلى ذى قوة أو لا يوافقه فيما يخدش أمانته وتقواه ؛ متى قدر مقامه العلمى قدره . وكان شأن العلم أسمى فى نظره من كل شأن ، وهذا الشعور هو الذى يهيئه بعد داعية الغيرة لأن يجاهد فى سبيل الحق مستهيناً بكل ما يعترضه من أذى .

ومن أدب العلماء أن ينصحوا للأمة فيما يقولون أو يفعلون ؛ ويحتملوا ما ينالهم فى سبيل النصيحة من مكروه ، وكم من عالم قام فى وجه الباطل فأوذى فتجلد للأذى ، وأجاب داعى التقوى متأسياً بقوله صلى الله عليه وسلم « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » . وممن جرى على هذا الخلق المتين أبو بكر ابن العربى يوم كان قاضياً بأشبيلية ، قال فى كتاب القواصم والعواصم : حكمت بين الناس فألزمتهم الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى لم يك يرى فى الأرض منكر ؛ واشتد الخطب على أهل الغصب ، وعظم على الفسقة الكرب ، فتألبوا وألبوا . وثاروا على ، فاستسلمت لأمر الله وأمرت كل من حولى ألا يدفعوا عن دارى . وخرجت على السطوح بنفسى ، فعاثوا على حتى أمسيت سليب الدار . ولولا ما سبق من حسن الأقدار . لكنت قتيل الدار . يعنى بقتيل الدار عثمان رضى الله عنه .

ولا يستحق لقب عالم أو مصلح ذلك الذى يدعو الناس إلى العمل الصالح ويقبض عنه يده ، أو ينهاهم عن العمل السيء ولا يصرف عنه وجهه ؛ فمن أدب العلماء أن يسابقوا الأمة إلى اجتناب ما يؤاخذ به . وعمل ما يحمد عليه كأن ينفقوا فى وجوه البر والمشروعات الصالحات ما ينفقه أمثالهم من المكثرين أو المقلين . فإن ذلك أدل على إخلاصهم ، وأدعى إلى توقيرهم وقبولهم نصائحهم .

وإذا كان العدد القليل فيما سلف يكفى حراسة الدين وإرشاد من ينحرف عنه حتى يعود إليه ، فلأن سلطان الإسلام يومئذ ؛ وصوت غالب الجهل عليه خافت . أما اليوم فالحال ما ترون وما تسمعون : فلا يمكن للدعوة

أن تأتى بفائدتها إلا أن تضم المعاهد الإسلامية بين جدرانها طوائف كثيرة من أولى الغيرة والعزم ، يصرفون جهدهم فى الدفاع عن الدين والدعوة إلى الخير ، ويعيدون الدعوة مرة بعد أخرى .

وستنبت المعاهد الإسلامية إن شاء الله كثيراً من العلماء القوامين على نحو ما وصفناه . ولا سيما حين يأخذ التعليم بالأزهر الشريف نظامه الأسمى ، ويجرى مثل هذا النظام فى غيره من المعاهد الإسلامية كجامع الزيتونة فى تونس وجامع القرويين فى فاس . ويقوى الأمل فى أن تؤتى هذه المعاهد الثمرة الغزيرة الطيبة متى نظر إليها أولوا الأمر برعاية ، وعاملوا النشء المتخرجين منها بما يدل على أنهم يحترمون الشريعة ويقدرون ما تبثه فى الأمة من رشد وإصلاح .

المدنية الفاضلة فى الإسلام

أخذ نبهاء الأمم الخاملة أو مهضومة الجانب يسعون إلى أن تكون أممهم فى رقى وسعادة ، وخطوا فى هذا السبيل خطوات قصيرة أو واسعة ، ووضعوا أسساً متينة أو واهية ؛ والذى يعنينا فى هذا المقام أن نقول كلمة فى وسائل نهوض الشعوب الإسلامية إن كانت خاملة . أو ظفرها بالحرية الصادقة إن كانت محرومة من التمتع بحقوقها التى أوصى بها دينها الحنيف .

لا نفتأ نذكر ذلك السلطان الكريم الذى بسطه خلفاء الإسلام الراشدون على المعمورة ، فعلم الناس كيف يعيشون أحراراً ، والملوك كيف يقيمون عروشهم على قواعد العدل والمساواة ، ورجال الدين كيف يدعون إلى الحقيقة والفضيلة فى سماحة ووقار ، ولا نجحد مع هذه الذكرى أن الشعوب الإسلامية قد وقعت منذ عهد بعيد فى وهدة من الخمول ، وانقطعت الصلة بينها وبين الأمم فلم تدر ماذا يصنعون ، حتى تراءى لها ما نبهها من غفوتها وحثها أن تنهض من كبوتها ، فسلك بقيادتها فريق كانوا على بصيرة من هداية الإسلام ، وإن شئت فقل : تقدم لقيادتها رجال مستنيرون من أبناء المعاهد الإسلامية ، وآخرون مهتدون من القائمين على جانب من العلوم الكونية . فمن يتحدث عن النهضة المصرية — مثلا — لا يحيد عن ذكر رجال استنارت عقولهم بين جدران الجامعة الأزهرية ، ومن متحدث عن النهضة التونسية ذكر فى مقدمة رجالها فريقاً تلقوا معارفهم بين جدران الجامعة الزيتونية .

ولو استمر العمل لرقينا المدنى بأيدى طوائف تجمع بين رجال الدين المصلحين ورجال العلم الحديث المهتدين ، لقطعنا فى سبيل السعادة شوطاً أبعد مما قطعنا ، ولكنا أثبت موقفاً وأقرب إلى أن يهابنا الذين يعملون

لشقائنا ، ولكن حركة تقدمنا لم تستمر على ما وصفنا ، ومسها مرض إذا لم نبادر إلى إنقاذها منه كان شرها أكبر من خيرها ، وخيبتنا أقرب إلينا من من نجاحها .

بليت نهضتنا المدنية بعلتين :

أولاهما : أن بعض نشئنا المتخرجين من مدارس غير إسلامية قد وقفوا موقف الدعوة إلى الإصلاح ولم يصبروا أنفسهم على تعرف آداب الدين فحادوا عن طرق الإصلاح النقية ولم يبالوا أن يجهلوا على الدين ويجحدوا أن يكون له في الحياة المدنية سلطان كبير أو صغير .

ثانيتهما : أن كثيراً ممن درسوا العلوم الإسلامية تقاعدوا عن أن يخوضوا في شئون الحياة المدنية ، فكان انزواؤهم وزهدهم في منصب الإرشاد العام فرصة لظهور الدعايات المنحرفة عن الطريق المستقيم .

إن الأمة التي تأخذ بنصائح الدين وتقتدى بآدابه في السر والعلانية هي الأمة التي يمكنها أن تتحد وتتآزر في صفاء . وهي التي تستطيع أن تبني عظمة وتحوط أكنافها بمنعة ، فلا تجد الأيدى العادية إلى هضم حق من حقوقها منفذاً .

سنواصل بتوفيق الله القول في نصائح الدين التي تأخذ بيد الجماعة إلى هضبة الشرف القصوى ، ونقفى على أثر النصيحة بأخرى حتى يستبين لك أن الإسلام صنع الله الذى أتقن كل شيء . وإنما أذكر في هذا المقام خصالا كالدعائم يقوم عليها صرح الحياة المدنية بهى المنظر شامخ البناء . وما هذه الدعائم إلا العلم الصحيح والعمل النافع والخلق الرفيع .

أما العلم فقد عنى به الدين فيما عنى ، ونوه بذكره فيما نوه ، فقال تعالى : **« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »** . ومن دلائل أن الإسلام ينظر إلى العلم بإقبال ويعده في أكبر النعم التي يتقلب فيها الإنسان أنك ترى في أول ما نزل به الروح الأمين قوله تعالى : **« اقرأ وربك الأكرم ، الذى**

علم بالقلم علم ، الإنسان مالم يعلم » . وقد اندفع المسلمون إلى اقتناء ما لغيرهم من العلوم برغبة حريصة وهمم كبيرة ، وتناولوا بحثها بعقول راجحة علاوة على العلوم التى استمدوها من الكتاب والسنة كأحكام الفقه وأصوله ، أو العلوم اللغوية : كالنحو والبيان .

فالإسلام ينصح لأوليائه أن يبتغوا العلوم أينما كانت . ويحضهم على أن ينظموا شئونهم الحيوية على مقتضى ما علموا ، ولم يجىء الإسلام فى عقائده أو أخباره بما يخالف العلم الصحيح . ولم يجىء فى نصائحه بما ينقص الرغبة فى العلم على اختلاف فنونه . فشأن الأمة التى تبتغيه ديناً أن تكون أصفى الأمم بصائر . وأغزرها معارف . وأبعدها فى البحث نظراً .

وإذا أضاف أحد على جهالة أو سوء قصد إلى الدين شيئاً لا يقبله العلم ، فالإسلام كله حقائق ، وهو من تبعة ما يلصقه به الجاهاون أو المفسدون براء . وإذا صدر من بعض المنتمين إلى الدين كلمة تصرف الناس عن علم مادى أو أدبى فأقصى مصدر هذه الكلمة ذهن صاحبها ، وليس بينها وبين الدين من صلة . بل شأن الدين أن لا يكون عنها راضياً .

ولم يبق اليوم بعد أن ظهر من نتائج العلوم الكونية من أمثال هذه الغواصات والطائرات والمقذوفات ووسائل المخابرات من لا يرجع إلى قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ويتفقه فيها أكثر مما كان يتفقه . ويشهد بأن العلوم التى يسمونها الطبيعيات والرياضيات هى من فروض الكفايات التى يجب أن تقوم عليها طائفة من الأمة ، فإن الله لا يرضى لها إلا حياة العزة والكرامة ، وهى لا تحيا هذه الحياة إلا أن تكون على بينة مما يعلم أو يصنع خصومها .

وأما الأخلاق الشريفة فإن الإسلام لم يدع مكرمة إلا نبه على مكانها وندب على التجمل بحليتها ، وقد عنى بمزايا هى أساس رقى الأمة وانتظام حياتها الاجتماعية : كالصدق والأمانة والعفاف والحلم والعفو والتراحم

والعدل وعزة النفس والشجاعة وحرية الضمير والإقدام على قول الحق وبذل المال فى وجوه البر ، وسنبحث فى هذه المزايا ببسط القول وإقامة الشواهد فى مقام آخر . إن شاء الله .

وأما العمل النافع فإن الدين يحث على العمل لهذه الحياة كما يحث على العمل للحياة الأخرى . وجعل لعمل الشخص فى هذه الحياة نصيباً من ثواب الآخرة فوق ما يناله من منفعة عاجلة متى كان قصده من العمل خالصاً .

ولما نسميه أعمالا أخروية – وهى العبادات – الأثر الطيب فى الحياة الدنيا قبل الحياة الآخرة . أليست الصلاة المقرونة بحضور القلب وعمارته بجلال الله تنهى عن الفحشاء والمنكر . وتكف يد صاحبها عن أن يعمل سوءاً فتحميه من جرائم شأنها أن تجره إلى عقوبات بدنية أو مالية ، وفيها بعد هذا غنى عن طائفة من الشرط والسجون ينفق عليها أولوا الأمر أموالا طائلة ؟ !

أوليس فى الصيام رياضة النفوس وتدريبها على احتمال المكاره والصبر عن الشهوات حتى لا تكون أسيرة فى ملاذها ! . وفى النفوس التى اعتادت الصبر عما تشتهى وهو حاضر لديها قوة وجلادة لا تجدها فى النفوس التى لا تكف عن المشتهيات إلا عند فقدانها . فالصيام بحق يشفى النفوس من علة الانحطاط فى الشهوات كلما عرضت ، ويسبكها فى صورة النفوس القوية التى يسهل عليها أن تنصرف عن ملاذها ساعة ترى الخير فى الانصراف عنها .

أو ليس فى الحج فوائد اقتصادية واجتماعية لو وجه إليها زعماء الحجيج عنايتهم لعادوا إلى أوطانهم بما ينفعهم فى الأولى بعد أن قدموا للآخرة من العمل الصالح ذخراً باقياً !

ولا أرى حاجة إلى أن أذكر فى هذا النسق فريضة الزكاة ، فإن أثرها فى سد حاجات كبيرة من حاجات الأمة ظاهر ظهور الشمس فى كبد السماء

ولم يشرع الدين من العبادات ما يضيق به وقت العمل للحياة مقدار أنملة ، فنحن نرى الذين هم عن الآخرة غافلون يشغلون جانباً من أوقاتهم فى راحة ولهو ، أفلا يحق للمؤمن أن يقضى جزءاً من وقت راحته فى الوقوف بين يدى الخالق وابتغاء رضوانه ، وهذا الجزء لا يزيد على ساعة فى اليوم والليلة إذا شاء ! ليفعل هذا وليقس حياته بحياة من يصرف أوقاته فى جمع المال وإذا انتقل عنه فإلى راحة ولهو ، فإنه يجد من طمأنينة القلب وارتياح النفس ما يجعل عيشه أهنأ وحياته أطيب ، مصداق قوله تعالى : « **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** » .

لا أدرى كيف حدث خاطر أن قلة إقبال المسلمين على العمل لجمع المال وتفشى الفقر فى شعوبهم آتيان من ناحية دينهم ، وهؤلاء علماؤنا يقررون أن كل صنعة تحتاج إليها الأمة فرض كفاية لا تخلص الأمة من واجبها حتى تقوم بها طائفة منهم ، وقالوا إن نحو التجارة هى مباحة بالنسبة للأفراد أى يجوز للرجل أن يتخذها حرفة يستمر عليها ، وله أن يختار غيرها فى بعض الأحيان ، ولو تركها الناس جميعاً لأثموا بتركهم لما هو من الضروريات المأمور بها(١) وهذا الزركشى يقول فى بحث فروض الكفاية من قواعده : « الدنيوى كالحرف والصنائع وما به قوام المعاش كالبيع والشراء والحراثة وما لابد منه حتى الحجامة والكنس » ثم قال : « ولو فرض امتناع الخلق منها أثموا » .

والتوكل فى لسان الدين إنما يراد به توجه القلب إلى الخالق حال العمل واستمداد المعونة منه ، فلم يكن داعية إلى البطالة والإقلال من العمل ألبتة ، بل كان للتوكل الأثر العظيم فى إقدام عظماء الرجال على الأعمال الجليلة التى يسبق إلى ظنونهم أن استطاعتهم وما لديهم من الأسباب الحاضرة يقصران عن إدراكها ، وإذا فسرته فئة غير عالمة بقبض اليد عن العمل

---

(١) انظر بحث « المباح بالجزء المطلوب بالكل » من موافقات الشاطبى .

وطرح الأسباب جملة ، فذلك تفسير لا يقره الدين الذى يقول : « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم** » ويقول : « **وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم** » .

فالشريعة الإسلامية تأمر بالعمل لهذه الحياة ، وتجعل السعى على العيال والعمل للتعفف عما فى أيدى الناس أو للإنفاق فى سبيل الخير من قبيل العمل الذى يستحق صاحبه ثواب الله فى الأخرى ، وتكره للرجل أن يوصى بما فوق الثلث وتقول له : « إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس فى أيديهم » .

إن شريعة هذا شأنها لشريعة مدنية تجمع إلى تهذيب النفوس الذى هو القوة المعنوية أسباب البسطة فى المال الذى هو القوة المادية ، وإذا جمع قوم بين القوتين فقد أحرزوا الكفاية لأن يعيشوا كما ولدتهم أمهاتهم أحراراً .

فالإسلام ينادى أممه إلى أن يتعلقوا من العلم بكل فن ، وينوه بشأن الأخلاق أبلغ تنويه ، ويجعل كل ما تدعو إليه حاجة الجماعة من العمل النافع أمراً واجباً ؛ فما من أمة تريد أن تصعد إلى أفق السيادة الأعلى إلا وجدت فى مبادئه أجنحة تطير بها إلى حيث تطمح همتها ، وعلى قدر ما تنفق من عزمها . وكذلك قص علينا التاريخ الصادق أن الإسلام أخرج للناس أمة بهرت العالم بعلومها الزاخرة وأخلاقها الزاهرة وأعمالها الفاخرة . وإذا شاءت الشعوب الإسلامية أن تكون المثل الأعلى للمدنية الفاضلة فى استطاعتها أن تتحرى نصائح الدين الحنيف ، وفى احترام رؤسائها وزعمائها لأحكام الدين ونصائحه أخذ بالسياسة الرشيدة وهى التصرف فى شئون الأمة على مقتضى إرادتها .

أصول سعادة الأمة

سعادة الأمة أن تستنير عقولها وتسمو أخلاقها . وتغتبط بالنظم التي تساس بها ، وترضى عن طريق تطبيقها وترتاح إلى تنفيذها ، وتأمن أن تمتد يد غريبة إلى حق من حقوقها :

أما استنارة عقولها فبإقامة معاهد كافية للتعليم ، فإن الأمة التي تتألف من متعلمين وغير متعلمين يصعب على قادتها متى أرادوا توجيهها نحو الحياة الصالحة أن يجدوها لينة القياد خفيفة الخطا ، والتعليم الصحيح ما يؤخذ فيه بأرقى النظم وأحكم الأساليب . وتلقي العلوم بأساليب غير مهذبة هو العلة في تباطؤ النهضة العلمية وعدم انتظام طرق البحث والتفكير .

ولا سبيل إلى أن يغبط الشعب بنهضته العلمية حتى يتربى نشؤه على أن يطلبوا العلم بداعي اجتلاء الحقائق والحرص على أسمى الفضائل . ومما يقعد بهم عن مرتبة النبوغ والابتكار في العلوم أن يجعلوا لطلب العلم غاية مادية حتى إذا أدركوها انقطعوا .

والتعليم الذي تؤمن عاقبته وتزكو ثمرته ما اهتدى فيه الطلاب إلى طريقة نقد الآراء وتمحيصها حتى لا يقبلوا رأياً إلا أن يستبينوا رجحانه بدليل ، وقد رأينا رأي العين أن طائفة من أبنائنا قد انحرفوا عن طريق الرشد ، ولو كانوا ممن يرد الآراء إلى قوانين البحث المعقولة لاستقاموا على هدى الله وما كانوا من المفتونين .

وأما سمو أخلاقها فلتستقيم أعمالها وتنتظم المعاملات بينها . والأعمال الخطيرة إنما تقوم على نحو الصبر والعزم والكرم والإقدام ، والمعاملات الرابحة لا تدوم في تماسك وصفاء إلا أن تكون محفوفة بنحو الصدق والأمانة

والحلم وسماحة النفس ورقة العاطفة ، وهذا الوجه من وجوه السعادة ملقى في عهدة من يتولى أمر التربية كالأمهات والآباء ورجال التعليم ، ولا يكون في الأمهات والآباء والمعلمين كفاية لأن يخرج الطفل من بين أيديهم طاهر السريرة مستقيم السيرة حتى يكون التعليم الديني ضارباً بأشعته في جميع مدارسنا أولية كانت أو عليا . وإذا وصلت التربية الدينية إلى النفوس من طريقها الصحيح فلا ترى منها إلا حياء وعفافاً . وصدقاً وأمانة . واستصغارا للعظائم وغيرة على الحقائق والمصالح . وما شئت بعد من عزة النفس وكبر الهمة . تلك خصال لا تثبت أصولها وتعلو فروعها إلا أن يتفيأ عليها ظلال الهداية ذات اليمين وذات الشمال .

وأما توافر وسائل الثروة فلتكون مرافق الحياة بين يديها . والعيش ميسوراً لكل فرد من أفرادها . وما أبعد الأمة عن سعادة الحياة إذا كثر فيها أولئك الذين يتكففون الناس في أيديهم . وأولئك الذين يترددون على المقاهي والنوادي في الصباح كما يترددون عليها في المساء !

من حقوق الأمة أن يهيء لها ولاة أمورها الوسائل للأعمال العامة وينظروا في ترقية الصناعة والزراعة والتجارة وتوسيع دائرتها ، يعنون بها من الوجهة العلمية بفتح مدارس لتلقي ماله اختصاص بهذه الأصـول الاقتصادية من علوم وفنون . ويعنون بها من الوجهة العلمية بإنشاء مصانع وتشجيع الزراع وتدبير الوسائل لرواج البضائع الوطنية ما استطاعوا ، وبمثل هذه المساعي تجد الأيدي العاطلة مجالا للعمل ، ولاتخرج أثمان ملابسنا وأمتعة منازلنا وسائر مرافق حياتنا عن حدود أوطاننا .

وليست تبعة الحالة الاقتصادية ملقاة على عاتق أولى الأمر وحدهم . بل على الموسرين حظ من هذه التبعة عظيم ، إذ في ميسورهم تأليف شركات تراعي في نظمها أصول الدين الحنيف . فتفيض بربح مبارك غزير . ويعيش من العمل بها خلق كثير .

أقمت في عاصمة ألمانية وبعض مدنها وقراها زمناً غير قصير ؛ فلم أر قط سائلا سليم البنية ؛ بل لم أر في تلك المدة متكففاً غير نفر قليل هم

ما بين رجل مقطوع اليد أو الرجل ، أو عجوز بلغت من الكبر ما فت فى عضدها ، لم أر سليم البدن يتكفف ، إذ لا يعدم سليم البدن أن يجد هنالك عملا حيوياً إذا شاء ، والتعليم ، وهو هنالك إلزامى ، يقبح لصاحبه أن يقف موقف الاستجداء .

وكثير من أمراء الإسلام كانوا ينظرون إلى الأمة برأفة ويجتهدون فى أن يخففوا عنها متاعب الحياة ما قدروا . وهذا طاهر بن الحسين يقول فى كتابه الذى بعث به إلى ابنه عبد الله حين ولاه المأمون مصر والرقة وما بينهما : « وتعاهد ذوى البأساء ويتاماهم وأراملهم ، واجعل لهم أرزاقاً من بيت المال . وانصب لمرضى المسلمين دوراً تأويهم ، وقواماً يرفقون بهم . وأطباء يعالجون أسقامهم . وأسعفهم بشهواتهم ما لم يؤد ذلك إلى سرف فى بيت المال » .

وفى فتح طرق العمل للمستطيعين ، وإقامة مستشفيات وملاجئ للمرضى والعاجزين ، إنقاذ للأمة من أن تقود الحاجة طائفة من أبنائها إلى نواد أو مستشفيات يفتحها من يقصد إلى إفساد عقائدها الدينية ، أو إطفاء غيرتها الوطنية .

وأما الاغتباط بالنظم المدنية فذلك ما يدعوها إلى أن تحترمها من صميم أفئدتها فتراعيها فى السر كما تنفيها فى العلانية ، فيكتفى الناس فى أكثر الخصومات بمعرفة الحق من طريق الاستفتاء . وأولو الأمر هم الذين يقررون النظم المدنية ويقومون على تطبيقها فأولوا الأمر على اختلاف طبقاتهم وتفاوت مقاماتهم طائفة من الأمة تولوا النظر فى شئونها العامة ، فيجب أن يتجلى فيهم روح النيابة عنها . ولا يتجلى هذا الروح إلا أن يعملوا على ما يكفل مصالحها ومقتضى هذا أن تساس بنظم تراها أحكم وضعاً وأرعى للمصالح . والأمة الإسلامية إنما تشهد للنظم بالحكمة ورعاية المصالح . متى وافقت أصول شريعتها ولم ينتهك بها شىء من حرمتها .

وأما الرضا عن حال التطبيق فلأن صحة النظم إنما يظهر أثرها على أيدى من يوكل إليهم أمر تطبيقها . وما مزية القانون العادل إذا وكل العمل به إلى من لم تحسن المدرسة أدبه ؟ فتطبيق القوانين على الحوادث يرجع إلى أدب الحاكم ومبلغه من العلم والفهم ، فمن حق الأمة أن لا يتولى الحكم فيما شجر بينها إلا ذو ثقافة يجيد بها عمل التطبيق ، واستقامة يقف أمامها القوى والضعيف على سواء . وهذا ما يدور عليه فضيلة العدل المأمور به فى قوله تعالى : « **وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** » وقوله تعالى : « **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** » .

وأما الارتياح لطرق التنفيذ فيعود إلى السلطة الإجرائية كإدارة الشرطة وحق الشعب على هؤلاء أن تأخذهم به الرحمة ، ويشعرون بأنه جسد هم بعض أعضائه .

أقمت فى بعض البلاد الشرقية فكنت أرى بين رجال القوة المسلحة وسائر الوطنيين جفاء يتطاير شرره لأدنى مخاطبة تدور بينهما ، ثم رحلت إلى عاصمة أوربية وطفت فى بعض المدن والقرى ، فكنت أرى تعطفاً وائتلافاً بين الجند والشرط وبقية الشعب ، ولا يكاد الناظر يفرق بينهما إلا بما يحمله الأولون من هيئة رسمية أو سلاح ، كنت أشاهد سائق العجلة يجادل الشرطى مدة غير قصيرة وأصواتهما فى ارتفاع متساوية ، ولا يكون بعد هذا إلا أن يقنع أحدهما الآخر ويفترقا .

نحن نعلم أن انتشار التعليم فى الشعب يساعد رجال الأمن وغيرهم على تنفيذ النظم العامة بكلمة ينهون بها من يروم مخالفتها ، ولكن المحروم من التعليم هو فى حاجة إلى أن ينظر إليه بشفقة ويعالج بشىء من الرفق إلا أن يخرق النظام متمرداً . قال معاوية بن أبى سفيان : « لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى » .

وتطبيق النظم على الواقع وتنفيذها بعدل ، حق من حقوق الأمة على ولاة أمورها ، وإذا توقف على شىء يرجع الخطاب فيه إلى بعض أفراد

الأمة كأداء الشهادة على وجهها ، كانت تبعته على أولئك الذين يستطيعون أن يشهدوا بحق ويكتمون الشهادة وهم يعلمون .

وأما أمن الأمة من أن تسطو يد غريبة على حق من حقوقها فلتطمئن على عزتها وكرامتها ، ولتشعر بأن من تلدهم سيعيشون كما تعيش الأمم ذات الشوكة أحراراً ، ولا تأمن بأس خصومها ولا تنظر إلى مستقبل أبنائها فتراه أغر محجلا إلا أن يكون ما بينها وبين رعاتها عامراً بالنصح من ناحية وبحسن الطاعة من ناحية أخرى ، فبالنصح ترقى معاهد التعلم فتستغنى بعلم أبنائها وكفايتهم للعمل عن أن تستمد وسائل الدفاع والمنعة من وطن غير وطنها وبحسن الطاعة ينتظم أمر الجند وتبلغ القوة المالية غايتها .

وقد عنى الإسلام فيما عنى بهاتين الخصلتين العظيمتين : إخلاص ولاة الأمور للأمة ، وطاعة الأمة لولاة أمورها ، فأوجب على الولاة أن يقيموا سياستهم على رعاية الحقوق والمصالح . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصحه إلا لم يجد ريح الجنة » ثم التفت إلى الرعية فأمرهم بحسن الطاعة(١) . ومن شواهد هذا قوله عليه الصلاة والسلام : « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة »(٢) .

فالحق أن سعادة الأمة فى أيدى رؤسائها ، فإذا استقاموا على الطريقة وساسوها برفق وحرص على مصالحها وكرامتها ، سارت بجانبهم مستقيمة ، فلا تلبث أن تنجح فى سيرتها وتظفر ببغيتها « الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لاتبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم » .

---

(١) ، (٢) صحيح البخارى .

صدق العزيمة .. أو قوة الإرادة

يخطر فى النفس أمر فتثق بأنه حق أو نافع ، فتحرص على حصوله ، فإذا أضافت إلى هذا الحرص النظر فى وسيلة بلوغها إياه ؛ وبدا لها أنه فى حدود استطاعتها ، فسرعان ما تقبل عليه وتبذل سعيها للوصول إليه ، وذلك ما نسميه بالعزم أو الإرادة .

فما يخطر فى النفس مما تعتقد حقيته أو نفعه ، وتود أن يكون حاصلا لديها ثم لا تسعى له سعيه ، ولاتضع لبلوغه خطة ، فإنما هو التمنى الذى لا يفرق بين المحال والمستطاع ، والذى يخطر فى نفوس القاعدين كما يخطر فى نفوس المجاهدين ، وما مثله إلا كمثل الشرر الذى يلمع حول النار ثم يتصاعد هباء .

وإذا تحدثنا فى هذا المقال عن قوة الإرادة وذهبنا فى حديثها مذهب خصال الحمد ، فإنما نعنى الإرادة المتوجهة إلى ما هو خير . ومن أفضل ما يمدح به الرجل أن يتوجه بعزمه القاطع إلى إظهار حق أو إقامة مصلحة .

تنشأ قوة الإرادة من التجارب ، فمن تعلق همه بأمر كان قد عرف بطريق التجربة أنه ميسور وأن عاقبته سلامة ونجاح ، انقلب همه فى الحال عزماً صادقاً ، أما من لم تسبق له تجربة فقد يتخيل الأمر بمكان لا تناله يده أو يخشى من أن يلاقى وراء السعى إليه خيبة ، فيقف فى تردد وإحجام ، فذو العمر الطويل من أولى الألباب قد يكون أسرع إلى بعض الأمور وأشد عزماً عليها من حديث السن ، لمـا تفيده التجارب من إمكانها ونجاح السعى لها .

وتنشأ قوة الإرادة من درس التاريخ ؛ فالذى يخطر فى باله أمر قرأ

فى سيرة شخص أنه كان قد هم بمثله وعمل لحصوله فنجح عمله وصلحت عاقبته ، شأنه أن يعزم على ذلك الخاطر ويجعله بعد العزم عملا نافذاً ، فمن يخطر فى باله أن يدعو الحاكم الجائر بالموعظة الحسنة ، وقد قرأ سير العلماء الذين كانوا يأمرون بعض الجبارين بالمعروف فيأتمرون ، أو يكظمون فى الأقل غيظهم ولا يبطشون ، يكون أقوى عزماً على الدعوة ممن لم يقرأ فى هذا الشأن خبراً ، لما عرفه من أن للحق الذى يخرج فى أسلوبه الحكيم سطوة على النفوس وإن كانت طاغية ، فيقدم على وعظه فى رفق وحسن خطاب ، فإن لم يهده سبيل الرشد قضى حق النصيحة له ، وما على الذين أوتوا الحكمة إلا البلاغ .

وتنشأ قوة الإرادة من أدلة خاصة تجعل الرجل على يقين من نجاح العمل وحسن العاقبة ، واعتبروا فى هذا بتصميم أبى بكر الصديق رضى الله عنه على قتال أهل الردة ومانعى الزكاة ، فإنه كان عالماً بأنه على حق من قتالهم ، وكان على ثقة من أنه سينتصر بفئته القليلة على جموعهم الكثيرة ، ومما دله على أنه الظافر وأن المرتدين عن الدين لا يفلحون قوله تعالى : **« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون »** . ولو تقاعد أبو بكر عن جهاد تلك القبائل وخلى الردة تتفشى فى جزيرة العرب وباء فاتكاً ، لانفصمت عرى الوحدة العربية الإسلامية ، ولم يستقم أمر تلك الفتوح التى كانت عاقبتها ظهور دين الحق على سائر الأديان .

وتنشأ قوة الإرادة من كمال بعض السجايا الأخرى وبلوغها غاية قصوى كسجية إباء الضيم تهز الضعيف وتثير فى نفسه العزم على أن يدافع القوى عن حقوقه ما استطاع دفاعه ، وكذلك خلق الشجاعة يجعل الرجل أمضى عزماً وأسبق إلى الحروب من الجبان الذى يتمثل له الموت فى كل سبيل .

ومما يساعد الرجل على صدق العزيمة خلق التعفف وشرف الهمة ، فلتجدن أنزه القوم نفساً وأبعدهم عن الطمع وجهة ، أشدهم عزماً على أن يقول حقاً أو يعمل صالحاً وإن لم يرض عن قوله الحق أو عمله الصالح ذو مال أو سلطان .

تتفاوت الإرادة فى القوة ، وتفاوتها على قدر قوة شعور الرجل بما للشىء من حقيقة أو نفع ، وعلى قدر ثقته من تيسره وإمكان حصوله ، فالذى أتقن علماً فأحاط بأصوله وغاص على أسراره يكون عزمه فى الدعاية إلى الأعمال المرتبطة به أقوى من عزم ذلك الذى وقف فى دراسته عند حد لا يجعله من أعلامه ، والرئيس العادل يكون أقوى عزماً على حرب أعدائه من الرئيس الجائر ، لأن العادل يثق من قومه بحسن الطاعة أكثر مما يثق الجائر ، ومن ظفر من قومه بحسن الطاعة فقد ظفر بأكبر أسباب الفوز والانتصار .

نقرأ فى التاريخ أن المنصور بن أبى عامر الذى جذب عنان الملك من يد هشام بن الحكم فى قرطبة قد غزا ستا وخمسين غزوة دون أن تنتكس له راية أو يتخاذل له جيش ، أو يصاب له بعث ، أو تهلك له سرية ، ومن درس سيرته لم يعجب لهذا الانتصار المطرد ، إذ يجد فيها عدلا ومساواة يأخذان النفوس إلى أن تلقى إليه بالمودة والامتثال ، ومن الأخبار الشاهدة بما وصفنا أن رجلا من العامة وقف بمجلسه وقال له : إن لى مظلمة عند ذلك الوصيف الذى على رأسك ، وأشار إلى الفتى صاحب الدرقة(١) ، وكان للفتى فضل محل عنده ، فقال المنصور : ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية ، ثم نظر إلى الفتى وقال له : ادفع الدرقة إلى فلان وانزل صاغراً وساو خصمك فى مقامه حتى يرفعك الحق أو يضعك ، ثم قال لصاحب شرطته الخاص به : خذ بيد هذا الفاسق الظالم وقدمه مع خصمه إلى صاحب المظالم لينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق من سجن أو غيره ، وبعد أن جازاه القضاء بما يستحق أبعده المنصور عن خدمته ، وصاحب مثل هذه السيرة حقيق بأن يكون له متى هم بالحرب عزم لا يختلج بتردد .

فمن وضع أمامه غاية شريفة ورام من قومه العمل لها بعزم لا يخالطه فتور ، فما عليه إلا أن يريهم بالأسلوب السائغ والدليل المقنع وجه شرف

---

(١) الدرقة : الترس .

تلك الغاية ، ثم يصف لهم طريقها الناجح ، فلا يكون منهم إلا أن تسابقوا إليها ، ويقتحموا كل عقبة تلاقيهم فى سبيلها .

فإذا رأيت قوماً يذكرون فى صبحهم ومسائهم شيئاً من معالى الأمور ولم ترهم يسعون له سعيه ولا يتقدمون إليه بخطوة فاعلم أن العزم لم يأخذ من قلوبهم مأخذه ، فهم إما أن يكونوا عن حقيقته وشرف غايته غائبين ، وإما أنهم ضلوا طريقه وما كانوا مهتدين .

وإذا ذكرنا العزم النافذ فى خصال الشرف فإنما نريد الإقدام على الأمر بعد استبانة عاقبته ولو على وجه الظن الغالب ، وذلك ما يعنيه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى قوله : « ولكن الحرب لايصلحها إلا الرجل المكيث » والمكيث من لا يخف إلى الهجوم إلا بعد روية وتدبر .

ولا يعد فى قلة العزم أن يستبين الرجل الحق أو المصلحة ويقف دون عزمه مانع ؛ كأن يعلم أن عقول الجمهور لا تتسع لقبوله ويخشى الفتنة فيرجئه ريثما يمهد له بما يجعله مقبولا سائغاً ، قال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه عمر : يا أبت مالك لا تنفذ الأمور ؟ فوالله لا أبالى فى الحق او غلت بى وبك القدور ، فقال له عمر : لا تعجل يا بنى إن الله تعالى ذم الخمر مرتين وحرمها فى الثالثة ، وإنى أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة فيدفعوه وتكون فتنة .

ولا يعد فى قلة العزم أن يرى الرجل رأياً ويعقد النية على إنفاذه ثم يبدو له على طريق الحجة أنه غير صالح فينصرف عنه . وقوى العزيمة هو الذى تكون إرادته تحت سلطان عقله ، فيقبل بها على ما يراه صواباً ، ويدبر بها عما يراه فساداً .

وإذا قال الشاعر مادحاً :

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ... ونكب عن ذكر العواقب جانباً

فإنما يريد الهم الناشىء عن رجاحة رأى . وقوى العزم متى بصر بالأمر

ووثق بأنه سداد قطع نظره عن العواقب ونهض له فى قوة ، أما ضعيف العزم فإنه يترك بنفسه مجالا للخواطر وذكر العواقب ، هذه تغريه على العمل ، وهذه تصده عنه حتى تفوت الفرصة ويذهب وقت العمل ضائعاً .

ومن صرامة العزم أن تفرغ فؤادك من كل داعية شأنها أن تلحق بعزمك وهنا أو تصرف وجهك عنه صفحاً ، وتتمثل هذه الصرامة فى عبد الرحمن الداخل (صقر قريش(١)) إذ خرج من البحر أول قدومه على الأندلس وأهديت له جارية بارعة الجمال ، فنظر إليها وقال : إن هذه من القلب والعين بمكان ، وإن أنا شغلت عنها بما أهم به ظلمتها ، وإن أنا اشتغلت بها عما أهم به ظلمت همتى . فلا حاجة لى بها الآن . وردها على صاحبها .

وكثيراً ما يجىء التردد فى أمر من ناحية الشهوات والعواطف . كالذى يثق بما فى طلب العلم من خير وشرف ويقعده عنه حب الراحة وإيثار ما تنزع إليه النفس من اللذات الحاضرة . والذى يقول :

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأى أن تترددا

إنما ينبه على التردد الناشىء عن نحو الشهوات والعواطف . فذلك هو التردد المفسد للرأى والموقع فى خسر .

لقوة الإرادة أثر فى انقلاب حال الأفراد والجماعات عظيم . فكم من فتى يساويه فى نباهة الذهن وسائر وسائل السؤدد فتيان كثيرون ، ولكنه يجد من قوة الإرادة مالا يجدون ، فيكون له شأن غير شأنهم ، ويبلغ فى المحامد شأوا أبعد من شأوهم ، ولو نظرت إلى كثير ممن ظهروا أكثر مما ظهر غيرهم ، وأقمت موازنة بينهم وبين كثير من لداتهم لم تجد فى أولئك الظاهرين مزية يرجح بها وزنهم غير أنهم يهمون بالأمر فيعملون .

وإذا جعلت تتقصى أثر دولة الموحدين التى وضعت قدمها فى فاس وبسطت أجنحتها على الأندلس والجزائر وتونس . وجدت أقصى هذه

---

(١) قال أبوجعفر المنصور لأصحابه يوماً : أخبرونى عن صقر قريش ، فذكروا له طائفة من الخلفاء وهو يقول (لا) فقالوا : من يا أمير المؤمنين ؟ فقال : عبد الرحمن بن معاوية الذى عبر البحر وقطع القفر ودخل بلداً أعجمياً مفرداً فمصر الأمصار وجند الأجناد ودون الدواوين وأقام ملكاً بعد انقطاعه ، لحسن تدبيره وشدة شكيمته .

الدولة همة طفحت بها نفس محمد بن تومرت بعد انصرافه عن مجالس أبي حامد الغزالي وأبي بكر الطرطوشي وغيرهما عائداً إلى بلده بالمغرب الأقصى .

وكم من أمة أو دولة لم ينقذها ممن يبتغي بها سوءاً سوى قوة الإرادة ، وقد يكون فيما صنع هرون الرشيد بالبرامكة غلو في الانتقام وسرف في القتل ، ولكن تنقية مناصب الدولة منهم لم تكن إلا بنت اليقظة والإرادة التي لا يأخذها التردد في قطع المكر السيء من جذوره . وإذا صح ما يصفهم به بعض أهل(١)العلم من أنهم كانوا يكيدون للإسلام كيد الباطنية ؛ كان لهرون الرشيد موقف خير من موقف المنتقم لملكه أو ملك أسرته من بعده .

فإذا كان صدق العزيمة من أفضل خصال الشرف وأجلها في الإصلاح أثراً ، فجدير بأساتيذ التربية أن يعطوه من عنايتهم نصيباً وافراً ؛ وحقيق بالرجال القوامين على الشئون العامة أن يأخذوا به أنفسهم ، ويقيموه شاهداً على كفايتهم ، فإن ما بيننا وبين المدنية الفاضلة والحياة الآمنة مسافة طويلة المدى ، صعبة المرتقى ، إذا لم نقطعها بالعزم الصارم والعمل المتواصل ظلمنا أنفسنا ، ولم نقض حق الأجيال بعدنا ، فمن واجبهم علينا أن نبني لهم صروحاً من العز شامخة ، فإن لم نستطع هيأنا لهم أسساً ليرفعوا عليها قواعد الشرف والمنعة ، فإذا هم أحرار في أوطانهم حقاً ، مكرمون لنزلائهم طوعاً .

وما اقترن العزم الصحيح بأدب التوكل على من بيده ملكوت كل شيء إلا كانت عاقبته نجاحاً ورشداً « **فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين** » .

* * *

---

(١) هذا ما قرره القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب القواصم والعواصم

الغيرة على الحقائق والمصالح

متى نظر الإنسان أو تدبر أمراً ووثق بأنه حقيقة أو مصلحة ، وجد فى نفسه ارتياحاً عندما يلاقى شخصاً يشاركه فى الشعور به ، ويكون ارتياحه أشد حيث يراه يعمل على مقتضى هذا الشعور ، كما أنه يتألم حينما يشاهد أمراً ينكر تلك الحقيقة أو المصلحة ، ويكون تألمه أشد حيث يراه مجداً فى مناوأتها سالكاً غير سبيلها . وهذا التألم الذى يشتد فيدفعك إلى أن تسهب فى إيضاح وجه الحقيقة أو المصلحة ، أو تعمل على أن تكف يد من يبغى عليها ما أمكنك هو ما نعنيه بالغيرة .

فإذا حدثك الرجل فى أمر وأراك أنه مطمئن إلى أنه حق ثم لا تلبث أن تراه متحيزاً إلى من يكيد له ويدعو إلى من ينقضه ، فاعلم أنه خالى القلب من الاطمئنان إليه ، وإنما أراك ظاهراً يخالف ما يكنه صدره وتطمئن إليه نفسه . والعقل السليم لا يستطيع أن يفهم كيف يجتمع الإيمان بالحق مع موالاة من يحاربه فى السر أو العلانية ، فالغيرة على الحق من مقتضيات الإيمان به ، تقوى بقوته ، وتضعف بضعفه ، وتفقد حيث لا يكون القلب مؤمناً .

وفى الناس من يلهج بكلمة « التسامح » يملأ بها فمه حتى لا تنكر عليه حين تراه قد اتخذ من المضلين أو المفسدين فى الأرض أولياء يطيل التردد على أعتابهم ، ويغمس لسانه أينما جلس فى إطرائهم ، ويجهد نفسه فى تمويه باطلهم . والتسامح المعقول أن لا تؤذى من خالفك فى العقيدة فتنسب إليه زوراً ، أو تنفى عنه مكرمة ، أو تهضم له حقاً أو تنكث له عهداً أو تخلف له وعداً . ومن التسامح المقبول أن تبره وتقسط إليه وتمد إليه يد التعاون على المصالح المشتركة ، وقد حرمت الشريعة الإسلامية الإساءة إلى المخالفين الذين لم يخرجونا من ديارنا ولم يطعنوا فى ديننا ولم يوقدوا ناراً لحربنا ،

وردت أحاديث تنهى عن مس الناس بشيء من الأذى ، فحمل الفقهاء النهى فيها على وجه يعم المخالفين المقيمين فى ظل الإسلام ، كما قالوا فى حديث « لا يبع بعضكم على بيع أخيه » إن النهى شامل لبيع المسلم على بيع غير المسلم لما ينشأ عن صرف المشترى عنه من تقاطع وشحناء ، وأذنت فى أن نبرهم ونقسط إليهم ، قال تعالى : « **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين** ».

وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نداري من ينتمون إلى الإسلام ونعاشرهم بالمعروف وإن عرفنا فى لحن أقوالهم أو غيره من الدلائل الخفية أنهم من طائفة المنافقين .

أما الرجل الذى يملك قلماً أو لساناً أو حساماً أو جاهاً فيصرفه فى نقض أساس ما هو دين حق أو شريعة صالحة ، فذلك ما لا يتولاه إلا غبي لا يفرق بين الأعمى والبصير . أو زائغ عن سبيل الرشد فما له من نور . وقد أنكر الله على من يتزلف لأشياع الغى فقال : « **أيبتغون عندهم العزة ؟ فإن العزة لله جميعاً** » وفى الآية شاهد صدق على أن العزة بيد الله يخلعها على من يغار على الحقائق غير مكترث بمن يناوئونها وإن كانوا أولى جاه أو سلطان .

فمن الغيرة على الحق أن تقاوم المبطلين أو المفسدين قاطعاً النظر عن كل صلة وعاطفة ، ومن التسامح المقبول أن تدفعهم بالتى هى أحسن حتى كأنك لا تعرف شيئاً من شئونهم غير ما تصديت لمناقشتهم فيه ، وذلك ما يستبين به الناس أنك لا تقصد إلا أن تكف بأسهم وتحمى النفوس من وباء دعايتهم .

تتفاضل الحقائق والمصالح من ناحية ما يتصل بها من خير ، فوجود الخالق أو صدق محمد صلى الله عليه وسلم فى رسالته مثلا ، يقوم على الإيمان به من سعادة الأفراد والأقوام أكثر مما يقوم على الإيمان بعدل أبى بكر وعمر بن الخطاب ؛ وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة يترتب عليها من الفلاح فوق ما يترتب على زيارة أخ أو عيادة مريض .

وكذلك الغيرة على الحقائق والمصالح تكون على قدر تفاضلها فيما يترتب عليها من العواقب ، فالغيرة الصادقة أن يتألم الرجل من الجهل على مقام الإلهية أو الرسالة العظمى أشد مما يتألم للطعن فى نفسه أو فى أخ له

أو صديق ، ويتألم لهدم مسجد أو إلغاء مدرسة أشد مما يتألم لهدم بيت أو إهمال حديقة .

بعيد من الغيرة عن الحقائق ذلك الذى يسمع سوء القول فى الله أو فى رسوله فلا يجد فى نفسه لسماع هذا السفه أثراً ، وإذا مس جانب من يتصل به نسباً أو يمد له من متاع هذه الحياة سبباً ، هاج غضبه وارتعدت فرائصه .

بعيد من الغيرة على المصالح ذلك الذي يكون تحت يده مال فيبخل به على بناء مدرسة يستنير فيها الناشئون ، أو إقامة ملجأ يأوى إليه البائسون ، ويبسط به يده فى إنشاء مرقص أو ملهى يتخذ فيه الفتيان والفتيات أنصاباً يسفكون عليها دم الفضيلة .

ضعف الغيرة على الحق أو فقدها نقيصة تنزل بصاحبها إلى الحضيض .
وكذلك ينبغى للإنسان أن يملك الغيرة عند ثورتها فلا يخرج فى معاملة المنتهك لحرمة الحق عن حدود العدل ، فالذى يغار على أمر جعل الشارع لمنتهكه حداً مفروضاً لا يحل له أن يتجاوز ما حده الشارع استرسالا مع طغيانها ، فإن كان الجزاء موكولا لاجتهاد القاضى اجتزأ القاضى بالمقدار الذى يكفى للردع ، وليس من الغيرة المحمودة أن يتعدى فى جزاء السيئة ما يكفى للزجر عن اقترافها ، والغيرة الصادقة هى التى تنهض بصاحبها إلى مكافحة المبطل أو المفسد وتقويم عوجه فى تثبت وحزم .

الغيرة تبعث الرجل على الجهاد فى الحق بأى وسيلة استطاعها ، فالرئيس الغيور يذود عن الحق بما فى يده من قوة متى كان الهاجم عليه فى غشاوة تمنعه من أن يفقه الحجة ، والعالم الغيور لا يفتأ يذب عن الحق بلسانه أو قلمه ، ولا يسوقه طمع أو رهبة إلى الخمول أو الصمت ، وما خمول العالم وصمته سوى قلة الثقة بما وعد الله به أنصار الحق من فوز وحياة طيبة ، والموسر الغيور ينفق فى سبيل الإصلاح باليمين واليسار ، ومن كان صافى البصيرة يرتاح لظهور الحق وقيام المصلحة العامة أكثر مما يرتاح لأن يكنز ذهباً ، أو تكون له قصور فيحاء وحدائق غناء .

وإذا أردت أن تميز فاقد الغيرة على المصالح ممن يغارون عليها فهو الذى يجرى وراء منافعه الخاصة أينما رآها أو تخيلها ، يراها بجانب مصلحة عامة

فيظهر فى زى الداعى إلى هذه المصلحة ويملأ الجو نداء للتعاون عليها ، حتى إذا تراءت له منفعة لا يصل إليها إلا أن يقضى على ما ينفع الناس جميعاً داسه بكلتا قدميه ، وذهب إلى منفعته توا لا يلوى على شيء .

قد يسلك الرجل طريق العدل محافظة على المنصب أو رغبة في حسن الأحدوثة ، ولكن الغيرة على الحق هى التى تجعل الحاكم عادلا فى كل قضية ، فالغيرة على الحق هى التى تقف بالقاضى فى حدود الإنصاف حين ترفع إليه خصومة بين ذى سلطان وأشعث أغبر ذى طمرين فلا يبالى أن ينصف ذا الطمرين(١) ويقضى على ذى السلطان ، وكذلك يفعل القضاة العادلون ، دعى العلامة محمد بن بشير إلى قضاء قرطبة فاستشار صديقاً له فى قبول الولاية فقال له : كيف حبك لمدح الناس لك وثنائهم عليك ؟ وكيف حبك للولاية وكراهيتك للعزل ؟ قال : والله ما أبالى من مدحنى أو ذمنى ، وما أسر للولاية ولا أستوحش للعزل ! فقال : اقبل الولاية ولا بأس عليك . وفى سيرة ابن بشير هذا ما يشهد بصدق غيرته على الحق ويحقق ما وصف به نفسه من أنه لا يسر للولاية ولا يستوحش من العزل .

من الخطر على الحقوق والمصالح أن يتولى أمرها محروم من الغيرة عليها ، وكم من حق أهمل ومصلحة أميتت ، والسبب فى إهمال ذاك وإماتة هذه أن ألقى أمرهما إلى من لم يذق للغيرة عليهما طعماً ، وماذا يكون العمل فى قضية الاعتداء على هتك عرض الفتاة إذا أسندت إلى من تقلب فى بيئة لا تعرف للعفاف سبيلا ؟ وماذا يكون العمل فى قضية الاعتداء على الدين إذا وضعت بين يدى من لا يرى له حرمة ولا يرعى للأمة التى تعتصم به ذمة ؟ وكيف تدار مدرسة ترجع نظم التعليم فيها إلى من يؤثر اللهو على الجد ، ويفتنه زخرف الحياة عن طرق الرشد التى تخرج رجالا يعملون صالحاً ويبتكرون عظيماً ؟ ونحن نرى فى الشعوب من حيل بينها وبين واجبات دينها ، وأكرهت على التعامل بغير ما تأذن به شريعتها ، واستبد عليها فى طريقة تعليم أبنائها ، ذلك لأنها وقعت تحت ذى قوة استضعفها ، ولم يكن له نصيب من الغيرة على شريعتها !

---

(١) الطمر : الثوب الخلق .

إن أمة لها دين قيم وشرع حكيم ومجد لم يصف التاريخ له من نظير ، لا يستقيم أمرها إلا لمن يغار على شرعها أو يتودد لها باحترامه والمحافظة على أصوله .

وإذا حكى لنا التاريخ أن ذا سلطان آذى أمة إسلامية فى دينها أو قهرها بالسيف أو بوسيلة التعليم على أن تنسلخ من هداية ربها ، فلأنه إنما وضع سلطانه على رءوس جماعات متفرقة غافلة ، أما الأمم المتيقظة التى تقدر الحق قدره فليس من السهل على ذى القوة أن يؤذيها فى دينها ، ويستخف بالحقوق التى قررها شرعها إلا أن يكون جهولا بالعواقب ، أو غير راغب فى أن يكون سلطانه ثابت القواعد .

الغيرة على الحق تتمثل فيمن ينظر إلى الدليل ويصدع بما أراه الله وإن كره السائلون .

حضر لدى ابن هبيرة الحسن البصرى فاستفتاه ابن هبيرة فى كتب تأتيه من عند يزيد بن عبد الملك وفيها من الأمر بما لم يأذن به الله ، وقال : « إن أنفذتها وافقت سخط الله ، وإن لم أنفذها خشيت على دمى ! » فقال الحسن : « يا بن هبيرة خف الله فى يزيد ولا تخف يزيد فى الله ، يا بن هبيرة إن الله مانعك من يزيد ، وإن يزيد لا يمنعك من الله ، يا بن هبيرة لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، فانظر ما كتب إليك فيه يزيد فاعرضه على كتاب الله تعالى فما وافق كتاب الله تعالى فأنفذه ، وما خالف كتاب الله فلا تنفذه ، فإن الله أولى بك من يزيد ، وكتاب الله أولى بك من كتابه » ! فضرب ابن هبيرة على كتف الحسن ، وقال « هذا الشيخ صدقنى ورب الكعبة » !

وتتمثل الغيرة على الحق فيمن يفسح له بعض الوجهاء فى الإكرام مكانه ولا يمنعه ذلك من أن ينظر إلى ما أكرمه الله به من عقل ورفعه به من علم فلا يسكت لذلك الوجيه عما يأتى من منكر ويذهب فى تقويمه كل مذهب ممكن . وأضرب المثل لهذا بإبراهيم بن محمد بن طلحة إذ قربه الحجاج وعظم منزلته . وقدم به على عبد الملك بن مروان وقال له : قدمت عليك برجل الحجاز لم أدع له بها نظيراً فى الفضل والأدب والمروءة وهو إبراهيم ابن محمد بن طلحة ، ولكن إبراهيم بن طلحة قال لعبد الملك : عندى

نصيحة لا أجد بدا من ذكرها ولا أقدر على ذلك إلا وأنا خال ، فصرف عبد الملك الحجاج من المجلس وقال لابن طلحة : قل نصيحتك ، فقال : « تالله يا أمير المؤمنين لقد عمدت إلى الحجاج فى تغطرسه وتعجرفه.وبعده عن الحق وقربه من الباطل فوليته الحرمين وهما ما هما ، وبهما من بهما من المهاجرين والأنصار والموالى والأخيار ، يسومهم الخسف ويحكم فيهم بغير السنة بعد الذى كان من سفك دمائهم وما انتهك من حرمهم » !
ولم يخبر عبد الملك الحجاج بما قال ابن طلحة ولكنه عزله عن الحرمين وولاه العراقين ، واعتذر لابن طلحة عن توليته العراقين بأن فيها من الأمور مالا يدحضها إلا مثله .

وفصل القول فى هذا أن الغيرة على الحق والمصلحة ما غلبت على نفوس الأمة إلا استقامت سيرتها ، وعلت فى الأمم سمعتها ، وحسنت فى كلتا الحياتين عاقبتها ، ولا حق أجلى مما يدعو إليه الخلاق العليم ، ولا مصلحة أعظم مما تهدى إليه أصول شرعة الحكيم ، فإذا لم نرسم فى نفوس نشئنا الغيرة على حقائق الدين ، وما أرشد إليه من مصالح وما سنه من آداب ، ضلوا عن أسمى الحقائق ، وأضاعوا أكبر المصالح ، وتجردوا من أسنى الآداب ، وهل غير هذه العاقبة من خسران مبين ؟

فمن أهم واجباتنا أن نربى نشأنا على الشعور بعظمة الله ، ثم لا نفتأ نذكر لهم آيات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حتى يطمئنوا إلى صحتها ، ولا ندع أن نقرر لهم أصول الشريعة على وجه يجعلهم على بصيرة من حكمتها ، وهذا ما يربى فيهم الغيرة المهذبة ، ويعدهم لأن يكونوا للحقائق والمصالح أنصاراً .

* * *

الشجاعة وأثرها فى عظمة الأمم (1)

فى الدنيا لذة وخير ، وفى الدنيا ألم وشر ، وفى النفوس طبيعة الارتياح والرغبة فيما فيه لذة أو خير ، وطبيعة النفور والخوف مما فيه ألم أو شر ، وعلى حال الرغبة والرهبة تقوم فضيلة الشجاعة ورذيلة الجبن .

ذلك أن الإنسان يخاف أن يقع فى ألم ، أو يرغب فى إدراك لذة فيبتغى الوسيلة إلى التخلص من الألم ، أو الوصول إلى اللذة .

فالشجاع يخاف من العار الذى يلحقه من احتمال الضيم ، أو يرغب فى أن يدرك مجداً شامخاً أو ثناء فاخراً ، فيلقى بنفسه فى مواقع الدفاع ، لا يلوى جبينه عن طعان أو نضال .

ويخاف الجبان الموت ، أو يرغب فى نعيم عاجل أو زينة ، فيقعد مع القواعد ولا يهمه أن تزدريه كل عين ، أو يذمه كل لسان .

إذا مـا الفتى لم يبغ إلا لباسه ومطعمه فالخـير منه بعيد

وليس كل إقدام على الموت شجاعة ، وإنما الشجاعة الإقدام فى المواطن التى ينبغى فيها الإقدام ، كمواقف الدفاع عن النفس أو العرض أو الدين أو المستضعفين من الناس ، فليس بالشجاع ذلك الذى يحمل السلاح ويلبس ظلام الليل ، ليسفك دماً معصوماً ، أو ينهب مالا بغير حق ، وإنما هو سفه الرأى وقسوة القلب ، يلتقيان فيلدان بغياً وفساداً فى الأرض . وعلماء الأخلاق يسمون مثل هذا الإقدام جراءة وتهوراً .

وليس بالشجاع ذلك الذى يفاجئه مكروه من نحو مرض أو خيبة أمل ، فيسود فى عينه وجه الحياة ، ويرتكب جريمة الانتحار ، فإن إقدام

---

(1) محاضرة ألقيت فى محطة الإذاعة .

المنتحر على الموت إنما هو أثر ضعف النفس وفقد العزم الذى يعده عظماء الرجال لما يعرض لهم من الشدائد . ومن هنا قال أرسطو فى كتاب الأخلاق : إن الإقدام على الانتحار خليق بأن يسمى جبناً دون أن يسمى شجاعة .

وإذا كان الإقدام على الموت ونحوه ، قد يسمى تهوراً ، وقد يسمى جبناً ، فالشجاعة إنما هى الإقدام الصادر عن روية وحكمة .

ينظر حكيم الرأى إلى ما قد يلحقه فى مواطن الدفاع من نحو مصيبة الموت ، ويزنه بما يلحقه عند الإحجام من نحو الذل والهوان ، فيبدو له أن الإحجام لا يمنع من الموت .

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره　　تنوعت الأسباب والموت واحد

وإن العار والهوان يمكن اتقاؤهما بالإقدام والثبات ، فيكون الإقدام فى نظره أرجح من الإحجام ، قال قطرى بن الفجاءة :

وما للمرء خير فى حياة　　إذا ما عد من سقط المتاع

وقد يعتدى على الرجل طائفة من عشيرته أو قومه فينظر إلى اللذة التى قد يدركها بالانتقام منهم ، ويقيسها بالضرر الذى يلحقه من هذا الانتقام فيبدو له أن لذة الانتقام عرض زائل ، وأن فى الإقدام على حربهم توسيعاً لثلمة العداوة ، وتقليلا لعدد أنصاره ، وإضاعة لخصلة من أعظم خصال الشرف وهى الحلم ، فيؤثر هنا الإحجام على الإقدام .

قومى هم قتلوا أميم أخى　　فإذا رميت يصيبنى سهمى

وليس من شرط الشجاعة أن لا يجد الرجل فى نفسه الخوف من الهلاك جملة ، بل يكفى فى شجاعة الرجل أن لا يعظم فى نفسه الخوف حتى يمنعه من الإقدام ، أو يرجع به إلى انهزام ، قال هشام بن عبد الملك لمسلمة : يا أبا سعيد : هل دخلك ذعر قط لحرب أو عدو ؟ قال مسلمة : ما سلمت فى ذلك من ذعر ينبه على حيلة ، ولم يغشنى فيها ذعر سلبنى رأيى . قال هشام : هذه هى البسالة !

وقد يتوهم متوهم أن الجبان يحب نفسه أكثر مما يحب الشجاع نفسه . والواقع أن الشجاع شديد الحب لنفسه ، وشدة الحب لنفسه هى التى تحمله

على أن يركب الأخطار ، ويخوض غمرات الحروب ليكسبها الشرف أو السعادة ، قال ابن الحسين :

وحب الجبان النفس أورثه التقى   وحب الشجاع النفس أورثه الحربا

يحرص الجبان على الحياة ليتمتع بما يصل إليه من مطعوم أو زينة ، ويحرص الشجاع على الحياة ليتمتع بما يكسب من شرف وعزة ، وهذه الحياة هى التى توهب للشجاع عندما يخوض غمار الحرب بثبات وعزم ، كما قال الصديق لخالد بن الوليد : « احرص على الموت ، توهب لك الحياة ». وهذه الحياة هى التى وجدها الحصين بن الحمام فى الإقدام فقال :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد   لنفسى حياة مثل أن أتقدما

يتفاضل الناس فى الشجاعة ، فمنهم من يقدم على مواقع الخطر ، ويخوض عبابها ثابت الجنان ، حتى يفوز بالظفر أو يلاقى مصرعه ، قال السرى الرفاء فى سيف الدولة .

وأغر يأنف أن يصد عن الوغى   حتى يذل معاطسا وأنوفا

وقال المعتمد بن عباد :

ما سرت قط إلى القتا   ل وكان من أملى الرجوع

وقال أبو تمام فى مدح محمد بن حميد :

فأثبت فى مستنقع الموت رجله   وقال لها من تحت أخمصك الحشر

وهذا الصنف من الأبطال هم الذين يفخرون ، أو يمدحون بأن الطعن لا يقع فى ظهورهم قط ، وإذا طعنوا ، ففى وجوههم أو صدورهم ، قال الحصين بن الحمام :

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا   ولكن على أقدامنا تقطر الدما

ومن أهل هذه الطبقة أولئك الذين يصفونهم فى مواقع الخطوب بطلاقة المحيا ، أو ابتسام الثغر ، أو ابتهاج القلب ، قال ابن الحسين :

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة   ووجهك وضاح وثغرك باسم

وقال ابن هانىء :

كأن لواء الشمس غـرة جعفـر ... رأى القرن فازدادت طلاقته ضعفا

وقد يحدثونك عن قوة شجاعة القوم ، فيصفونهم بأنهم يلذون ذكر المنايا ، ويطربون لأحاديث الحروب :

تثنى حـديث الوغى أعطافهم طربا ... كأن ذكر المنـايا بينهم غـزل

ومن ثقة الرجل بشجاعته أن يقارع خصومه مجابهة ، ويأنف أن يقارعهم على وجه المخاتلة ، قال بعض مادحي سيف الدولة :

إذا حاول الأقران فى الروع ختله ... أبر عليهم مقدمـاً لا مخاتلا

ويبالغ بعض الأبطال فى عدم المبالاة بالموت ، فيدخل مواقع القتال دون أن يقى بدنه بنحو درع أو مغفر وهو قادر على وقايته ، كما قال المعتمد ابن عباد :

قـد رمت يـوم نـزالهم ... أن لا تحصننى الـدروع

وبرزت ليس سـوى القميـ ... ـص على الحشا شىء دفـوع

ويعدون من تناهى القوم فى الشجاعة أن يدعوهم إلى الحرب داع ، فينهضوا لهـا من غير أن يسألوا داعيهم عن وجهة الحرب ، ولا عن الباعث عليها ، قال وداك بن نمير المـازنى :

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهمُ ... لأية حـرب أم بأى مـكان

وتعد هذه الطاعة البالغة من قبيل الشجاعة المحمودة ، متى كانت إجابة لداع عرفوه بصدق اللهجة وحكمة الرأى .

وليس من لباب الشجاعة ، ولا من قشورها : أن يسرع الرجل إلى مواقع الخطوب جاهلا بما يلاقيه عندها من شدائد ، حتى إذا شاهد طرفا من أهوالهـا أو وقعت عليه شرارة من نارها ، لاذ بالفرار ، ورجع إلى أهله بغير قلب .

ومن ظن ممن يلاقى الحـروب ... بأن لا يصاب فقد ظن عجـزا

ولا ينقص من قدر الشجاع أن يقتل وهو يخوض فى غمار الحروب ، قال أبو تمام فى رثاء محمد بن حميد :

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة تقوم مقـــام النصر إن فاته النصر

ولا ينقص من قدره أن يثبت فى موقف الدفاع حتى يقع فى أسر ، وقع هاشم بن عبد العزيز قائد جيش السلطان محمد بن عبد الرحمن الأندلسى أسيراً فى يد العدو ، فاستقصره السلطان ونسبه إلى الطيش ، فاعتذر عنه الوليد ابن عبد الرحمن بن غانم ، ومما قال فى الاعتذار عنه : إن هاشماً قد استعمل جهده واستفرغ نصحه ، وقضى حق الإقدام ، حتى ملك مقبلا غير مدبر ، مبلياً غير فشل ، فجوزى خيراً عن نفسه وسلطانه !

والشأن فيمن يعيش فى نعيم وزينة أن يكون أشد الناس كراهة للحروب ، فإذا أنبتت بيئات الترف فتى يزدرى النعيم والزينة ، ويطمح بهمته إلى الشرف الصميم ، كان فضله فى الشجاعة أظهر ، وإقدامه أدعى إلى الإعجاب به . ولذلك ترى الأدباء إذا أرادوا أن يجعلوا إعجابك بشجاعة الممدوح أبلغ ، أشاروا إلى أن النعمة والزينة لا تذهب برجوليته ، ولا تقعد به عن حماية الشرف والكرامة . قال الحطيئة :

إذا هم بالأعـــداء لم يثن عزمه كعاب عليها لؤلؤ وشنوف
حصان لها فى البيت زى وبهجة ومشى كما تمشى القطاة قطوف

وقال كثير فى عبد الملك بن مروان :

إذا ما أراد الغزو لم يثن عزمه حصان عليها نظم در يزينهـــا
نهته فلمـــا لم تر النهى عاقه بكت فبكى مما شجاها قطينها

قد يعرف الجبان فضل الشجاعة ، ولكن الشجاع أعرف بقدرها ، وأدرى بقيمة قرنه المطبوع عليها ، وربما طاعنه مضطر إلى طعانه والأسف

يملأ ما بين جوانحه ، قال بشر فى القصيدة التى وصف فيه مقاتلته للأسد :

وقلت له يعز على أنى ... قتلت مناسبي جلدا وقهرا
ولكن رمت أمراً لم يرمه ... سواك فلم أطق ياليث صبرا

ويعجبنى من تشطير الأستاذ محمود قبادو التونسى لهذه القصيدة قوله :

(وقلت له يعز على أنى) ... أراك معفرا شطرا فشطرا
وأستحيى المروءة أن ترانى ... (قتلت مناسبي جلدا وقهرا)

وللشجاعة الفضل الأكبر فى حماية شرف الفرد أو الجماعة ، قال عمر ابن براقة الهمدانى :

متى تجمع القلب الذكى وصارما ... وأنفا حميا تجتنبك المظالم

وقال حسان بن ثابت يصف قوماً حرموا فضيلة الشجاعة ، فوقعوا فى ذل وصغار :

كرهوا الموت فاستبيح حماهم ... وأقاموا فعل اللئيم الذليل

وكم من شرف قوم سقط إلى الثرى ، وإنما سقط على أيدي أناس خالط قلوبهم الجبن ، حتى خيل إليهم أن قعودهم عن الحرب حزم وروية ، قال ابن الحسين :

يرى الجبناء أن الجبن حزم ... وتلك خديعة الطبع اللئيم

وللقرآن الكريم أبلغ الكلم فى تصوير حال الجبناء ، فانظروا إليه إذ يصفهم ويريكم كيف يذوقون موتات الفزع المرة بعد الأخرى ، فيقول : **(يحسبون كل صيحة عليهم)** ويريكم كيف يظهر أثر الجبن فى أبصارهم إذ يقلبونها وهم فى ذهول من أدركه الموت ، فيقول : **(فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت)** .

ومن أبدع ماورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تمجيد الأبطال الذين يركبون البحر للدفاع عن الحق ، أن شبههم بالملوك على الأسرة . ولفضل الشجاعة فى الذود عن الشرف والكرامة ، جاء الفخر بالموت فى مواقف الدفاع دون الموت على الفراش ، قال عبد الله بن الزبير فى خطبة

تأبينه لأخيه مصعب « إنا والله لا نموت إلا قتلا : قعصاً بالرماح ، وتحت ظلال السيوف » .

وخلاصة الحديث أن الأمة لا تحتفظ بعظمتها إلا أن تسود فيها الشجاعة وأن عظمتها على قدر من تخفق عليهم رايتها من ذوى البطولة ، فكان حقاً علينا أن نعنى فى تربية أبنائنا بخلق الشجاعة الموصولة بالحكمة ، حتى يروا العظائم صغائر ، ويقتحموا الخطوب بعزائم لا يعرف التردد ولا الوهن طريقها . والسلام عليكم ورحمة الله .

كبر الهمة فى العلم

الحديث عن فضل العلم وما يناله طالبه من مجد وكرامة حديث لا يكشف عن غامض ولا يطرق السمع بجديد ، فأقصد إلى شىء غير هذا هو لفت أنظار نشئنا إلى ناحية تجعل المعارف لدينا غزيرة والمباحث محررة ، والآراء مبتكرة ، وهى الوسيلة التى صعدت بعلمائنا الذين خدموا الدين والعلم والمدنية ، فكانت لهم المكانة التى يصفها التاريخ بإجلال وإعجاب ، ونعنى بهذه الوسيلة : كبر الهمة فى العلم .

لكبر الهمة فى العلم مظاهر هى أن تقضى الوقت فى دروس أو مطالعة أو تحرير ، وأن تقتحم فى سبيل ذلك المصاعب وتدافع ما يعترضك من العوائق ، وأن تبسط النظر فى كل مسألة تصديت لبحثها حتى تنفذ إلى لبابها ، وأن تضع يدك فى كل علم استطعت إليه طريقاً ، ثم تحط رحالك فى علم تكون فيه النجم الذى يهتدى به المدلجون ، والغيث الذى ينتجعه الظامئون ، وكبر همتك فى العلم يأبى إلا أن يكون للعلم مظهر هو العمل به والسير على ما يرسمه من الخطط الصالحة فى هذه الحياة .

أما صرف الوقت فى ابتغاء العلم فإن للعمر أجلا إذا جاء لا يستأخر ، وللعلم بحراً طافحاً ليس له من آخر ، فكل ساعة قابلة لأن تضع فيها حجراً يزداد به صرح مجدك ارتفاعاً ، ويقطع به قومك فى السعادة باعاً أو ذراعاً ، فإن كنت حريصاً على أن يكون لك المجد الأسمى ، ولقومك السعادة العظمى ، فدع الراحة جانباً ، واجعل بينك وبين اللهو حاجباً . وإذا رجعنا البصر فى تاريخ النوابغ الذين رفعوا للحكمة لواء ، وجدناهم يبخلون بأوقاتهم أن يصرفوا شيئاً منها فى غير درس أو بحث أو تحرير .

قدم الحافظ ابن أبى حاتم صاحب كتاب « علل الحديث » القاهرة

ليتلقى عن شيوخها مالم يكن يعلم ، فقضى فى مصر سبعة أشهر لم يجد هو وأصحابه من الوقت ما يهيئون فيه لطعامهم مرقاً ؛ وكانوا بالنهار يطوفون على الشيوخ ، وبالليل ينسخون ويقابلون . ونقرأ فى حياة الفيلسوف أبى على ابن سينا أنه لم ينم مدة اشتغاله بالعلم ليلة كاملة ، ولم يشتغل بالنهار بسوى المطالعة . ونجد فى التاريخ أن الفيلسوف ابن رشد لم يدع النظر ولا القراءة منذ عقل إلا ليلة وفاة أبيه وليلة بنائه على أهله .

لم يقض حق العلم ، بل لم يدر ما شرف العلم ذلك الذى يطلبه لينال به رزقاً أو ينافس فيه قريناً ، حتى إذا أدرك وظيفة أو أنس من نفسه الفوز على القرين أمسك عنانه ثانية ، وتنحى عن الطلب جانباً . وإنما ترفع الأوطان رأسها ، وتبرز فى مظاهر عزتها ، بهمم أولئك الذين يقبلون على العلم بجد وثبات ، ولا ينقطعون عنه إلا أن ينقطعوا عن الحياة .

وأما اقتحام المصاعب فى الطلب فإن معالى الأمور وعرة المسالك محفوفة بالمكاره ، والعلم أرفع مقام تطمح إليه الهمم ، وأشرف غاية تتسابق إليها الأمم ، فلا يخلص إليه الطالب دون أن يقاسى شدائد ويحتمل متاعب ، ولا يستهين بالشدائد إلا كبير الهمة ماضى العزيمة . كان سعيد بن المسيب يسير الليالى فى طلب الحديث الواحد ، ورحل أبو أيوب الأنصارى من المدينة إلى عقبة بن نافع وهو فى مصر ليروى عنه حديثاً ، فقدم مصر ونزل عن راحلته ولم يحل رحلها ، فسمع منه الحديث وركب راحلته وقفل إلى المدينة راجعاً ، ولم ينتشر العلم فى بلاد المغرب أو الأندلس إلا برجال رحلوا إلى الشرق ولاقوا فى رحلاتهم عناء ونصباً ، مثل أسد بن الفرات وأبى الوليد الباجى وأبى بكر بن العربى .

يتجرع كبير الهمة مرارة حين تقف بينه وبين جانب من العلم عقبة ، فإذا وجد مرعى العلم خصباً ، فعناؤه فيما يدعونه راحة ، وانقباضه فيما يسمونه لهواً ، وألمه فى ساعة ينقطع فيها عن العلم يساوى ألم المستهتر فى الشهوات حين يقضى يومه فى غير شهوة . وقد يحسب من لم تصف بصيرته حتى يرى الحكمة فى أسنى مظاهرها أن الذى يقول :

سهرى لتنقيح العلوم ألذ لى　　　من وصل غانية وطيب عناق

إنما هو شاعر لا يبالى أن يفضل الشيء على ما هو أكمل فى وجه الشبه وأقوى ، ويبعد فى نظره أن يبلغ ابتهاج النفس عند تحقيق بحث علمى مبلغ ابتهاجها بلقاء الغانيات ، ولكن الذى يقدر الحكمة يرى أن ناظم البيت لم يجد شيئاً يحاكى به اللذة التى يجدها عندما يطلق فكره وراء شوارد العلوم فيظفر بها ، فجاء إلى هذا الذى اشتهر بين الناس أنه لذيذ بالغ ، ووصف لذة الحكمة بأنها فوق لذته ، فصاحب البيت لم يتجاوز فى تصوير ارتياحه لتنقيح العلوم حد الحقيقة .

وأما نفوذ النظر فى لباب المسائل فلأن وقوف طالب العلم عند ظواهرها واكتفاءه بالمقدار الذى يقصر به عن حسن بيانها وإجادة العمل بها ، لا يبعدان به عن منزلة خالى الذهن منها . فإنما وضعت العلوم لتهدى إلى العمل النافع . ولا شرف لها فى نفسها ، وإنما شرفها بما يترتب عليها من عمل صالح أو كلم طيب . فمن يقضى زمناً فى طلب علم ينفصل عنه وهو لا يستطيع أن يدفع عن أصوله شبهاً ، أو يضرب له من العمل مثلا ، ذهب وقته ضائعاً . وبقى اسم الجهل عليه واقعاً .

فالفقيه بحق من تعرض عليه الواقعة لم يفصل لها الشارع حكماً ولم يتناولها باجتهاد ، فيرجع إلى الأصول الثابتة والقواعد المقررة ويقتبس لها حكماً موافقاً .

ولا نكتفى ممن يدرس البلاغة أن يتصور قوانينها ، ويعرف أمثلتها إلا أن يبصر بها كيف تسرى فى كتاب الله سريان الماء فى الأزهار الناضرة وحتى يستطيع أن يخطب أو يكتب على وفق ما درس من مناهجها الواضحة وأساليبها الساحرة .

ولا يحق لنا أن نفتخر بفتيان درسوا الطبيعة والكيمياء ، إلا أن يعودوا وفى قدرتهم أن يستقلوا بإدارة مصانع للدفاع ، ومعامل لمرافق الحياة ، فإنا نريد أن نعود كما كنا أساتذة فى العلوم نقلية أو عقلية ، نظرية أو مادية .

ومما رمى الأفكار فى خمول ووقف بها حقبة عن الخوض فى عباب العلوم إلى أمد بعيد ، هذه المختصرات التى يقضى الطالب فى فتح مغلقها

وحل عقدها قطعة من حياته ، جديرة بأن تصرف فى اكتساب مسائل هى من صميم العلم ، والملكات تقوى بالبحث فى لباب العلم أكثر مماتقوى بالمناقشة فى ألفاظ المؤلفين . وممن نبه على أن الاختصار عائق عن التحقيق فى العلم أحد علماء القرن الثامن العلامة محمد المعروف(١) بالأبلى إذ قال : « كل أهل هذه المائة على حال من قبلهم من حفظ المختصرات ، فاقتصروا على حفظ ما قل لفظه ونزر حظه . وأفنوا أعمارهم فى حل لغوزه وفهم رموزه ولم يصلوا إلى رد ما فيه إلى أصوله بالتصحيح ، فضلا عن معرفة الضعيف والصحيح » .

فمن أسباب الرسوخ فى العلم وطموح الهمم إلى التوسع فى البحث وعدم الرضا بما دون الذروة ، قراءة الكتب التى تنسج على طريقة الاستدلال والغوص على أسرار المسائل ، وهى طريقة المتقدمين من علمائنا .

وأما بسط النظر فى علوم متعددة فلارتباط العلوم بعضها ببعض ، وكلما كان الاطلاع على العلوم أوسع ، كان البحث فى المسائل أجود ، والخطأ فى تقريرها أقل ، والاحتجاج عليها أسلم . فلا يجيد دراسة التفسير أو الحديث من لم يكن ضليعاً فى العربية ، ولا يحكم الاستدلال على العقائد ويدفع ما يحوم عليها من شبه إلا من كان عارفاً بالتفسير والحديث والقوانين المنطقية والمذاهب والآراء الفلسفية ، ولا يقوم على دراسة الفقه أو أصوله من لم يملأ يده من الحديث والتفسير والعلوم العربية .

واطلاع الرجل على علوم كثيرة يعرف موضوع بحثها ويقف على جانب عظيم من مبادئها ، لا يمنعه من الإقبال على علم يجعل له من الدرس والمطالعة ما يرفعه إلى مرتبة أئمته الذين يكتبون فيه فيحققون ، ويسألون عن أخفى مسائله فيجيبون ، والذى يضع يده فى علوم شتى يمكنه أن يجارى طوائف العلماء فى المباحث المختلفة ، وعلى قدر ما يكون للرجل من خبرة بالعلوم ، يبعد عن مواقع الذلة ، ويزداد فى أعين الناس تجلة .

عكف أبو صالح أيوب بن سليمان على كتاب العروض حتى حفظه ،

---

(١) من أساتذة ابن خلدون .

فسأله بعضهم عن إقباله على هذا العلم بعد الكبر ، فقال : حضرت قوماً يتكلمون فيه فأخذنى ذل فى نفسى أن يكون باب من العلم لا أتكلم فيه :

تقضى الحياة الراقية أن يقوم بكل علم طائفة يكونون السند الذى يرجع إليه ، وكذلك كان علماؤنا فيما سلف : يقبل كل طائفة منهم على علم يقومون عليه دراية ، ويقتلونه بحثاً . وبهذا اتسعت دائرة المعارف وظهرت المؤلفات الفائقة . وتراهم قد عرفوا من قبل أن نجاح قصد الطالب على الرسوخ فى علم ، يرجع إلى ترك الطالب وما تميل إليه نفسه من العلوم . ومما نقرأ فى ترجمة أبى عبد الله محمد الشريف التلمسانى وكان راسخاً فى المنقول والمعقول — أنه كان « يترك كل أحد من الطلبة وما يميل إليه من العلوم ، ويرى أن كل ذلك من أبواب السعادة » .

ومن لطف مبدع الكون أن جعل النفوس تختلف فى استعدادها للعلوم والفنون والصنائع ، لينتظم شأن الحياة ، وتتوافر وسائل السعادة . وربما نشأ أفراد فى مهد واحد واختلف ميلهم إلى العلوم فبرز كل فى العلم الذى وافق رغبته ووجه إليه همته ، كأبناء الأثير الثلاثة : على الملقب(١) بعز الدين : إمام فى التاريخ ، ومحمد (٢) الملقب بمجد الدين : نحرير فى الحديث والأدب ، ونصر الله (٣) الملقب بضياء الدين : بارع فى الأدب وتحرير الرسائل . وكثير من علمائنا كانوا يدرسون علوماً مختلفة يبلغون فى بعضها الذروة ويكتفون فى بعضها بالمقدرة على تدريسها أو تحقيق مباحثها عند الحاجة . فهذا أبو إسحاق الشاطبى تقرأ له كتاب الموافقات فتحس أنك تتلقى الشريعة من إمام أحكم أصولها خبرة ، وأشرب مقاصدها دراية ثم تقرأ شرحه على الخلاصة فى النحو فتشعر بأنك بين يدى رجل هو من أغزر النحاة علماً ، وأوسعهم نظراً ، وأقواهم فى الاستدلال حجة . والقاضى إسماعيل من فقهاء المالكية البالغين درجة الاجتهاد فى الفقه قد سمت منزلته فى العربية حتى تحاكم إليه علمان من أعلامها فى مسألة ، وهما المبرد وثعلب .

---

(١) صاحب كتاب الكامل المعروف بتاريخ ابن الأثير .

(٢) صاحب كتابى النهاية فى غريب الحديث ، وجامع الأصول فى أحاديث الرسول .

(٣) صاحب كتاب المثل السائر .

وكبير الهمة فى العلم يريد أن يكون النفع بعلمه أشمل ، ومما يدرك به هذا الغرض احترامه لآراء أهل العلم ، ولا نعنى باحترامها أخذها بالقبول والتسليم على أى حال ، وإنما نريد نقدها بتثبت ، وعرضها على قانون البحث ثم الفصل فيها من غير تطاول عليها ولا انحراف عن سبيل الأدب فى تفنيدها . والفطر السليمة والنفوس الزاكية لاتجد من الإقبال على حديث من يستخفه الغرور بما عنده مثل ما تجد من الإقبال على حديث أحسن الدرس أدبه . وهذب الأدب منطقه .

وإذا كان الأستاذ كمدرسة يتخرج فى مجالس درسه خلق كثير فحقيق عليه أن يكون المثال الذى يشهد فيه الطلاب كيف تناقش آراء العلماء مع صيانة اللسان من هجر القول الذى هو أثر الإعجاب بالنفس ، والإعجاب بالنفس أثر ضعف لم تتناوله التربية بتهذيب .

كبير الهمة يستبين خطأ فى رأى عالم أو عبارة كاتب فيكتفى بعرض ما استبان من خطأ على طلاب العلم ليفقهوه ، ويأبى له أدبه أن ينزل إلى سقط الكلام أو يخف إلى التبجح بما عنده . وقد حدثنا التاريخ عن رجال كانوا أذكياء ولكنهم ابتلوا بشىء من هذا الخلق المكروه ، فكان عوجاً فى سيرهم ، ولطخاً فى صحفهم ، ولو تحاموه لكان ذكرهم أعلى ، ومقامهم فى النفوس أسمى ، ومنزلتهم عند الله أرقى .

وخلاصة المقال : تذكير النبهاء من نشئنا بأن يقبلوا على العلم بهمم كبيرة ، صيانة للوقت من أن ينفق فى غير فائدة ، وعزم يبلى الجديدان وهو صارم صقيل ، وحرص لا يشفى غليله إلا أن يغترف من موارد العلوم بأكواب طافحة ، وغوص فى البحث لا تحول بينه وبين نفائس العلوم وعورة المسلك ولا طول مسافة الطريق ، وألسنة مهذبة لا تقع فى لغو أو مهاترة .

ذلك عنوان كبر الهمة فى العلم ، وذلك ما يجعل أوطاننا منبت عبقرية فائقة ، ومطلع حياة علمية رائعة ، وما نبتت العبقرية فى وطن نباتاً حسناً إلا كانت أرضه كرامة ، وسماؤه عزة ، وجوانبه حصانة ومنعة .

الدهاء والاستقامة

خصلتان يبلغ بهما الرجل أن يكون عظيما ، وحق لمن استولى على الأمد الأقصى منهما أن يكون زعيما : هما بعد النظر فى استكشاف غوامض الأمور ، وذلك ما نسميه الدهاء أو الكياسة ؛ والسير فى سبيل الرشد بقلب سليم ، وذلك ما نسميه الاستقامة أو التقوى ؛ ولا نقصد فى هذا المقام إلى الحديث عن بعد النظر فى إدراك العويص من مباحث العلوم ، وإنما نقصد الحديث عن الدهاء من ناحية تقدير وسائل النفع والضرر ، أو من حيث شعور صاحبه بما يحمل له من ضغن ، أو ينصب له من كيد .

يقارن الدهاء الاستقامة ؛ فيصرف فى تدبير الوسائل التى تكفى شراً مقبلا أو تجلب خيراً متعسراً ، ويقارن زيغ العقيدة أو لؤم الطبيعة فيندفع بصاحبه فى شعاب الباطل ، ويكون نصيبه من الإفساد فى الأرض فوق نصيب الغباوة ، إذ يزيد عليها أن يبتكر للشر فنوناً غير معروفة ، ويلبس الباطل ثوب الحق ، ويخرج المفسدة فى لون المصلحة ، فإذا لم تجد الحقائق أو المصالح دهاء يمحق دهاء المبطلين أو المفسدين ، عمى على العامة أمرها ، وظهرت الضلالة والسفاهة مكانها .

ولكثرة ما يصاحب الدهاء من المكر والنزوع إلى الشر ؛ توهم بعض العامة أنه لا يجتمع مع سلامة الضمير والحرص على فعل الخير ، فتراهم يعدون غفلة الرجل عما ينطوى عليه الحديث من مغامز ، وما يراد به من مكايد ، أثر صلاحه وطيب سريرته ، وكاد بعض الكاتبين على حديث « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » يحوم حول هذا الوهم ، إذ حمل الحديث على عدم الانخداع فى الدين بأن يصدق الكاذب الذى ظهر له كذبه مرة ثانية ، ثم قال : « وأما الانخداع فى أمور الدنيا بناء على قلة التفاته إليها وعدم اهتمامه بها فهو ممدوح مطلوب » . والحق أن الغفلة عن نواحى الشر

دينية أو دنيوية لا تدخل فى سلك الكمال ولا تستدعى مدحاً ، وإنما الكمال فى اليقظة والكياسة . والقصد من الحديث الشريف تحذير المؤمن من أن يكون مغفلا ، وإرشاده إلى استعمال الفطنة فى شئونه دينية أو دنيوية . وإذا كان الحديث مسوقاً للإخبار عن حال المؤمن فإنما يريد المؤمن الكامل وهو الذى يستنير بالحكمة ويعتبر بالحوادث فتصفو بصيرته ويهتدى إلى غوامض الأمور حتى يكون حذراً مما سيقع ، وإذا أخذته الغفلة مرة فنكب من ناحية ، كانت نكبته من هذه الناحية هى الأولى وهى الآخرة . ويوافق هذا قول عمر ابن الخطاب : « لست بخب والخب لا يخدعنى » . وأما المؤمن الذى يكون حظه من الحكمة والاعتبار بخساً ، فقد يلدغ من الجحر الواحد مرتين أو مراراً .

ولا يعارض هذا حديث « المؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم » فقد تكلم الحفاظ فى سنده حتى ذهب بعضهم إلى أنه موضوع ؛ وهو بقطع النظر عن سنده قد وقع لفظ الغر فيه مقابلا للفظ الخب الذى هو المجرِّبز أى الخداع ، فيكون المراد من الغرارة غفلته عن الشر ، فإن كريم الأخلاق طيب السريرة لا يبحث عن الشر بحث من يريد التوغل فى طرقه والخوض فى غماره ، وهو مع كونه لا يبحث عن هذه الطرق بحث المولع بها ، يأخذ بسنة الاحتراس ، فلا ينخدع لخب يزخرف له القول مداهنة ، أو ينصب فى طريقه حباله ، فغفلة الرجل عن وسائل الشر لانصرافه إلى الخير لا تنقص من كياسته فى تدبير وسائل الخير أو الاحتراز عما يهيأ له أو لقومه من الشر ، فلا يصح أن يكون الإيمان الذى هو أساس استنارة الفكرة سبب الانخداع لتمويه مبطل أو مخاتلة ذى مأرب .

نجد فى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يرشدنا إلى أن السياسة الإسلامية لا ينهض بها المستقيم إلا أن يكون أريباً ، ولا الأريب إلا أن يكون مستقيما .

فرسول الله صلى الله عليه وسلم على ما كان محفوفاً به من رعاية الله وتأييده ، لم يترك أمر السياسة الحربية أو المدنية دون أن يجريه على سنة

التدبير والاحتراس من أمور يتبعها فى العادة عواقب سيئة ، فما نقرؤه فى سيرته الزاهرة أنه كان إذا قصد السفر لحرب قوم أخذ يسأل عن ناحية قوم آخرين حتى يظن السامع أنه ينوى السفر إلى الناحية التى يسأل عنها . ونقرأ فيها أنه كتب لأمير سرية كتاباً وقال له : « لا تقرأه حتى تبلغ مكان كذا وكذا » فلما بلغ ذلك المكان قرأه على الناس وفيه ذكر الناحية التى أمرهم بالتوجه إليها . ومن مثل هذا أخذ يحيى بن أكثم قوله فى حديث مع المأمون : « لا يستقيم كتمان شىء إلا بإذاعة غيره » .

ومن بديع سياسته عليه الصلاة والسلام صلح الحديبية . فقد خفى على بعض كبار الصحابة حكمته فلم يرتح له ، ولكنه أتى بخير كثير ، إذ كان توطئة لفتح مكة دون أن تراق فيه دماء طاهرة ، أو تقصم فيه ظهور انحنت بعد الفتح راكعة لله ، وخرج منها رجال جاهدوا فى الحق بحماسة وإخلاص . وكان صلوات الله عليه مع ما يجده فى الناس من حسن الطاعة والتسليم ، قد يستحسن الأمر ويدعه حذراً من أن يلاقيه بعضهم بإنكار . فانظروا إلى ما جاء فى الصحيح من أنه عليه الصلاة والسلام استحسن نقض البيت وبناءه على أساس إبراهيم ، وإنما تركه مخافة أن تنكره قلوب من كانوا حديثى عهد بالجاهلية من قريش ، وإنما راعى عليه الصلاة والسلام إنكار الناس فيما لم ينزل به وحى ولم تقتض حاله أن يكون شرعاً نافذاً .

وإذا قال ابن خلدون فى الحديث عن العرب « إنهم أبعد الأمم عن السياسة » فإنما يريد العرب قبل أن يستضيئوا بحكمة الإسلام ، أما بعد أن نزل القرآن وشاهدوا سيرة أحكم الخليقة صلوات الله عليه فقد كان نصيبهم من البراعة فى السياسة فوق كل نصيب .

نقرأ فى تاريخ فتح الفرس أن سعد بن أبى وقاص أرسل المغيرة بن شعبة إلى رستم القائد الفارسى ، فأقبل حتى جلس معه على سريره ، فوثب إليه أتباع رستم وأنزلوه من السرير ، فقال المغيرة : « إنا يا معشر العرب لايستعبد بعضنا بعضاً ، فظننت أنكم تتواسون كما نتواسى ، وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض ، اليوم علمت أنكم مغلوبون ، وأن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ، ولا على هذه العقول » .

قصد المغيرة بما صنع وما قاله تعليم القوم المساواة التى جاء بها الإسلام ليألفوه ، وإشعارهم بأنهم يعيشون تحت راية تلك الدولة عيش المستعبدين ليجنى من وراء هذا سقوط مكانتها من أنفسهم ، فلا يدافعون عنها من صميم أفئدتهم .

لا يستغنى رؤساء الشعوب عن الدهاء فى السياسة . وأشدهم حاجة إلى تدابيره الغامضة رئيس قبض على زمام طوائف اختلفت أهواؤهم سبلا وتفرقت آراؤهم مذاهب ، فإذا رأينا السياسة فى عهد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما تسير على مناهج من العدل واضحة فلأن الرئيس عادل ، ومعظم الأمة على سبيل من الهداية لاتختلف . وما استتمام الأمر لمعاوية مع ماخالط الأمة يومئذ من التفرق فى الآراء إلا لأنه كان يسلك فى السياسة مسالك خفية ، وركب لها من الطرق الوعرة ما لم يركبه الخلفاء من قبله ، ومعاوية هو الذى يقول : « لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت » فقيل له : وكيف ذلك ؟ فقال : « كنت إذا مدوها أرخيتها وإذا أرخوها مددتها » .

ومن أساليب الدهاة فى إضعاف الجماعة التى تناوىء سلطانهم ، أن يغروا بين كبرائها العداوة ، فتنفصم رابطتهم ، وتشتد الخصومة فيما بينهم ، وهو مسلك قد يضطر إليه المصلحون فى تفريق الجماعة التى تتحالف على ما لا خير منه ، ومن هذا القبيل ما فعله نعيم بن مسعود رضى الله عنه حين تحالفت قريش وغطفان وبنو قريظة على حرب النبى صلى الله عليه وسلم فى واقعة الأحزاب ، إذ ألقى بينهم ما تقطع به حبل اجتماعهم على الباطل فانصرفوا خائبين .

وقد يعمل الطامع فى الأمة الغافلة على هذا المسلك حذراً من أن يتنبه شعورها ، فتجمع أمرها وتوجه إليه قوتها ، فمن واجب الأمة التى يربطها دين أو مصالح وطنية أن تؤكد أواصر الإخاء بينها ، وتجعل المصلحة العامة نصب أعينها . وتوجه ما تستطيع من قوة إلى من يريد القضاء على دينها . أو الاستئثار بمنافع بلادها . لما تحفز الملك « الاذفونش » للهجوم على بلاد الأندلس . عقد كبراؤها مؤتمراً للنظر فى دفاعه وقرروا الاستنجاد بسلطان مراكش « يوسف بن تاشفين » ، ولما أبدى بعضهم التخوف

من أن ينقذ هذا السلطان البلاد من « الاذفونش » ثم يضع عليها يده قال له المعتمد بن عباد : « لأن يرعى أبناؤنا الجمال خير من أن يرعوا الخنازير » .

ومن أساليب الدهاة فى القديم أن يسوسوا الجماعة الناشزة بأيدى رجال منهم ، قال عباد بن زياد يصف زياداً لعبد الملك بن مروان : « قدم العراق وهى جمرة تشتعل ، فسل أحقادهم ، وداوى أدواءهم ، وضبط أهل العراق بأهل العراق » . وهو أسلوب بعيد الشأو ظاهر الأثر قد يأخذ به ذو السياسة الرشيدة لزيادة تأليف القوم وتأكيد الإخلاص فى نفوسهم . دلت السيرة النبوية على هذا الضرب من السياسة ، ومن شواهده ترتيبه عليه الصلاة والسلام الجيش يوم فتح مكة ، إذ نظمه على حسب القبائل ، وجعل على رأس كل قبيلة واحدا من سراتها . وعلامة كون السياسة رشيدة أن يوضع أمر القوم فى يد من ينصح لهم ، ويرعى مصالحهم ، ويعمل لسعادتهم .

ومما يتخذه الدهاة فى وسائل أخذ القوم إلى جانبهم ، بذل شىء من المال إلى ذوى النفوذ من رجالهم ، وهذا أحد الوسائل التى استطاع بها معاوية رضى الله عنه أن يقف تجاه على كرم الله وجهه ، ويأخذ منه شطر الخلافة على ما كان لعلى من المكانة الراجحة فى العلم والبيان ، والقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبذل النفس فى الجهاد ، وبلوغه فى تقوى القلب أبعد غاية .

وهذه الوسيلة قررها الإسلام فى سياسة الدعوة إليه . فأذن فى صرف جانب من الزكاة لأناس قالوا : أسلمنا ، تأليفاً لقلوبهم ، واستدعاء لاطمئنان عقيدتهم ، كما قال تعالى فى آية مصارف الزكاة : (**والمؤلفة قلوبهم**).

لا يعتمد رئيس القوم على القوة يستطيع أن يخمد بها كل فتنة ، ويرى أنه فى غير حاجة إلى أن ينظر فى منابت الفتن بدهاء ، فللدهاء مواضع يظهر فيها فضله على القوة . منها دفع الخطر الذى يتراءى شبحه من بعيد بحيث لا يشعر به إلا البصير بما وراء الخبر من شرور ، فقد يكون استعمال القوة فى الشر المتوارى موضع إنكار أو مثار فتنة ، أما الدهاء فيرده والنفوس مطمئنة والفتن نائمة .

ويحتاج الحاكم إلى الدهاء فى استبانة الحقوق حيث ترفع إليه الدعاوى

مجردة من كل بينة ، وفى مثل هذه الدعاوى يظهر مبلغ ذكاء القاضى كما يظهر فضله فى نقد البينات وتمييز زائفها من صحيحها ومن دهاء المنصور بن أبى عامر ، أن أحد التجار قدم قرطبة ومعه كيس فيه ياقوت نفيس فتجرد ليسبح فى البحر وترك الكيس على ثيابه وكان أحمر ، فاختطفته حدأة فى مخالبها وتغلغلت به فى البساتين ، فأبلغ أمره إلى ابن أبى عامر فجعل يستدعى أصحاب البساتين ويسأل العاملين فيها عمن ظهر عليه تغيير حال من بؤس إلى سعة ، حتى ذكر له شخص ظهر عليه من اليسر ما لم يعرف به من قبل ، فاستدعاه وفاجأه بقوله : أحضر الكيس الأحمر ، فتملكه الرعب وجاء به وقد نقص منه ما عفا له عنه صاحبه .

يحتاج الولاة إلى الدهاء فى سياسة الجماعات واستبانة الحقوق ، ويحتاج إليه العلماء فى الدعوة إلى الخير ، فقد تكون مواجهة الرجل بالأمر بالمعروف أو النهى عن المنكر لا تأتى بفائدة ، فيعدل الداعى إلى طريق يكون له الأثر المقصود من الدعوة ، وهو السمع والامتثال ... عزم المعتصم على قتل محمد بن الجهم البرمكى لجولان يده فى مال الدولة ، فرأى القاضى أحمد ابن داود هذا التصميم وعرف أن الموعظة أو الشفاعة لا تحول دون هذا القتل ، فسلك لانقاذ محمد بن الجهم طريقاً آخر هو أن قال للمعتصم : وكيف تأخذ ماله إذا قتلته ؟ قال : ومن يحول بينى وبينه ! قال : يأبى الله تعالى ذلك ويأباه رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويأباه عدل أمير المؤمنين ، فإن المال للوارث إذا قتلته حتى تقيم البينة على ما فعله ، وأمره باستخراج ما اختانه وهو حى أقرب علباك ، فرجع المعتصم عن عزمه وخلص محمد بن الجهم من القتل .

وينتفع الرجل من دهائه عند لقاء الطبقات المختلفة . يزن عقول من يلاقونه ، ويحس ما تكن صدورهم وتنزع إليه نفوسهم ، فيصاحب الناس ويشهد مجالسهم وهو على بصيرة مما وراء ألسنتهم من عقول وسرائر وعواطف ، فيتيسر له أن يسايرهم إلا أن ينحرفوا عن الرشد ، ويتحامى ما يؤلمهم إلا أن يتألموا من صوت الحق . ومراعاة عقول الناس وطباعهم ونزعاتهم فيما لا يقعد حقاً ولا يقيم باطلا مظهر من مظاهر الإنسانية المهذبة ،

ومتى كان الدهاء — أعنى جودة النظر فى سياسة الأمور وتقدير وسائل الخير — عائداً إلى الألمعية ، وهى فى أصلها موهبة إلهية . فإن التدبر فى سير أعاظم الرجال والنظر فى مجارى الحوادث باعتبار ، مما تقوى بهما خصلة الدهاء فمن حق الملقى إليهم بتربية النشء من أوليائهم ومعلميهم أن يصرفوا العناية إلى تغذيتهم بالحديث عن دهاة الرجال وتنبيههم لما دبروه من وسائل يبتغون بها إصلاحاً أو شرفاً ، ومن حقهم أن يلاحظوا الحوادث التى تظهر من ناحية عرفت بالدهاء فيكشفوا غطاءها ، ويقفوهم على بطائنها ، ذلك لأننا نريد أن نعد للمستقبل ناشئة تستقيم على هدى الله ، وتخوض لجج الحياة بكياسة تبصر بها مواقع الشر والخير ، فتسعى إلى أن يكون الشر بعيداً منها والخير طوع أيديها ، وعلى قدر ما يكون فى دعاة الشعب وقادته من دهاء وتقوى ، يبعد فى سبيل الشرف شأوه ، وتثبت فى مواقف الجهاد قدمه ، ويرقى فى السماء ذكره، والذكر الذى تحوطه التقوى ويحرسه الدهاء لا يخفت صوته إن شاء الله .

الانحراف عن الدين

علله، آثاره، دواؤه ..

بين أيدينا حكم رائعات ، وعظات بالغات ، وتاريخ عظمائنا مملوء بالهمم الكبيرة ، والمساعى الخطيرة ، وقد أتى علينا مع هذا النور الساطع والتاريخ المجيد حين من الدهر ونحن عن طريق السعادة والمنعة غافلون ، وعن العمل للحياة الصالحة نائمون ، جهل بعد علم . تقاطع بعد ائتلاف ، بطالة بعد نشاط ، صغار بعد شمم ، خمول بعد نباهة شأن . كذلك كنا حتى جاءنا من صروف الليالى ما نبهنا من سباتنا ، فنهضنا نبحث عن وسائل تقدمنا ، ونجارى الأمم العاملة والأمل يملأ ما بين جوانحنا ، نهضة مباركة ، ولكن نفوسنا خالطها من الانحراف عن سبيل الرشد ما خالطها ، فأصبحنا فى حاجة إلى أن نشغل جانباً من أوقاتنا فى تقويمها .

حق علينا أن نبحث عن علل انحراف هذه النفوس حتى نعرف طريق علاجنا ، فنزيح أو نخفف مرضاً لو خليا سبيله لسرى إلى نفوس كثيرة ، وعاقنا أن نسير إلى السعادة كيف نشاء .

علل الانحراف :

النواحى التى يأتى من قبلها هذا الانحراف كثيرة . وجماعها الجهل والدعايات الباطلة . وإليك البيان :

ينحرف الناشىء عن الدين متى شب على الجهل بحقائقه . وفريق من أبنائنا غير قليل لا يتعرفون الإسلام من وجهه الصحيح ، وإنما ينتزعون صورته من مظاهر يرون عليها طوائف من المسلمين ، ولم تكن هذه

المظاهر من الإسلام فى كثير ولا قليل ، فليس ببعيد أن يشهد الشاب شيئاً من البدع المزرية كضرب الدفوف فى المساجد أو تحت رايات يحملها أحداث باسم الدين لهواً ولعباً ، فيخالها من تعاليم الإسلام ، ويسوء اعتقاده فى هدايته . ونحن نعلم أن بعض البلاد الداخلة تحت سلطان غير إسلامى قد تقام فيه حفلات مشهودة يكلف فيها بعض الجهلة من المنتمين إلى طرق المتصوفة أن يحضروها بأزيائهم الخاصة ، وتقوم كل طائفة بأعمال يمتازون بها عمن سواهم ، وقد يكون فى هذه الأزياء والأعمال مالا صلة له بالدين ولا بما ترضى عنه العقول السليمة ، فتتناولهم من أجل هذه المظاهر الألسن بالازدراء ، ولا شك أن شبابنا كبعض المخالفين الذين يشهدون هذه الحفلات قد يسبق إلى أذهانهم أن نسبة ما يعمل باسم الدين إلى الدين صحيحة . فيتجافون عنه وهو منه براء . فمظاهر البدع والمحدثات من وسائل إضعاف العقيدة فى نفوس أبنائنا ، ومن أصعب العقبات التى تحول بين المخالفين وبين قبولهم للدين الحق بسهولة .

وإذا كان فى المتجافين عن الدين من قرءوا جانباً من الكتب المعزوة إليه ، فعلة انحرافهم فيما يظهر أنهم لم يدرسوا تعاليمه خالصة مما أضيف إليها من مزاعم وآراء ، ولم يبلغوا من قوة العلم أن يفرقوا بين الشرع الخالص وما يوضع بجانبه من أشياء لا تدخل فى الصميم . ونحن نعلم أن فى كثير من المؤلفات أحاديث موضوعة ، وقصصاً مزعومة وآراء لا تستند إلى أصول معقولة ، ومن الذى ينكر أن فى بعض الكتب أحاديث مصنوعة وقصصاً مختلقة ، وأن فى مؤلفات بعض أصحاب الأهواء والمستضعفين فى العلم آراء سقيمة وأقيسة عقيمة ؟

كان لهذه الكتب أثر سيء فى نفوس بعض نشئنا ، وقد اتخذ بعض من خف فى العلم وزنهم من هذه الكتب وسيلة إلى الطعن فى علماء الإسلام فذهبوا يلتقطون هذه الآراء السخيفة ولا يتقون الله فى نسبتها إلى علماء الشريعة ليضعوا من شأنهم ، مع أن أهل العلم من قبلهم ، قد نقدوها بأنظار راجحة ، وطرحوها من حساب الشريعة بالحجة الساطعة ، وجعلوا تبعتها على أصحابها وحدهم ، وأى طائفة من طوائف أهل العلم لا يوجد

بينهم ذو رأى ضعيف أو ذوق عليل ؟ ! بل العالم الراسخ قد تصدر عنه آراء تدفعها أصول العلم الذى رسخت فيه قدمه ، ويردها عليه من هو أقل منه نباهة وأدنى فى العلم منزلة .

أما الفريق الذين ينكرون أشياء من صميم الدين فلم يجئهم الجحود من ناحية البحث الدقيق والنظر القائم على قوانين المنطق الصحيح ، وإنما سبقت إليهم فى التعليم أو فى الجلوس ببعض الأندية آراء فتقبلوها ، وتراءت لهم شبه فاعتنقوها . والآراء الفاسدة والشبه المغوية تربى فى النفوس الضعيفة أذواقاً سقيمة ، ويكون لهذه الأذواق الحكم العاجل ، حتى إذا أنكرت حقاً خيل إلى أصحابها أن إنكارهم صادف محزاً وظلوا فى جهالتهم يتخبطون . فقطع يد السارق أو السارقة مثلا — قد تنازع فى حكمته بعض الأذواق الخاصة . ولكن الأحكام إنما يراعى فيها المصالح العامة ، وفى قطع يد هذا الصنف من المجرمين مصلحة سنأتى على بيانها فى مقام غير هذا .

ولا ننسى بعد هذا أن ما بلغه الغربيون من التقدم فى العلوم والفنون قد جعل لهم فى القلوب إكباراً ، وبلغ هذا الإكبار فى بعض النفوس الصغيرة أن يفوه أحد الغربيين بكلمة يطعن بها فى حقيقة من حقائق الإسلام فيتلقوها منه بمتابعة ، ويحسبوها طعناً صائباً ، ولا سيما الكلمات التى تصدر من طائفة يخرجون فى زى الكتاب أو الفلاسفة ، إذ يقع فى أوهام الغافلين أنه نتيجة نظر لا يعرف غير البحث والدليل ، ويفوتهم أن فى هؤلاء الكتاب من لا يزال فى أسر تقاليده وعواطفه ، وفيهم من يكون بارعاً فى ناحية من العلم قاصر النظر فى ناحية أخرى ، وها نحن أولاء نقرأ نتائج أبحاثهم فى موضوعات إلهية أو تاريخية أو اجتماعية أو لغوية ، فنرى فيهم من يتبع الظن الذى لا يغنى من الحق شيئاً ، وكان على نشئنا أن يعتبروا بالمناقشات التى تدور بين علمائهم أنفسهم ، فإنها شاهد صدق على أن من علمائهم أو فلاسفتهم من يعتمد الرأى لمجرد الشبهة ، ولا يبالى أن يسميه علماً وهو لا يرتبط بعد بالحجة أو ما يشبه أن يكون حجة .

ومن الطرق المضلة عن السبيل أن بعض الداعين إلى غير الإسلام قد وجدوا من موسريهم خزائن مفتحة الأبواب ، وأيديا تفيض عليه

الأموال بغير حساب ، ومن الميسور أن يتصل هؤلاء ببعض البائسين من نشئنا الذين لم ينفذ الإيمان إلى سويداء قلوبهم ، فيشتروا ضمائرهم أو ألسنتهم بشيء من حطام هذه الحياة ، وربما أتوهم من ناحية الشهوات ففتحوا لهم أبوابها ، وجعلوا ثمن تمكينهم منها الانسلاخ عن الدين ، فلا يبالون أن ينسلخوا منه ، إذ لم يدخل بعد فى قلوبهم حتى يكون أعز عليهم من كل ما تهوى أنفسهم .

ومن الذى لا يعلم أن معاهد تقام فى أوطاننا باسم العلم أو العطف على الإنسانية والغاية منها صدف النفوس عن صراط الله السوى ؟ دل على هذا كتب يدرسونها فى هذه المعاهد ، وهى كما قرأنا نبذاً منها محشوة بالطعن فى الإسلام والحط من شأن الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم . وهذا القس زويمر نفسه ينبهنا على أن المدارس التى يقوم بها جماعات التبشير إنما تجعل وسيلة إلى تحويل المسلمين عن دينهم القويم ، فقال فى مقال تحت عنوان (حركة التبشير فى العالم الإسلامى) بعد أن ذكر ما يعترضهم من المصاعب فى داخل أفريقية : « ومن المستطاع التغلب على هذه الصعوبة بالالتجاء إلى الوسائل المعروفة كالمتاجرة مع الأهالى وفتح المدارس لأبنائهم وما ماثل ذلك » .

وقد رأينا لهذه المدارس التى تفتح فى سوريا ومصر وغيرها من البلاد آثاراً محزنة .

فكم من فتى مسلم بعث به إليها فتخرج منها وهو يحمل من التنكر لقومه وشريعتهم مثل ما يحمله خصومهم المحاربون .

ثم إن بعض الناشئين فى مهد إسلامى قد أصيبوا بما يشوه فطرهم وأرادوا ألا يكون هذا التشويه مقصوراً على أنفسهم ، فاجتهدوا فى أن ينقلب الناس منقلبهم ويعملوا على شاكلتهم ، فكان لهم فى الاستخفاف بالعقائد الصحيحة والشريعة الحكيمة حركات طائشة ، ولولا هداية القرآن ووقوف فريق من أهل العلم فى وجوههم لاستدرجوا خلقاً كثيراً .

ونذكر بمنتهى الأسف أن من هذا الصنف من يقضى نصيباً من حياته فى الدفاع عن الإسلام حتى يتبوأ مقعد الدعاة المصلحين ، ثم لا يلبث أن

برى بضاعة الازدراء بالدين نافقة ، فيثور عليها مع الثائرين ، ويسرع إلى لمز الرجال الذين رفعوا لواءه وقد كان يطنب فى تمجيدهم . وفى أمثال من يكون على هذا النعت خطر على النشء كبير ، إذ الثقة التى أحرزها من قبل قد تجعلهم يسيغون أقواله بما تحمل من أقذاء وسموم ، فيبلغ مأربه دون أن يفقد مكانته . ثم إن انحرافه عن الدين بعد أن كان من أنصاره قد يلقى فى نفوس المستضعفين أن هذا الذى قضى زمناً فى مظاهرة الدين لم يتجاف عنه إلا بعد أن بصر بالحجة واستبان له أنه كان على غير هدى ، وصغار العقول لا يشعرون بأن فى الناس من يطوى فى نفسه حاجة يستطيع أنْ يلبس لها ثوب الرياء أمداً غير قصير ، حتى إذا رأى قضاءها فى ذم ما كان يحمد ، ومحاربة ما كان ينصر ، وجد فى استعداده ما يساعده على أن أن يظهر فى أى لباس شاء .

آثار الانحراف :

دلت المشاهدة على أن الناشىء الذى يصاب بمرض الريب أو الجحود لا يمكث أن ينحط فى المآثم وينبذ الأدب الرفيع والعمل الرشيد وراء ظهره ، وإذا رأيناه يتجنب إثماً فبالمقدار الذى يتقى به لومة لائم أو طائلة قانون ، وإذا عمل حسناً فلينال مدحاً وإطراء ، أو ليصل إلى عاجل من المنافع المادية أكبر ، وإن ناشئاً يعتقد أنه متى استتر عن أعين الناس لم يبق له فيما يفعل من رقيب ولا يناله على ما يأتى من جزاء ، لا يتحامى فى غالب أمره أن يعتدى على نفس أو عرض أو نسب أو مال الاعتداء الذى يشين وجه المدنية ، ويحدث فى نظام الجماعة وهناً .

ودلت التجارب على أن زائغ العقيدة متى ملك جاهاً أو سلطة ، فتن الأمة فى دينها ، وانتهك حرمات شريعتها ، ولم يخلص النظر فى إصلاح أمرها ، ولاقى منه المؤمنون اضطهاداً ، والجاحدون وأصحاب الأهواء مناصرة وإقبالا ، فيكون داعياً عملياً إلى الخروج على الدين ، فتموت الفضيلة والغيرة على الحقوق العامة ، ويتقطع حبل اتحاد الأمة إرباً .

دواء الانحراف :

حتم علينا أن نسعى إلى أن يكون التعليم الديني شاملا . فما من ناشيء إلا ويتلقى منه مقداراً يكفي لإنارة عقله وطمأنينة نفسه ، ونقبل بعد هذا على كتب الدراسة فنتخير منها ما هو حسن الوضع ، نقي من كل ما ليس بشرع ، وبهذا نأمن من أن يكون في نشئنا من ينحرف عن الدين جهلا بحقائقه .

وإذا نحن سرنا في تقرير أصول الدين وأحكامه على طريقة إقامة الحجة وبيان الحكمة ، خففنا شر الصنف الذي ينكر أموراً من الدين بعلة أنها لا توافق المعقول أو لا تتحقق بها المصلحة .

وإنما يستعان على جعل التعليم عاماً بعناية أولى الأمر ونصحهم في تدبير شئون الأمة ، حيث يقررونه في سائر المدارس ، ويقومون عليه كما يقومون على سائر العلوم . ومما يسر الأمة أن ترى من ولاة أمورها العناية بتعليم الدين الذي هو ملاك سعادة أبنائها في الدنيا قبل الآخرة .

ومن واجب أهل العلم بعد هذا أن يرقبوا حركة الثائرين على الدين ويكونوا على بصيرة بما يكتبونه في الصحف ، أو يحضرون به في النوادي ليقوموا أوده وينبهوا على خطره ، حتى يستبين أمره ، وتتضح أمام الناشئين طريقة قرع الشبهة بالحجة ، وصرع الباطل بقوة الحق ، وكذلك يفعل العلماء الراسخون ، والكتاب المخلصون .

وحق على من يبغي السعادة لابنه أو لقريب وكل إليه أمره لا يلقي به إلا حيث يأمن على إيمانه وطهارة نفسه ، ولا يذهب به الطمع في متاع الدنيا إلى الاستهانة بأمر العقيدة فإنها الأساس الذي تقوم عليه الحياة الطيبة والشرف الأصيل .

فإذا اشتدت عناية أولى الأمر بالتعليم الديني في المدارس على اختلاف أقسامها وفنونها ، وأرهف أهل العلم أقلامهم في حماية الشريعة ممن يتساقطون على الطعن فيها أو المكر في تأويلها ، وأخذ الآباء بهدى الله فصانوا أبناءهم عن المدارس المنشأة للصد عن السبيل ، خسرت تجارة الرهط الذين يجهلون على الحق والفضيلة ، وتهيأت لنا أسباب نهضة علمية اجتماعية نجني ثمراً لذيذاً من نتائجها ، وتحمد الأجيال القابلة عاقبتها .

ضلالة فصل الدين عن السياسة

ما زال الرسل عليهم السلام يرمون فى الدعوة إلى أصول الإيمان بالله عن قوس واحدة ، ولكل رسول بعد هذا شريعة يراعى فى أمرها ونهيها حال من يرسل إليهم خاصة ، حتى حضر الوقت الذى تهيأ فيه البشر على اختلاف بيئاتهم للانتظام فى شريعة واحدة ، فبعث الله المصطفى صلى الله عليه وسلم بالحنيفية السمحة ، وجعله خاتم النبيين ، وقضى بأن تكون شريعته خاتم الشرائع ، ولعموم رسالته ، سواء الشاهد فيها والغائب العربى والعجمى أقام على صدقه آيات باقيات ما نظر فيها ذو فطرة صافية أو بصيرة نافذة إلا أسلم وجهه لله قانتاً **(وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ)** ، ولخلود شريعته جعلها أبلغ الشرائع حكمة ، وأوفاها أصولا ، وأوسعها للمصالح رعاية .

ثلاث حقائق كل واحدة منها شطر من الإسلام : عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، واشتمال شريعته بنصوصها وأصولها على أحكام ما لا يتناهى من الوقائع ، وكون هذه الشريعة أحكم ما تساس به الأمم ، وأصلح ما يقضى به عند التباس المصالح أو التنازع فى الحقوق .

أجمع علماء المسلمين على هذه الحقائق وعرفها عامتهم . فمن أنكر واحدة منها فقد ابتغى فى غير هداية الإسلام سبيلا ، ومثل من يمارى فى شىء منها ثم يدعى أنه لا يزال مخلصاً للإسلام مثل من يضرب بمعوله فى أساس صرح شامخ ، ثم يزعم أنه حريص على سلامته ، عامل على رفع قواعده .

فتنت مدنية الشهوات أشخاصاً ينتمون إلى الإسلام ، فانحرفت بهم عن المحجة ، وأدركوا أن مجاهرتهم بإنكار رسالة المصطفى صلى الله عليه وسلم تسقطهم من حساب المسلمين دفعة ، فلا يبلغون من فتنة الأمة مأرباً ،

فيبتوا أن يبقوا ثوب الإسلام على أكتافهم ، ويحركوا بمدحه فى بعض المجالس ألسنتهم أو فى بعض الصحف أقلامهم لكى يركن الغافلون من المسلمين إلى أقوالهم ، فيقذفوا من وراء ريائهم وثقة بعض الناس بهم ما شاءوا من آراء خاسرة ، ويزعموا أن هذه الآراء من هداية الإسلام لا ينكرها .

والواقع أن هذا الصنف من المنحرفين قد أحدث فى بعض البلاد الإسلامية آثار فساد لم يحدث معشارها النابذون إلى الدين على سواء ، وكم أرتنا الأيام فى هذا الصنف من عجائب دلتنا على أن هناك مغارات يأتمرون بالدين بين حيطانها ، ولغة إذا حضرهم بعض المسلمين يجنحون إلى التخاطب بها ، وضروباً من الإغواء يجهدون أنفسهم فى تمويهها .

منذ عهد قريب أخذ بعض الكاتبين يتشبهون بمن يؤلف على طريق البحث العلمى ، فقالوا ما شاءوا أن يقولوا ، وخرجوا بغير مناسبة منطقية إلى إنكار أن يكون للإسلام مدخل فى الشئون القضائية والمعاملات المدنية .

جال هذا الصوت جولة الباطل ثم ذهب كصيحة فى واد ، ولم يبق له صدى إلا فى آذان رهط لا يسمعون رشدا ، ولا يفقهون حجة ، وإن شئت فقل : صادف ذلك الصوت أفئدة هواء ، فجعلوا يحاكونه فى بعض ما يكتبون ، ويوقظون فتناً لو أقبل كل على ما يحسن أن يتحدث فيه لكانوا عنها فى شغل .

ما كدنا ننتهى من إماطة أذى الذى ادعى أنه يفسر القرآن بالقرآن ، حتى خرجت إحدى المجلات تحمل مقالا تحت عنوان « داء الشرق ودواؤه » وفى هذا المقال دعاية إلى فصل الدين عن السياسة ، وبلغ بكاتبه الحال أن زعم أن سبب تأخر المسلمين عدم فصلهم للدين عن السياسة .

ونحن نود والله يعلم أن يقبل كل من بيده قلم على ما فيه خير للناس ؛ والموضوعات العلمية والأدبية والسياسية مترامية الأطراف ، وانصراف نفس الكاتب عن البحث فى أمثال هذه الموضوعات ليس بعذر يبيح له أن يخوض بقلمه فى الحديث عن الدين خوض من يقولون مالا يتدبرون .

ونود والله يعلم أن نقبل على شأننا ، ونمضى فى سبيلنا ، وليس فى فطرتنا الولوع بأن نفند لكاتب رأياً ، أو نبطل لباحث قولا ، ولكن القوم أصبحوا يتساقطون على طمس معالم الحقيقة والفضيلة تساقط الفراش على السراج ، والسكوت عنهم تفريط فى جنب الله ، ومن فرط فى جنب الله خسر الدنيا قبل الآخرة .

قال صاحب المقال فى ذكر أهم النقط الجوهرية التى ترجع إليها أسباب ضعف الشرق : « الثانية عدم التفريق بنظام قاض بين السلطتين الدينية والدنيوية ، فكان هذا من جملة المسببات لتأخر المسلمين ، إذ أن جمع السلطتين فى شخص واحد بدون تحديد لهما كان من أبعد(١) الأمور إلى اختلال النظام ، وإذا كان هذا أفاد المسلمين فى صدر التاريخ الإسلامى وأمر العالم لهم كما قدمنا ، إلا أنه كان بلاء بعد انقسام المسلمين إلى ممالك وفرق وشيع ومذاهب وأحزاب ووجود دول أخرى تنازعهم السيادة على العالم ، وقد عاد اجتماع هاتين السلطتين بلاء عليهم إذ أصبحت الرياسة الدينية والدنيوية فى الواقع فى قبضة تلك الدول التى نازعتهم كما هو مشاهد الآن » .

نعرف من قبل أن يظهر هذا المقال أن الذين يدعون إلى فصل الدين عن السياسة فريقان : فريق يعترفون بأن للدين أحكاماً وأصولا تتصل بالقضاء والسياسة ، ولكنهم ينكرون أن تكون هذه الأحكام والأصول كافلة بالمصالح آخذة بالسياسة إلى أحسن العواقب ، ولم يبال هؤلاء أن يجهروا بالطعن فى أحكام الدين وأصوله ، وقبلوا أن يسميهم المسلمون ملاحدة ، لأنهم مقرون بأنهم لا يؤمنون بالقرآن ولا بمن نزل عليه القرآن .

ورأى فريق أن الاعتراف بأن فى الدين أصولا قضائية وأخرى سياسية ، ثم الطعن فى صلاحها ، إيذان بالانفصال عن الدين ، وإذا دعا المنفصل عن الدين إلى فصل الدين عن السياسة كان قصده مفضوحاً وسعيه خائباً ، فاخترع هؤلاء طريقاً حسبوه أقرب إلى نجاحهم وهو أن يدعوا أن الإسلام توحيد وعبادات ، ويجحدوا أن يكون فى حقائقه ما له مدخل فى القضاء

---

(١) كذا فى الأصل ولعلها محرفة عن كلمة « أدعى » .

والسياسة ، وجمعوا على هذا ما استطاعوا من الشبه لعلهم يجدون فى الناس جهالة أو غباوة ، فيتم لهم ما بيتوا .

هذان مسلكان لمن ينادى بفصل الدين عن السياسة ، وكلاهما يبتغى من أصحاب السلطان أن يضعوا للأمة الإسلامية قوانين تناقض شريعتها ، ويسلكوا بها مذاهب لا توافق ما ارتضاه الله فى إصلاحها . وكلا المسلكين وليد الافتتان بسياسة الشهوات ، وقصور النظر عما لشريعة الإسلام من حكم بالغات .

أما أن الإسلام قد جاء بأحكام وأصول قضائية ، ووضع فى فم السياسة لجاماً من الحكمة ، فإنما ينكره من تجاهل القرآن والسنة ولم يحفل بسيرة الخلفاء الراشدين ، إذ كانوا يزنون الحوادث بقسطاس الشريعة ، ويرجعون عند الاختلاف إلى كتاب الله أو سنة رسول الله .

فى القرآن شواهد كثيرة على أن دعوته تدخل فى المعاملات المدنية ، وتتولى إرشاد السلطة السياسية ، قال تعالى : **(أفحكم الجاهلية يبغون . ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون)** وكل حكم يخالف شرع الله فهو من فصيلة أحكام الجاهلية ، وفى قوله تعالى : **(لقوم يوقنون)** إيماء إلى أن غير الموقنين قد ينازعون فى حسن أحكام رب البرية . وتهوى أنفسهم تبدلها بمثل أحكام الجاهلية ، ذلك لأنهم فى غطاء من تقليد قوم كبروا فى أعينهم ، ولم يستطيعوا أن يميزوا سيئاتهم من حسناتهم ، وقال تعالى : **(وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك)** فرض فى هذه الآية أن يكون فصل القضايا على مقتضى كتاب الله ، ونبه على أن من لم يدخل الإيمان فى قلوبهم يبتغون من الحاكم أن يخلق أحكامه من طينة ما يوافق أهواءهم ، وأردف هذا بتحذير الحاكم من أن يفتنه أسرى الشهوات عن بعض ما أنزل الله ، وفتنتهم له فى أن يسمع لقولهم ، ويضع مكان حكم الله حكماً يلائم بغيتهم ، قال تعالى : **(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون)** وفى آية : **(فأولئك هم الفاسقون)** وفى آية ثالثة : **(فأولئك هم الكافرون)** . .

وفى القرآن أحكام كثيرة ليست من التوحيد ولا من العبادات ، كأحكام البيع والربا والرهن والدين والإشهاد ، وأحكام النكاح والطلاق واللعان والولاء والظهار والحجر على الأيتام والوصايا والمواريث ، وأحكام القصاص والدية وقطع السارق وجلد الزانى وقاذف المحصنات ، وجزاء الساعى فى الأرض فساداً ، بل فى القرآن آيات حربية فيها ما يرشد إلى وسائل الانتصار كقوله تعالى مرشداً إلى القوة المادية : (**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة**) وقوله تعالى مرشداً إلى القوة المعنوية : (**وليجدوا فيكم غلظة**) وقوله تعالى منبهاً على خطة هى من أنفع الخطط الحربية : (**قاتلوا الذين يلونكم من الكفار**) والكفار هنا المحاربون ، ففى الآية إرشاد إلى أن يكون ما بينهم وبين ديارهم أمناً ، ولا يدعوا من ورائهم من يخشون منه أن ينهض إلى أموالهم وأهليهم من بعدهم ، أو يجلب عليهم بخيله ورجله ليطعن فى ظهورهم وقد أقبلوا على العدو الذى تجاوزوا إليه بوجوههم ؛ وفى الآيات الحربية ما يتعلق بالصلح كقوله تعالى : (**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها**) وقوله تعالى : (**حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون**) وفيها ما يتعلق بالمعاهدات كقوله : (**فإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء**) .

وفى السنة الصحيحة أحكام مفصلة فى أبواب من المعاملات والجنايات إلى نحو هذا مما يدلك على أن من يدعو إلى فصل الدين عن السياسة إنما تصور ديناً آخر ، وسماه الإسلام .

وفى سيرة أصحاب رسول الله — وهم أعلم الناس بمقاصد الشريعة — ما يدل دلالة قاطعة على أن للدين سلطاناً على السياسة ، فإنهم كانوا يأخذون على الخليفة عند مبايعته شرط العمل بكتاب الله وسنة رسول الله .

ولولا علمهم بأن السياسة لا تنفصل عن الدين لبايعوه على أن يسوسهم بما يراه أو يراه مجلس شوراه مصلحة ، وفى صحيح البخارى « كانت الأئمة بعد النبى صلى الله عليه وسلم يستشيرون الأمناء من أهل العلم فى الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها ، فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غيره اقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم » .

ومن شواهد هذا محاورة أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب فى قتال

مانعى الزكاة ، فإنها كانت تدور على التفقه فى حديث « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله » فعمر بن الخطاب يستدل على عدم قتالهم بقوله فى الحديث : « فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم » . وأبو بكر الصديق يحتج بقوله فى الحديث : « إلا بحقها » ويقول : الزكاة من حق الأموال ولو لم يكونوا على يقين من أن السياسة لا يسوغ لها أن تخطو خطوة إلا أن يأذن لها الدين بأن تخطوها ، ما أورد عمر بن الخطاب هذا الحديث ، أو او جد أبو بكر عندما احتج عمر بالحديث فسحة فى أن يقول له : ذلك حديث رسول الله ، وقتال مانعى الزكاة من شئون السياسة .

ومن شواهد أن ربط السياسة بالدين أمر عرفه خاصة الصحابة وعامتهم ، قصة عمرو بن الخطاب إذ بداله أن يضع لمهور النساء حداً ؛ فتلت عليه امرأة قوله تعالى : (وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً) فما زاد على أن قال : رجل أخطأ وامرأة أصابت . ونبذ رأيه وراء ظهره ، ولم يقل لها : ذلك دين وهذه سياسة .

وكتب السنة والآثار مملوءة بأمثال هذه الشواهد . ولم يوجد حتى فى الأمراء المعروفين بالفجور من حاول أن يمس اتصال السياسة بالدين من الوجهة العلمية وإن جروا فى كثير من تصرفاتهم على غير ما يأذن به الله . جهالة منهم أو طغياناً . وأراد الحجاج أن يأخذ رجلا بجريمة بعض أقاربه ، فذكره الرجل بقوله تعالى : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) فتركه ولم يخطر على باله وهو ذلك الطاغية أن يقول له : ما تلوته دين ، وما سأفعله سياسة .

وأما قيام أحكام الشريعة على أساس العدل ، ورسمها للسياسة خططاً محكمة الوضع فسيحة ما بين الجوانب . فذلك ما لا أستطيع تفصيل الحديث عنه فى هذا المقال ، وفيما كتبناه ونكتبه إن شاء الله تعالى تحت عنوان : « الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان » ما يساعد على الإلمام بأصول الشريعة ومعرفة اتساعها لكل ما يحدث من الوقائع . والذى نقوله فى هذا المقام إن السياسة لا تجد فى الدين ما يقف دون مصلحة ، ولا تجد منه ما يحمل على إتيان مفسدة ، لا تجد فيه هذا ولا ذاك متى وزنت المصالح

والمفاسد بميزان العقل الراجح ، وكان القابضون على زمامها من حصافة الرأى فى منعة من أن يطيش بهم التقليد أو إرضاء طائفة خاصة إلى أن يروا الفساد صلاحاً فيشرعوه ، أو يروا الصلاح فى لون الفساد فينصرفوا عنه وليس من شأن الدين أن يراعى فيما يشرع الأهواء الجامحة وإن كانت أهواء الملأ الذين استكبروا ، أو أهواء من فى الأرض جميعاً .

والرؤساء الذين لم يحافظوا فى سياسة شعوبهم الإسلامية على أحكام الشريعة وآدابها ، فوضعوا لهم قوانين جائرة ، وأذنوا بمظاهر غير صالحة إنما أتوا من ناحية جهلهم بسماحة شرع الإسلام وسعة قواعده وسمو مقاصده ، وإذا كان على غير هؤلاء الرؤساء تبعة فعلى أولى الحل والعقد من فضلاء الأمة وعلمائها إذا أهملوا علاجهم ، ولم يبذلوا فى دعوتهم إلى الاستقامة جهدهم.

أما الأحداث وأشباه الأحداث الذين لا يهدأ لهم بال ما داموا يسمعون اسم الدين يجرى فى لسان بعض الدول باحترام ، فإن من نشأ فى غير جد ، وأسرف فى حب اللهو ، لا يألف شريعة تأمر بالعدل ، وتضع دون الأهواء الجامحة حاجزاً ، فلا عجب أن يتآمروا بها ، ويشيروا على السياسة بأن تبتعد منها ، وإذا بلغ هؤلاء مأربهم فى سياسة وقع زمامها فى يد زائغ عن سبيل الرشد ، فستذهب آمالهم خائبة فى كل قطر يسوسه رئيس يقدر الإسلام قدره ، ويجد من حوله علماء درسوا الشريعة بنباهة ، ولا يخفى عليهم قصد من يتغنون بمدح الإسلام ، وقبل أن تستريح حناجرهم يطعنونه فى الصميم .

يقول الكاتب : « إن جمع السلطتين فى شخص واحد بدون تحديد لها كان من أدعى الأمور إلى اختلال النظام » .

ليس فى الإسلام سلطة دينية إلا على معنى أن الأمير ينفذ أحكام الشريعة المفصلة فى الكتاب والسنة ، أو المندرجة فى الأصول المأخوذة منهما . وقاعدة الشورى التى قررها القرآن الكريم ، وجرى عليها الخلفاء الراشدون كافلة بصحة الاجتهاد فى الأحكام المستنبطة من الأصول ، أما النظم التى تقوم بها الشورى على وجهها الصحيح فموكولة إلى الآراء الراجحة وما تقتضيه مصالح الأمم أو العصور ، فالإسلام لم يترك السلطة التى وضعها فى أيدى

الأمراء مطلقة عن التقيد ، وإذا استهان بعض الأمراء بقاعدة الشورى فإن التشريع تام ، والوزر على من لم يأخذ نفسه بما قرره الشرع العزيز .

وإذا كان بعض الأمراء هم الذين خرجوا عما حده الإسلام لسلطتهم الدينية ، فحكمة الكاتب متى كان مسلماً أن يقرر الحد الذى رسمه الإسلام ويبين للناس كيف تعداه أولو الأمر ، ليطالبوهم بالوقوف عنده ، لا أن يقول كلاماً مبهماً ، ويبنى عليه المناداة إلى شهوة هى فصل الدين عن السياسة .

ويقول صاحب المقال : « وقد عاد اجتماع السلطتين بلاء عليهم إذ أصبحت الرياسة الدينية والدنيوية فى الواقع فى قبضة تلك الدول التى نازعتهم كما هو مشاهد الآن » .

لسقوط الشعوب الإسلامية فى قبضة تلك الدول التى نازعتهم أسباب ليس الجمع بين السلطتين منها فى شىء ، ومن طبيعة سيطرة تلك الدول عليهم أن تتصرف فى شئونهم على طرق لا تحفظ حقوقهم ولا تراعى فيها مصالحهم ، وهل ينقص هذا البلاء او أن المسلمين أعلنوا فصل سياستهم عن الدين قبل أن يسقطوا فى أيدى هذه الدول المنازعة لهم ؟ !

حرص الكاتب على شهوة فصل الدين عن السياسة جعله يورد فى معرض التشويق إليها ما ليس بحق ولا يشبه أن يكون حقاً ، بأى طريق عرف الكاتب أن تلك الدول إذا وجدت السياسة فى يد والدين فى يد أخرى ، سلبت ما فى اليد الأولى من سياسة وتركت اليد الأخرى تعمل فى حدود سلطتها بحرية !

ويقول الكاتب : « وإذا كان هذا أفاد المسلمين فى صدر التاريخ الإسلامى وأمر العالم لهم كما قدمنا ، إلا أنه كان بلاء بعد انقسام المسلمين إلى ممالك وفرق وشيع ومذاهب وأحزاب ، ووجود دول أخرى تنازعهم السيادة على العالم » .

قد عرفت أن الأمير المسلم ليس عنده فى الواقع سوى سلطة واحدة هى تدبير شئون الأمة على مقتضى القوانين الشرعية والنظم التى لا تخالف شيئاً من أصولها ، فتجريد الأمير من السلطة الدينية هو عزل له عن الإمارة فى نظر الشريعة ، ومن لم يكن أميراً فى نظر شارع الإسلام ، فليس بأمير

فى نظر المسلمين ، فالمسلمون لا يستطيعون أن يتصوروا أمراً مجرداً من السلطة الدينية فضلا عن أن يجردوه منها بالفعل ويرضوا بعد تجريده منها بالاستماع إليه والطاعة له . ولم تكن السلطة الدينية بيد الأمراء فى يوم من الأيام بلاء على المسلمين وإنما بلاء المسلمين فى عدم قيام بعض أمرائهم بما توجبه هذه السلطة من نحو العدل والشورى والمساواة وإعداد القوة لتقرير الأمن وكف العدو الذى يبسط إليهم يده بالسوء .

قال صاحب المقال : « فكل مملكة احتضنت مذهباً فى العقائد والفروع لتبقى وحدها منفصلة عن الممالك الأخرى ، فبعد الانقسام أصبح كل أمير منهم إماماً دينياً وحاكماً سياسياً لقطره ، فكانت النتيجة من هذا الجمع الإخلال بالنظام العام ، وزالت الوحدة المقصودة من روح التشريع الإسلامى فتعددت الخلافة واختلت أحكامها ، بعكس الأمم الأخرى التى تنبهت إلى حكمة الفصل بين السلطتين فصار ذلك الفصل مصدراً لفائدة الأمة وحمايتها من التلاشى والانهيار ، فلم يضرها اختلاف الدول فيها لوجود الرياسة الدينية قائمة فى حدود سلطتها وتخصصها ، ولذلك بقيت وحدتها خالدة فى عصمة من الانشقاق والتدهور اللذين أصابا الوحدة الإسلامية » .

وقع تفرق فى الممالك الإسلامية ، وأصبح كل أمير مستقلا بالنظر فى أمور قطره ، فكانت النتيجة من استقلال كل أمير بمملكة مع تقاطع هذه الممالك وتدابرها انحلال الرابطة الإسلامية وزوال الوحدة المقصودة من التشريع الإسلامى .

فسبب اختلال النظام العام أو أحكام الخلافة ، انقسام الأمم الإسلامية إلى دول انقساماً غير مصحوب بشىء من التحالف والتعاطف ، أما أن كل أمير يرجع إليه النظر فى شئون رعيته الدينية فذلك من لوازم الإمارة فى الإسلام ، فلم يكن لعد الأمير المستقل نفسه حارساً للدين فى مملكته الخاصة دخل فى اختلال النظام ، فوهن المسلمين جاء من جهة استقلال كل أمير بطائفة من المسلمين استقلالا يقطع بينها وبين الدولة العظمى صلة التناصر والتعاون ، لا من جهة أن رعاية الدين داخلة فى سياسة كل دولة .

ويقول الكاتب : « بعكس الأمم الأخرى التي تنبهت إلى حكمة الفصل بين السلطتين ، فصار ذلك الفصل مصدراً لفائدة الأمة وحمايتها إلخ » .
وهذا صريح في أن الكاتب يريد من الدول الإسلامية أن تفعل ما فعلته الدول الغربية من تجريد السياسة من الدين . وهو رأى لا يصدر إلا ممن يكن في صدره أن ليس للدين من سلطان على السياسة . وهذا ما بيّته فئة يريدون أن ينقصوا حقيقة الإسلام من أطرافها حتى تكون بمقدار الديانة المسيحية ، ثم يصبغوا هذا المقدار من بعد بأى صبغة أرادوا ، فيذهب الإسلام ، فلا القرآن نزل ولا محمد صلى الله عليه وسلم بعث ، ولا الخلفاء الراشدون جاهدوا في الله حق جهاده ، ولا الراسخون في العلم سهروا في تعرف الأصول من مواردها ، وانتزاع الأحكام من أصولها .

يضرب الكاتب المثل بالأمم الأخرى ويزعم أن فصلها الدين عن السياسة كان مصدر فائدة الأمة وحمايتها من التلاشي والانهيار ، ومن أجل فصلها الدين عن السياسة ووجود الرياسة الدينية قائمة في حدود سلطتها لم يضرها اختلاف الدول فيها .

وضَرْبُ المثل على هذا الوجه أثَرُ نظرة متسرعة ، إذ ليس للرياسة الدينية في الإسلام حد تنتهى إليه ثم يكون للأفراد أو الجماعات أن تفعل بعده ما تشاء ، ولو كان في دين تلك الدول قوانين مدنية ونظم سياسية . وقامت كل دولة على تنفيذ تلك القوانين والنظم داخل حدودها ، أفيكون مجرد رعايتها لما جاء به دينها سبباً لانتشار مرض التقاطع بينها !

ليس في طبيعة ربط السياسة بالدين التقهقر والتنازع إلا أن يكون في تعاليم الدين ما يسير بالناس إلى وراء ، أو ما يغرى بينهم العداوة والبغضاء ، وليس في دين الإسلام إلا ما يصعد بالأمم متى شاءت الصعود إلى السماء ، وليس فيه إلا ما يدعو إلى الائتلاف والتعاون على أن تكون كلمة الحق هي العليا .

قال صاحب المقال : « ولنضرب لذلك مثلا وحدة الكنيسة الكاثوليكية فإنها على الرغم من اختلاف الدول الكاثوليكية بقيت لها زعامتها وشعورها بقوة فكرتها ، وقد رأينا أثرها في الحروب الصليبية المستمرة بل وفي كل

الحوادث التى تلتها التى تألبت فيها أوربا على الأمم الإسلامية . فإن للكنيسة والجمعيات الدينية المختلفة التى تستمد سلطتها منها أثرها الفعال فى بقاء وانتشار المسيحية وتأثيرها فى سياسة العالم » .

ليس فى الإسلام سلطة دينية تشبه السلطة الكاثوليكية ، والسلطة الدينية فى الإسلام لكتاب الله وسنة رسول الله **(فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا)** .

وعلى العلماء البيان وعلى الأمراء التنفيذ . فإن أراد الكاتب من السلطة البيان . فالبيان حق لكل عالم تفقه فى أصول الشريعة ومقاصدها ، فلا يختص به عالم دون آخر . ولا يعد بيان العالم الذى تعينه الأمة للبيان أرجح من بيان غيره إلا أن تكون حجته أقوى . وإذا كان الأمر للحجة فما معنى تعيين شخص ليكون مصدر البيان فى كل حال ؟ فإن أراد من السلطة التنفيذ فليس له معنى سوى أن تكل الأمة إلى شخص القيام بتنفيذ أحكام الدين على أن تكون هى يده التى ينفذ بها . وسلاحه الذى يدافع به من يعارض فى التنفيذ ، وذلك معنى الخلافة المعروفة فى الإسلام .

قال صاحب المقال : « ولو رزق المسلمون رجالا ينظرون بعين الناقد البصير — من قبل قرنين — وفصلوا الدين عن السياسة لكان للإسلام اليوم من الشأن والسيادة فى الممالك التى اغتصبتها الدول الأوربية مالا يقل عما للفاتيكان . وما كان خطر الاستيلاء الأجنبى عليهم عظيماً » .

كلام يروج ولكن فى غير هذا الوادى . ويتقبل ولكن بعقول لم تستنر بهداية . يأسف صاحب المقال على الشأن والسيادة اللذين فاتا المسلمين لعدم فصلهم الدين عن السياسة من قبل قرنين ، ويرى أن إبقاءهم الدين فى جانب السياسة كان سبباً فى أن صار خطر الأجنبى عليهم عظيماً .

فصل الدين عن السياسة هدم لمعظم حقائق الدين . ولا يقدم عليه المسلمون إلا بعد أن يكونوا غير مسلمين . وليست هذه الجناية بأقل مما يعتدى به الأجنبى على الدين إذا جاس خلال الديار . وقد رأينا الذين فصلوا الدين عن السياسة علناً كيف صاروا أشد الناس عداوة لهداية القرآن . ورأينا

كيف كان بعض المبتلين بالاستعمار الأجنبى أقرب إلى الحرية فى الدين ممن أصيبوا بسلطانهم . ونحن على ثقة من أن الفئة التى ترتاح لمثل مقال الكاتب لو ملكت قوة لألغت محاكم يقضى فيها بأصول الإسلام ، وقلبت معاهد تدرس فيها علوم شريعته الغراء إلى معاهد لهو ومجون ، بل لم يجدوا فى أنفسهم ما يتباطأ بهم عن التصرف فى مساجد يذكر فيها اسم الله تصرف من لا يرجو لله وقاراً .

يقول الكاتب : « لو فصلوا الدين عن السياسة ما كان خطر الاستيلاء الأجنبى عليهم عظيماً » . يقول هذا كأنه لا يدرى أن السياسة الطاغية لا تهاب إلا حديداً أشد بأساً من حديدها ، وناراً أشد حراً من نارها ، فليس من المعقول أن تردها عن قصدها سلطة دينية ليس فى كنانتها سهم ، ولا فى كفها حسام . أما قياسه حال السلطة الدينية الإسلامية – على فرض صحة إقامتها – بحال السلطة الكاثوليكية فى احترام مؤسساتها وإطلاق يدها فى عمل رفع أهل ملتها . فمغالطة أو غفلة عن الفرق بين سلطة دينية يجد فيها الاستعمار مؤازرة أو موافقة على أى حال . وسلطة دينية قد يكون فى بعض أصولها مالا يلائم طبيعة الاستعمار .

ولو ربط المسلمون سياستهم بالدين من قبل قرنين ربطاً محكماً ، لم تجد يد الغاصب للعبث بحقوقهم مدخلا . ولو أعلنوا فصل الدين عن السياسة لظلوا بغير دين . ولو جد فيهم الغاصب من الفشل أكثر مما وجد ، فليست مصيبة المسلمين فى تركهم السياسة مربوطة بالدين كما زعم الكاتب ، وإنما هى ذهولهم عن تعاليم دين لم يدع وسيلة من وسائل النجاة إلا وصفها ؛ ولا قاعدة من قواعد العدل إلا رفعها .

قال صاحب المقال : « فإن أعظم ما أصاب المسلمين من المصائب إنما هو فقد الرياسة الدينية بعد أن فقد منهم الاستقلال وحرمانهم من بقائها درعاً حامياً وسداً منيعاً من تسرب المستعمرين باسم السياسة إلى السيطرة على شعور وضمائر الأمم الإسلامية حتى كاد يختل بناء الدين ، ويتنكر المسلمون تعاليمه الحقة » .

حقيقة فقد الرياسة الدينية من أعظم ما أصاب المسلمين ، وهى الرياسة

التى فى إحدى يديها هداية ، وفى أخراهما قوة . أما الرياسة التى لا يتعدى صاحبها أن يكون واعظاً عاماً ، يدعو الناس إلى الصلاة والصيام والحج إن استطاعوا إليه سبيلا ، فلم تفقد بعد ولم يحرم المسلمون منها . ولا تزال باقية ولكن فى أشخاص متفرقين فى البلاد لا فى شخص واحد كما رغب صاحب المقال . ولم نذكر الزكاة فى قبيل ما يدخل فى الوعظ مخافة أن يكون الكاتب قد انتزعها من أحضان الدين وجعلها فى قسمة السياسة .

ربط الكاتب الوقائع ولكن بغير أسبابها ، ويصل النتائج ولكن بغير مقدماتها ، لنفرض أن المسلمين اتفقوا على ضلالة فصل الدين عن السياسة ، وأقاموا رياسة دينية لا جند لها ولا سلاح ، أمن المعقول أن تكون هذه الرياسة درعاً جامياً ، وسداً يمنع من تسرب المستعمرين إلى السيطرة على شعور الأمم الإسلامية وضمائرها ؟ !

إذا سيطر المستعمر على الشعور والضمائر فإن أكبر مساعد له على هذه السيطرة قبضه على زمام التعليم العام حيث يسير به على منهج يخرج به الناشىء مزلزل العقيدة غائباً عن سماحة الدين وحكمة التشريع . ومعظم النشء مأخوذون بحاجات أو دواع إلى أن يترددوا على مدارس الحكومة .

فإن أراد الكاتب أن يكون لتلك السلطة الدينية فضل إقامة مؤسسات تغنى عن مدارس التبشير ومستشفياتهم التى يتخذونها وسائل للسيطرة على شعور المسلمين وضمائرهم ، قلنا : فى يد المسلمين أن يقيموا مؤسسات تحاكى تلك المؤسسات ، فينقذوا أبناءهم من شر مؤسسات الأجنبى ، ولا شىء يضطرهم إلى موبقة فصل الدين عن السياسة ، وابتداع رياسة دينية لم ينزل الله بها من سلطان .

بسط صاحب المقال لسانه فى « الفقهاء المسلمين » كما يبسطه فيهم من لم يطالع كتبهم ، فغلا فى وصفهم بالجمود ، حتى زعم أنهم « لم يقولوا لنا كيف يجتهد الفقيه » وتمادى فى هذه المزاعم إلى أن قال : « ووجد من الفقهاء المزيفين من جوز إمامة المغتصب الذى يتولى ولاية الأمة بغير رغبتها وإرادتها »

يقول الفقهاء : تنعقد الإمامة ببيعة أهل الحل والعقد من العلماء والرؤساء

ووجوه الناس . وهذا هو الأصل الذى ينبغى أن تكون عليه الإمامة فى كل حال . وأجازوا للإمام متى خشى التنازع فى الإمامة من بعده ورأى فى أحد رجاله الكفاية . أن يعهد إليه بها قطعاً للفتنة . ولم يجيزوا لأحد أن يتولى أمرها دون أن يبايعه أهل الحل والعقد . أو يعهد إليه بها الإمام . وإن قام مسلم ذو قوة فتولاها بالقهر والغلبة . فإن كان جامعاً لشروط الولاية من نحو العلم والعدل والاستقامة كان إقراره أسلم عاقبة من منازعته . وليس فى إقراره من بأس ما تحققت فيه شروط الولاية . فالفقهاء يجيزون ولاية المتغلب على معنى أنه بعد القهر والغلبة يعد إماماً لتحقق شروط الإمامة فيه ، ولأن منازعته تفضى إلى فتنة ليسوا فى حاجة إلى إثارتها .

فإن فقد منه بعض شروط الولاية منتخباً كان أو معهوداً إليه ، أو متغلباً ، فمن الشروط ما يكون فقده مسقطاً للولاية بنفسه كالارتداد عن الدين ، واختلال العقل ، ومنها ما يستحق به العزل بإجماع كالفسق ، ومن الفقهاء غير المزيفين من يعد الفسق فى الشروط التى تسقط ولايته بنفسها ولا تحتاج إلى إعلان أهل الحل والعقد بخلعه ، أما القيام على الفاسق وإبعاده من مقر الولاية باليد ، فموكول إلى إجتهاد أهل الحل والعقد ، وهم الذين يسلكون ما تقتضيه الحكمة وتستدعيه مصلحة الأمة .

هذا ما يقوله الفقهاء أخذاً من أصول الشريعة ورعاية لمقاصدها فى الاستنباط . وليس فيه تفريط فى المصلحة العامة . ولا ما يمس مقام الولاية العظمى بسوء .

* * *

سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين

من يدرس أصول الإسلام بجد . ويذهب فى تعرف روح تشريعه مذاهب بعيدة المدى . يدرك دون أن يأخذه ريب أنه دين نزل من السماء ليضرب بهدايته فى أرجاء المعمورة . ويعلم الأمم أرقى نظم الاجتماع . وقد ارتفعت فى الشرق والغرب رايته . يوم تولى أمره زعماء لبسوا من آدابه بروداً سنية . ونحروا فى الدعوة إليه سبلا سوية . ولا أستطيع أن ألم فى هذا المقال بما احتوته شريعته من النظم المدنية . والقواعد التى تشهد بأنه تشريع لم يكن للعواطف البشرية والعادات القومية عليه من سلطان . فأكتفى بأن أصف لك ناحية يتمثل فيها عدل قضائه . ورفق سياسته . وسمو آدابه . تلك الناحية هى أصوله الخاصة فى معاملة غير المسلمين :

المخالفون فى نظر الإسلام محاربون . أو معاهدون ، أو أهل ذمة ، والمراد ذمة الله أى عهده . فهذا الاسم يشعر بأن من مسهم بأذى فقد خان عهد الله وعهد دينه الحنيف .

أما المحاربون فهم الذين يهاجمون أمة إسلامية . أو يتحفزون للهجوم عليها ، أو يمدون أيديهم إلى حق من حقوقها . وحكم الإسلام فى هؤلاء أن يدفعوا إذا هاجموا . ويبادروا بما يكف بأسهم إذا تحفزوا . ويقوموا إذا اعتدوا على الحق حتى ينصفوا . يأخذ الإسلام فى دفع المهاجم أو كف المناوىء . مع رعاية جانب الرفق والأخذ بالعرف .

ومن الرفق الذى أقام عليه سياسته الحربية أنه منع من التعرض بالأذى لمن لم ينصبوا أنفسهم للقتال كالرهبان والفلاحين والنساء والأطفال والشيخ الهرم والأجير والمعتوه والأعمى والزمن . ومن الفقهاء من لا يجيز قتل

الأعمى والزمن ولو كانا ذوى رأى فى الحرب وتدبير . ولا يجوز قتل النساء وإن استعملن لحراسة الحصون أو رمين بنحو الحجارة ، ودليل هذا قوله تعالى : (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا) فجعل القتال فى مقابلة القتال . ونبه النبي صلى الله عليه وسلم على أن من لا يقاتل لا يقتل حين وجد امرأة فى بعض الغزوات قتيلة فأنكر ذلك وقال : « ما كانت هذه لتقاتل(١) » ! .

وإذا وضع المحاربون الأطفال والنساء أمامهم . وجب الكف عن قتالهم ، إلا أن يتخذوا ذلك ذريعة للفوز علينا . ونخشى أن تكون دائرة السوء على جندنا .

ولا يجيز الإسلام التمثيل بالمحارب . قال صلى الله عليه وسلم « ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً(٢) » . ويمنع من حمل رءوسهم من بلد إلى بلد أو حملها إلى الولاة ، وقد أنكر أبو بكر الصديق رضى الله عنه هذا وقال : هو فعل الأعاجم .

ولم يشرع الإسلام للأسير حكماً واحداً ، بل جعل أمره موكولا إلى الأمير الذى يقدر مصلحة الحرب ، وله أن يخلى سبيله بفداء أو بغير فداء .

ولا يرغم الإسلام المحارب على الدخول فى ملته . بل يعرض عليه أن يقيم تحت سلطانه آمناً على نفسه وماله وعرضه ودينه . ويستوى فى هذا الحكم أصحاب الأديان السماوية وغيرهم ، قال الإمام مالك وصاحبه ابن القاسم : تقبل الجزية من كل من دان بغير الإسلام .

وأما المعاهدون وهم الذين انعقد بيننا وبينهم عهد على السلم . فيجب علينا الوفاء بعهدهم وأن نستقيم لهم ما استقاموا لنا ، وإذا كان فى بعض ذوى القوة من يحس من خصمه المعاهد تحفزاً إلى الخيانة فيسبقه إليها ، فإن الإسلام يوجب فى حال الخوف من خيانة المعاهدين أن ننبذ لهم العهد علناً ، وفى القرآن الكريم : (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين) .

---

(١) صحيح الإمام مسلم .
(٢) رواه مسلم .

ولم يخص الإسلام تأمين المحارب بصاحب الدولة ، بل هو حق لكل مسلم ومسلمة ، فإذا أمن رجل أو امرأة من المسلمين محارباً ، كان تأمينه نافذاً ، واعتصم بهذا التأمين من أن يناله أحد بسوء حتى يبلغ مأمنه . وليس من شرط التأمين البلوغ ولا الإسلام ، فلو أمن صبي يعلم ما يقول أو أحد من أهل الذمة بعض المحاربين ، كان هذا التأمين عقداً محترماً .

بلغ الدين في رعاية عهد الأمان أقصى غاية ، فلو أشار المسلم إلى الحربي إشارة يريد بها عدم التأمين ، ففهمها الحربي على التأمين ، وجب له الأمان على حسب ما فهم من تلك الإشارة .

وهذا حكم التأمين في حال الحرب . أما تأمين المحارب ليدخل البلاد بقصد التجارة فمن شأن أولى الأمر ، ولو أمن أحد السوقة محارباً فدخل بقصد التجارة وظن المحارب أن هذا التأمين نافذ ، وجب الوفاء له على حسب ظنه ، وليس لولى الأمر إن لم يرض عن هذا التأمين إلا أن يرد المحارب إلى مأمنه .

وإذا أخذ محارب أماناً لينظر في الدين ، ولم ينشرح صدره للإسلام ، فما لنا إلا أن نرده إلى داره آمناً . وهذا ما يدل عليه قوله تعالى : **(وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه)** .

ولو ظفر المسلمون بمحارب جاء مقبلا من بلد العدو فقال : جئت لأطلب الأمان ، لم يجز التعرض له بمكروه ، وإذا لم يروا المصلحة في تأمينه ردوه إلى مأمنه .

ولو وجد المسلمون طائفة من المحاربين في أطراف بلاد الإسلام فقالوا : جئنا تجاراً وظننا أنكم لا تتعرضون لمن جاء تاجراً ، فليس لنا إلا أن ندعهم وشأن تجارتهم أو نردهم إلى مأمنهم ، إلا أن تقوم الشواهد على أنهم يقصدون من الشر ما لا يقولون .

ومن رعاية الإسلام لعهد التأمين أن أكد في احترام أموال المعاهدين ، حتى إذا رجع المعاهد إلى بلده وترك في دار الإسلام وديعة أو ديناً ، وجب إرسالها إليه ، فإن مات بعث بها إلى ورثته إن عرفوا ، فإن لم يعرفوا أرسل بها إلى رئيس قومه .

ويدلك على ما لعهد التأمين في دين الإسلام من حرمة ، قول عمر

ابن الخطاب : « إنه بلغنى أن رجالا منكم يطلبون العلج حتى إذا أسند إلى الجبل وامتنع قال رجل « مَتَشْرَس(١) » يقول : لا تخف ، حتى إذا أدركه قتله ، وإنى والذى نفسى بيده لا أعلم مكان واحد فعل ذلك إلا ضربت عنقه(٢) » .

وأما من رضوا بالإقامة تحت راية الدولة الإسلامية فقد قرر لهم الدين من الحقوق ما يكفل حريتهم . ويجعلهم أعضاء حية مرتبطة بسائر أعضاء الأمة المسلمة ارتباط ألفة وعطف وتعاون . توجد هذه الروابط فى القرآن والحديث وآثار الصحابة وأقوال أهل العلم من بعدهم .

بمقتضى العهد الذى يعقد لأهل الذمة أن يقيموا تحت رايتنا متمتعين بحقوقهم الدينية . آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم . وإليك نص عهد عمر بن الخطاب لأهل إيليا : « أعطاهم الأمان لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسائر ملتهم ، لا تسكن كنائسهم ، ولا ينقص منها ولا من خيرها . ولا من صلبهم ، ولا يكرهون على دينهم . ولا يضار أحد منهم » .

إن القرآن كقانون أساسى لدولة الإسلام . فلم يترك ناحية من نواحى الاجتماع أو السياسة إلا وضع لها أصلا يهتدى به فى تفاصيل أحكامها . وانظر إليه ماذا صنع فى ناحية هى من أكبر النواحى الاجتماعية أو السياسية ، وهى معاملة الطوائف غير المسلمين إذا اختاروا الإقامة فى جوارنا ولم ينزعوا إلى مناوأتنا ، اقرأ إن شئت قوله تعالى : **(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين)** فالآية تحث على رعاية قانون العدل فى معاملتهم . وتدل بعد هذا على فضيلة البر بهم . وإذا عبرت عن هذا المعنى بعدم النهى عنه . فلأنها قصدت الرد على ما يسبق إلى الذهن من أن مخالفتهم للدين تمنع من برهم ، وتسهل الاستهانة بحقوقهم .

وقد جرى أمراء الإسلام العادلون على سيرة هذه الآية . فكانوا ينصحون لنوابهم بالعدل ، ويخصون أهل الذمة فى نصيحتهم بالذكر .

---

(١) كلمة فارسية معناها لا تخف .

(٢) الموطأ .

وأحسن مثل نسوقه على هذا كتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى عمرو ابن العاص وهو يومئذ الوالى على مصر . ومما جاء فى هذا الكتاب « وإن معك أهل ذمة وعهد وقد وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم » . ومنه « وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة » . احذر يا عمرو أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم لك خصماً فإنه من خاصمه خصمه(١) » . ومن الأحاديث الثابتة فى هذا الصدد قوله صلى الله عليه وسلم : « من قذف ذميا حد له يوم القيامة بسياط من نار » .

فانظروا إلى مكانة العهد فى نظر الإسلام . وزنوها بمعاهدات يأخذ فيها بعض الأقوياء على أنفسهم احترام حقوق شعب إسلامى حتى إذا أمسكوا بناصيته لم يستحيوا أن يعبثوا بالأرواح . وتجول أيديهم فى الأموال . ويعملوا جهدهم على أن يقلبوهم إلى جحود بعد إيمان . ويحنقون بعد هذا كله على من يسميهم أعداء الإنسانية . وقابضى روح الحرية .

أدرك الفقهاء رعاية شارع الإسلام لأهل الذمة وحرصه على احترام حقوقهم . فاستنبطوا من أصوله أحكاماً جعلوا المسلم وغير المسلم فيها على سواء وأذكر من هذه الأحكام أنهم أجازوا للمسلم أن يوصى أو يقف شيئاً من ماله لغير المسلمين من أهل الذمة . وتكون هذه الوصية أو الوقف أمراً نافذاً . ولما قال صلى الله عليه وسلم : « لا يبع الرجل على بيع أخيه ولا يخطب على خطبة أخيه(٢) » قالوا : البيع على بيع غير المسلم الداخل فى ذمة الإسلام كالبيع على بيع المسلم . والخطبة على خطبته كالخطبة على خطبة المسلم : كلاهما حرام .

وإذا ذكر فقهاؤنا آداب المعاشرة ، نبهوا على حقوق أهل الذمة . وندبوا إلى الرفق بهم . واحتمال الأذى فى جوارهم ، وحفظ غيبتهم . ودفع من يتعرض لأذيتهم . قال شهاب الدين القرافى فى كتاب الفروق : « إن عقد

(١) روى الخطيب فى تاريخه عن ابن مسعود « من آذى ذميا فأنا خصمه ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة » .

(٢) صحيح الإمام مسلم .

الذمة يوجب حقوقاً علينا لأنهم فى جوارنا وفى خفارتنا وذمة الله تعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ودين الإسلام ، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة فى عرض أحدهم ، أو أى نوع من أنواع الأذية ، أو أعان على ذلك ، فقد ضيع ذمة الله تعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة دين الإسلام » : وقال ابن حزم فى مراتب الإجماع : « إن من كان فى الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه ، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح ، ونموت دون ذلك صوناً لمن هو فى ذمة الله تعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة » .

وجعل الإسلام أحكام رؤسائهم فيما بينهم نافذة ، فلهم أن يتحاكموا أمام رؤساء مللهم فيما يعرض لهم من القضايا ، وإنما اختلف علماؤنا فيما إذا رفع الخصمان منهم القضية إلى الحاكم المسلم ، فقال المالكية : إن كان ما رفعوه ظلماً لا تختلف الشرائع فى تحريمه كالغصب والقتل ، وجب على الحاكم المسلم أن يفصل فيه على وجه العدل ، فإن كان مما تختلف فيه الشرائع ، كان له الخيار فى الفصل بينهم بشريعة الإسلام ، أو صرفهم إلى رئيس طائفتهم . وحملوا على هذا الوجه قوله تعالى : **(فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم)** . وقال الإمام أبو حنيفة : على الحاكم المسلم متى ارتفع الخصمان من أهل الكتاب أن يفصل فى قضيتهم ، وليس له الإعراض عنهم . وأخذ فى وجوب الفصل بينهم بقوله تعالى : **(وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم)** ، وقال : إن الأمر القاطع فى هذه الآية ناسخ للتخيير فى آية **(فاحكم بينهم أو أعرض عنهم)** .

هذا أصل البحث فى هذه المسألة ، أما تفصيل المذاهب وبسط أدلتها فموضعه كتب الفقه وأحكام القرآن .

وأباح للمسلم أن يتزوج تحت سلطان الإسلام بيهودية أو نصرانية ، وجعل لها من الحقوق ما لزوجته المسلمة ، وفى الزواج صلة الصهر ، وتتبعها صلة النسب ، وفى هذا شاهد على أن الدين الحنيف ليس بالدين الذى يدعو إلى التقاطع المانع من المعاشرة بالمعروف والتعاون على مرافق الحياة .

وكره الإسلام أن يجرى المسلم فى مخاطبة غير المسلمين مجرى أولئك

الذين يتعصبون لمعتقداتهم بغير الحق ، فيطلقون ألسنتهم بإذاية من يجادل في صحتها ، فقال تعالى : (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن) وقال تعالى : (وجادلهم بالتي هي أحسن . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) .

وخاتمة المقال أن المسلمين قد استناروا بسماحة دينهم ، وتعلموا من آدابه أن يحسنوا معاشرة أصحاب الأديان الأخرى ، ممن لا يكيدون لهم كيداً ، ولا يظاهرون عليهم عدواً ، ويمكنهم أن يعيشوا معهم في صفاء وتعاون على المصالح الوطنية . وكثيراً ما نقرأ أنباء من يشرح الله صدورهم للإسلام فنجدهم حيث يذكرون دواعي اهتدائهم يصرحون بأن من هذه الدواعي ما يرونه في هذا الدين من سعة الصدر ، والأمر بالرفق والإحسان في معاملة المخالفين ، وبأن لا يزاد عند جدالهم على دفع الشبهة بالحجة .

° ° °

العــزة والتواضــع

سهل على الإنسان أن يدرك معنى الفضيلة فى صورة مجملة ، بل سهل عليه أن يتعرف ما هى الفضائل بتفصيل . وإنما العسر فى أخذ النفس بها ، والسير فى معاملة الناس على قانونها . وعسر العمل على الفضيلة مع تصور مفهومها ، والشعور بحسن أثرها . يجىء من ناحية الشهوات التى قد تطغى فتطمس على البصائر . وتكاد تحول معرفتها للخير إلى جهالة عمياء . وقد يؤخذ الدارس للأخلاق من ناحية ضعفه فى تطبيق الأعمال على ما تقتضيه أصول المكارم ، ذلك لأن علم الأخلاق يشرح الفضيلة ، ويبين ما بينها وبين الأخلاق الأخرى من صلة ، وينبه على ما لها من آثار حميدة ، ولا يتعرض لمظاهر الفضيلة مظهراً فظهراً . ولا لمواضع الأخذ بها موضعاً فموضعاً ، بل يكل ذلك إلى اجتهاد الشخص ونباهته .

وحدود الفضائل تقع بمقربة من أخلاق مكروهة . وهذه الحدود فى نفسها واضحة جلية ، إلا أن تمييز ما يدخل فيها مما هو خارج عنها ، يحتاج إلى صفاء فطرة ، أو تربية تساس بها النفس شيئاً فشيئاً .

وكثيراً ما يتشابه على الرجل لأول النظر أمور ، فلا يدرى أهى داخلة فى الفضيلة أم هى خارجة عن حدودها ، وربما سبق ظنه إلى غير صواب ، فيخال ما هو من قبيل الفضيلة مكروهاً فيدعه ، أو يعيب غيره به ، أو يخال ما هو من قبيل المكروه فضيلة فيرتكبه ، أو يمدح غيره عليه . وهذا الشأن يجرى فى خلقى العزة والتواضع .

فعزة النفس تمتاز فى الأذهان عن الكبرياء امتياز الصبح من الدجى . إذ العزة ارتفاع النفس عن مواضع المهانة ، والكبرياء استنكاف النفس أن تأتى صالحاً ، بتخيل أن ذلك العمل لا يليق بمنزلتها ، أو تعظمها عن أن تجامل ذا نفس زاكية بزعم أنه غير كفء لها .

ويقابل العزة الضعة ، وهى انحدار النفس فى هوة المهانة . ويقابل الكبرياء التواضع ، وهو إذعانها للحق ونظرها إلى ذى النفس الزاكية أو المستعدة لأن تكون زاكية ، نظر احترام أو عطف وإشفاق .

والفرق بين حقائق هذه الأخلاق سهل المأخذ . ولا يكاد يخفى أمره على عامة الناس فضلا عن خواصهم ؛ ولكن أحوالا تعرض للرجل فيخفى فيها الوجه الذى يدعو إلى مظهر الرفعة فيعد مستكبراً ، أو يخفى فيها الوجه الذى يدعو إلى مظهر التواضع . فيعد صاغراً .

وفى النـــاس من عد التواضع ذلة وعد اعتزاز النفس من جهله كبرا

وقال رجل للحسن بن على : إن الناس يزعمون أن فيك تيهاً . فقال : ليس بتيه ولكنه عزة . وتلا قوله تعالى : **(ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون)** . . وقال عبد الرحمن الناصر الخليفة الأموى بالأندلس لابنه المنذر : إن فيك لتيهاً مفرطاً . وإن العيون تمج التياه ، والقلوب تنفر عنه ، فقال المنذر : « إن لهذا السلطان رونقاً يريقه التبذل . وعلواً يخفضه الانبساط ، ولا يصونه إلا التيه والانقباض » . ثم ذكر أناساً يعدون تواضع الرجل صغراً . وتخفضه خسة . فقال له عبد الرحمن : ابق وما رأيت .

فوزن المعاملات الخاصة وإلحاقها بإحدى خصلتى العزة أو التواضع . أو طرحها إلى الكبرياء أو المهانة . يرجع إلى اجتهاد الشخص نفسه . وهذا لا يمنع غيره الذى عرف من سر المعاملة ما عرف من علانيتها . أن ينقدهم ويصف صاحبها بأنه عزيز النفس أو متواضع . أو يحكم عليه بأنه متكبر أو متصاغر .

فى عزة النفس فوائد تعود على الشخص نفسه . منها ارتياح ضميره وسلامته من ألم الهوان الذى يلاقيه من لا يحتفظ بكرامته . ثم ما يلقيه هذا الخلق على صاحبه من مهابة ووقار . وإحراز مكانة احترام فى النفوس مما تنشرح له صدور العظماء . وإنما عيب الرجل فى أن يجعل هذه المكانة غايته المنشودة . أو يتخذها حبالة لاصطياد مآرب لا يتعداه نفعها .

ولهذه الخصلة آثار صالحة فى الاجتماع . فإن الأمة التى تشرب فى نفوسها العزة يشتد فيها الحرص على أن تكون مستقلة بشئونها ، غنية عن أمم

من غيرها ، وتبالغ فى الحذر من أن تقع فى يد من يطعن فى نحر كرامتها ، ولا يستحى الإنسانية أن تراه مهتضما لحقوقها .

ومن عناية الإسلام بأدب العزة أنه بنى كثيراً من أحكامه العملية على رعايتها . كما منع القادر على الكسب من بسط كفه للاستجداء ، إذ كان فى استجدائه إراقة لماء وجهه بين يدى من تكون يده هى العليا . قال صلى الله عليه وسلم : « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير من أن يأتى رجلا أعطاه الله من فضله فيسأله أعطاه أو منعه » . وسن الهجرة من بلد لا يرفع فيها الإسلام لواءه إلى بلد تخفق عليه رايته وتقام فيه أحكام شريعته . قال تعالى : **(ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة)** . وشرع الذود عن الأوطان وحمايتها من أن يكون للخصوم عليها سيطرة . إذ لا نصيب لجماعة المسلمين من سيطرة غير المسلم إلا العسف والإرهاق .

ومن الأحكام القائمة على رعاية العزة . أن التبرعات لا تتقرر إلا بقبول المتبرع له . فلو وهب شخص لآخر مالا . لم تنعقد الهبة إلا أن يقبلها الموهوب له . إذ قد يربأ به خلق العزة عن قبولها . كراهة احتمال منتها ، والمنة تصدع قناة العزة . فلا يحتملها ذوو المروآت إلا فى حال ضرورة ، ولا سيما منة تجيء من غير ذى طبع كريم أو قدر رفيع . والعلماء الذين كانوا لا يقبلون عطايا ولاة الأمور ، يريدون الاحتفاظ بكامل عزتهم ، حتى يكون موقفهم فى وعظ أولئك الولاة إذا حادوا عن الرشد موقف الناصح الأمين .

ومن هذه الأحكام شرط الكفاءة فى النكاح ، ذلك لأن فى تزوج الرفيعة ممن هو دونها امتهاناً لقدرها ، وغضاً من كرامة أوليائها ، فجعل للمرأة وأوليائها الحق فى الممانعة من تزوجها ممن لا يكافئها ، وإنما اختلف الفقهاء فى تحديد الكفاءة . كما هو مقرر فى كتب الأحكام .

وقد عرف الفقهاء أن الشريعة تراعى فى أحكامها حق العزة فقالوا : إن المسافر يقبل هبة الماء للوضوء ولا يتيمم ، إذ لا تمن بمقدار ما يتوضأ به من الماء عادة ، ولم يلزموه قبول هبة ثمن الماء ، وأجازوا له التيمم .

إذ كان فى هبة الثمن منة ، والمنة تورث شيئاً من الذلة . وعلى هذا النحو جرى الإمام الغزالى إذ جعل خشية الإهانة مسقطة لوجوب النهى عن المنكر . وموضع هذا أن يعرف العالم أن نهيه لا يجدى نفعاً ، ويزيد على عدم جدواه بأن يسومه أولئك المبطلون أو الفاسقون خسفاً ، أما إذا كان يرجو مما يقوله أو يكتبه فائدة ، فاحتمال الأذى فى سبيل العمل الصالح عزة لا تطاولها عزة .

ومدح الإنسان نفسه رعونة ، فإذا مسه أحد بازدراء ، فإن علم الأخلاق يسمح له بأن يذود عن عزته ، ويقول كلمة ينبه بها على مكانته . وفد أبو الفضل بن شرف إلى المعتصم أحد أمراء الأندلس فى زى تظهر عليه البداوة ، وأنشده قصيدته التى يقول فى طالعها :

مطل الليـــل بوعـــد الفلق وتشكى النجم طول الأرق

فاهتز المعتصم لسماعها طرباً ، فحسد أبا الفضل من الحاضرين ابن أخت غانم ، وقال له : من أى البوادى أنت ؟ فقال أبو الفضل : أنا من الشرف فى الدرجة العالية ، وإن كانت البادية على بادية . ولا أنكر خالى ، ولاأعرف بخالى . فانقبض ابن أخت غانم خجلا .

وأما التواضع وهو بذل الاحترام ، أو العطف والمجاملة لمن يستحقه ، فهو خلق يكسب صاحبه رضا أهل الفضل من الناس ومودتهم ، وهو الطريق الذى يدخل بالشخص فى المجتمع ، ويكون به عضواً ملتئماً مع سائر الأعضاء التى يتألف منها جسد نسميه الأمة ، فالتواضع أنجح وسيلة إلى الائتلاف والاتحاد ، اللذين هما أساس التعاون على مرافق الحياة وجلائل الأعمال ، قال الله تعالى يدعو رسوله الكريم إلى هذا الخلق العظيم : **(واخفض جناحك للمؤمنين ، وقل إنى أنا النذير المبين)**. وقال تعالى : **(واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا)** .

يستكبر الأغبياء ظناً منهم أن فى الاستكبار رفعة ، والحقيقة أن ابتغاء الرفعة من طريق التواضع أنجح من التوصل إليها بطريق التجبر والغطرسة فالتواضع الحكيم يورث المودة ، ومن عمر فؤاده بمودتك ، امتلأت عينه بمهابتك .

وأحسن مقرونين فى عين ناظر جلالة قدر فى خمول تواضع

قد يراك الرجل وأنت تؤدى حق الاحترام إلى رجل عرفت من كماله ما لم يعرفه . فيعد عملك تصاغراً . ويرمى أمامك أو وراءك بسهم الإنكار . ولو اطلع على ما بطن من هذه المعاملة كما اطلع على ما ظهر منها ، لأقام لك بدل الإنكار عذراً . قدم أبو الفضل بن العميد لأبى بكر بن الخياط نعله . فعده بعض الحاضرين إفراطاً فى التنازل ، فقال أبو الفضل : أولام على تعظيم رجل ما قرأت عليه شيئاً من الطبائع للجاحظ إلا عرف ديوانه وقرأ القصيدة من أولها إلى آخرها حتى ينتهى إليه !

وكان أبو العباس المبرد عند ما يرى أبا بكر الأبهرى مقبلا ينهض قائماً حفاوة وإجلالا . فخطر على بال بعض أصحابه أنه تجاوز حد التواضع ، وأن أبا بكر لا يستحق هذا القدر من الإجلال . وشافه المبرد بهذا الخاطر . فقال المبرد :

إذا مـا رأينـاه مقتبـلا حللنا الحبا وابتدرنا القيامـا
فـلا تنكرن قيـامى له فإن الكريم يجـل الكراما

يتواضع الرجل لأقرانه . فلا يصاعر لهم خداً وإن أبى الدهر إسعافهم ، ولا يخرج فى معاملتهم عن حدود المساواة وإن رزق من المال أو الجاه ما لم يرزقوا . قال البحترى :

وإذا مـا الشريف لم يتواضع للأخـلاء فهو عين الوضيع

ويتواضع الرجل لمن هو دونه فى ظاهر هذه الحياة أو فيما يجرى به عرف الناس ، كالأستاذ يجامل طالب العلم ، والرئيس يجامل المرءوس . وفى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقوال الذين أوتوا الحكمة ، وسيرة الذين استقاموا على الفضيلة ، ما فيه عظة حسنة ، وقدوة صالحة .

أما الأستاذ لا يتعاظم على طالب العلم ، فمن مظاهره الإصغاء إليه عند المناقشة . وإجابته عما سأل فى رفق . وتلقى ما يبديه من الفهم بإنصاف ، فإن أخطأ نبهه لوجه الخطأ . وإن قال صواباً تقبله منه بارتياح . وارتياح الأستاذ لآثار نجابة الطلاب مما يزيدهم جداً فى الطلب . ويشعرهم باستعدادهم

لأن يكونوا فى النوابغ ، وإنما ينبغ الناشىء فى العلم متى سطع فى نفسه مثل هذا الشعور ، قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « تعلموا العلم وعلموه الناس ، وتعلموا له الوقار والسكينة ، وتواضعوا لمن تعلّم منه ولمن علمتموه » ومن حكم الإمام علىّ كرم الله وجهه : « وتواضعوا لمن تتعلمون منه ، ولمن تعلمونه ، ولا تكونوا جبابرة العلماء » .

وأما الرئيس لا يتعظم على المرءوس ، فمن مظاهره لين القول فى مخاطبته . والعناية بقضاء ما يستطيع من حاجته ، والسعى فى دفع الأذى عن جانبه . والرئيس المتواضع يتحامى أن تشهد منه أثراً يدل على أن نفسه تحدثه بأنه أفضل منك ، إلا مظاهر يسيغها عرف أصبح مألوفاً بين الناس . روى الإمام مالك : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه « كان فى فضله وقدمه ينفخ عام الرمادة(١) النار تحت القدور حتى يخرج الدخان من تحت لحيته » . ذكر هذا مالك لهارون الرشيد ، وقال له : إن الناس يرضون منكم بما دون هذا .

ونقرأ فى سيرة مظفر الدين صاحب أربل : أنه بنى أربعة ملاجىء للزمنى والعميان ، وقرر لهم ما يحتاجون إليه فى كل يوم ، وكان يأتيهم بنفسه فى عصر كل اثنين وخميس ، ويدخل إلى كل واحد فى نزله ، ويسأله عن حاجته . فإحسان مظفر الدين إلى هؤلاء رحمة ، ودخوله على كل واحد فى نزله ، وسؤاله عن حاله ، تواضع .

وصفوة المقال أن العزة ترجع إلى أن يقدر الإنسان قيمة نفسه . فلايوردها إلا الموارد التى تليق بها . والكبر يرجع إلى أن يرى نفسه فى منزلة فوق منزلتها ، فيتراءى فى مظاهر يعدها العارفون بكنه حاله اغتراراً وإسرافاً فى التقدير . والضعة ترجع إلى أن يغمط نفسه حقها ، ويضعها فى مواضع أدنى ممـا تستحق أن يضعها . والمتواضع من يعرف قدره ، ولا يأبى أن يرسل نفسه فى وجوه الخير وما يقتضيه حسن المعاشرة .

وإذا كان من يحتفظ بالعزة ، ولا يصرف وجهه عن التواضع ، هو

---

(١) الرمادة : المهلكة ، سمى به عام جدب وقحط وقع فى زمن ابن الخطاب لهلاك الناس فيه والأموال .

الرجل الذى يرجى لنفع الأمة ، ويستطيع أن يخوض فى كل مجتمع ؛ ضافى الكرامة ، أنيس الملتقى ، شديد الثقة بنفسه ، كان حقاً على من يتولى تربية الناشىء أن يتفقده فى كل طور ، حتى إذا رأى فيه خمولا وقلة احتراس من مواقع المهانة ، أيقظ فيه الشعور بالعزة ، والطموح إلى المقامات العلا . وإذا رأى فيه كبراً عاتياً وتيهاً مسرفاً ، خفف من غلوائه ، وساسه بالحكمة حتى يتعلم أن المجد المؤثل لا يقوم إلا على دعائم العزة والتواضع .

* * *

المداراة والمداهنة

خلق الناس للاجتماع لا للعزلة ، وللتعارف لا للتناكر ، وللتعاون لا لينفرد كل واحد بمرافق حياته .

وللإنسان عوارض نفسية كالحب والبغض ، والرضا والغضب ، والاستحسان والاستهجان ، فلو سار على أن يكاشف الناس بكل ما يعرض له من هذه الشئون فى كل وقت وعلى أى حال ، لاختل الاجتماع ، ولم يخلص التعارف ، وانقبضت الأيدى عن التعاون ، فكان من حكمة الله فى خلقه أن هيأ الإنسان لأدب يتحامى به ما يحدث تقاطعاً أو يدعو إلى تخاذل ، ذلك الأدب هو : المداراة .

فالمداراة ترجع إلى حسن اللقاء ، ولين الكلام ، وتجنب ما يشعر ببغض أو غضب أو استنكار إلا فى أحوال يكون الإشعار به خيراً من كتمانه ، فمن المداراة أن يجمعك بالرجل يضمر لك العداوة مجلس ، فتقابله بوجه طلق ، وتقضيه حق التحية ، وترفق به فى الخطاب ، قال سحنون فى وصيته لابنه محمد : « وسلم على عدوك وداره ، فإن رأس الإيمان بالله مداراة الناس» وقال أحد الحكماء من بنى أسد .

وأمنحـــه مـــالى وودى ونصرتى   وإن كان محنى الضلوع على بغضى

ونقرأ فى سيرة الأستاذ محمد بن يوسف السنوسى صاحب المؤلفات المعروفة فى علم الكلام وغيره أنه « كان يفاتح من تكلم فى عرضه بكلام طيب وإعظام ، حتى يعتقد أنه صديقه » . ونقرأ فى سيرة القاضى يحيى ابن أكثم أنه « كان يداعب خصمه وعدوه » .

قد تبلغ المداراة إلى إطفاء العداوة وقلبها إلى صداقة ، قال محمد بن أبى الفضل الهاشمى : قلت لأبى : لم تجلس إلى فلان وقد عرفت عداوته ؟ قال :

أخي ناراً ، وأقدح وداً . وقد يقصد المدارى إلى علاج جرح العداوة ومنعه من أن يتسع ، قال عقال بن شبة : كنت رديف أبى ، فلقيه جرير على بغل ، فحياه أبى وألطفه ، فلما مضى قلت : أبعد ما قال لنا ما قال ! قال : يا بنى أفأوسع جرحى !

ومن المداراة أن يلاقيك ذو لسان أو قلم عرف بنهش الأعراض ولمز الأبرياء ، فتطلق له جبينك وتحييه فى حفاوة ، لعلك تحمى جانبك من قذفه ، أو تجعل لدغاته خفيفة الوقع على عرضك .

نقرأ فى الصحيح عن عروة بن الزبير أن عائشة رضىَ الله عنها أخبرته « أنه استأذن على النبى صلى الله عليه وسلم رجل ، فقال : « ائذنوا له فبئس ابن العشيرة » أو « بئس أخو العشيرة » فلما دخل ألان له الكلام » وفى رواية « فلما جلس تطلق النبى صلى الله عليه وسلم فى وجهه وانبسط إليه ، فقلت : يا رسول الله قلت ما قلت ، ثم ألنت له القول ! فقال : (أى عائشة : إن شر الناس منزلة عند الله من تركه ، أو « ودعه ، الناس اتقاء فحشه(١) ») .

فلقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذا الرجل المعروف بالبذاء ، من قبيل المداراة ، لأنه لم يزد على أن لاقاه بوجه طلق ، أو رفق به فى الخطاب وقد سبق إلى ذهن عائشة رضى الله عنها أن الذى بلغ أن يقال فيه « بئس ابن العشيرة » لا يستحق هذا اللقاء ، ويجب أن يكون نصيبه قسوة الخطاب وعبوسة الجبين ، ولكن نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبعد مدى ، وأناته أطول أمدا ، فهو يريد تعليم الناس كيف يملكون ما فى أنفسهم فلايظهر أثره إلا فى مكان أو زمان يليق فيه إظهاره ، ويريد تعليمهم أدباً من آداب الاجتماع هو رفق الإنسان بمن يقصد إلى زيارته فى منزله ولو كان شره فى الناس فاشياً . على أن إطلاق جبينك لمثل هذا الزائر لا يمنعك من أن تشعره بطريق سائغ أنك غير راض عما يشيعه فى الناس من أذى ، ولا يعوقك عن أن تعالجه بالموعظة الحسنة ، إلا أن يكون شيطاناً ماردا .

ومن المداراة أن تلقى ذا يد تبطش فتمنحه جبيناً طلقاً . وتتجنب فى

---

(١) صحيح الإمام البخارى .

حديثك مالا يكون له أثر في نفسه إلا أنه يثير فيها القصد إلى أذيتك ، وهذا محمل قول أبى الدرداء رضى الله عنه : « إنا لنكشر في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم » وفى رواية « لتقليهم »(١) والكشر : التبسم . وفى هذا الأثر شاهد على أن التبسم فى وجه الظالم اتقاء بأسه ضرب من المداراة ، ولا يتعداها إلى أن يكون مداهنة .

ومن المداراة أن يكون الرجل على حال تقتضى صرفه عن بغية أو عمل ، وتعرف أن فى الاعتذار له بهذا الحال ما يثير فى نفسه ألماً ، فتعرض عن ذكر ما يؤلم ، وتذكر له وجهاً غيره مما هو واقع ، حتى لاتجمع له بين الحرمان من بغيته ، وإيلامه بما لا يحب أن يعتذر له به . أصاب الكسائى وضح (برص) وهو مؤدب أبناء هارون الرشيد ، فكره الرشيد ملازمته لأولاده ، فقال له : كبرت فى السن ، ولسنا نقطع راتبك ، وأمره أن يختار لهم من ينوب عنه ممن يرضاه ، فاختار لهم على بن الحسن المعروف بالأحمر . ولاريب أن اعتذار هارون الرشيد للكسائى بكبر السن أخف على نفسه من أن يقول له : أصيبت بوضح ، ولسنا نقطع راتبك .

فالنفوس المطبوعة على المداراة نفوس أدركت أن الناس خلقوا ليكونوا فى الائتلاف كجسد واحد ، وشأن الأعضاء السليمة أن تكون ملتئمة متماسكة على قدر ما فيها من حياة ، ولا تنكر عضواً ركب معها فى جسد إلا أن يصاب بعلة يعجز الأطباء أن يصفوا له بعد دواء .

فالمداراة يبتغى بها رضا الناس وتأليفهم فى حدود ما ينبغى أن يكون ، فلا يبعدك عنها قضاء بالقسط ، أو إلقاء النصيحة فى رفق ، فلم يخرج عن المداراة أبو حازم حين دخل على سليمان بن عبد الملك وقال له : « إنما أنت سوق فما نفق عندك حمل إليك من خير أو شر ، فاختر أيهما شئت » .

ترجع المداراة إلى ذكاء الشخص نفسه ، فهو الذى يراعى فى مقدارها وطريقتها ما ينبغى أن يكون ، ولأسباب العداوة مدخل فى تفاوت مقادير المداراة واختلاف طرقها ، فإذا ساغ لك أن تبالغ فى مداراة من ينحرف

---

(١) تبغضهم .

عنك لخطأ فى ظن يظنه بك ، أو لعدم ارتياحه لنعمة يسوقها الله إليك ، فلمداراة من يحارب الحق والفضيلة إن صادفك واقتضى الحال مداراته ، حد قريب ، ومسحة من التلطف خفيفة ، وينبغى أن تكون مداراتك لمن ترجو منه العود إلى الرشد ، وتأنس فى فطرته شيئاً من الطيب ، فوق مداراتك لمن شاب على عوج العقل ولؤم الخلق حتى انقطع أملك من أن يصير ذاعقل سليم أو خلق كريم ، ولك مع من فيه بقية من العقل ضرب من المداراة لا تسلكه من بعد مداراتك له أثر الخوف من سلاطة لسانه ، فيزداد فحشاً ، ليزداد الناس رهبة ، فيزيدوه خضوعاً .

المداراة خصلة كريمة ، يحكمها الأذكياء ، ولا يتعدى حدودها الفضلاء.

أما المداهنة فهى إظهار الرضا بما يصدر من الظالم أو الفاسق من قول باطل أو عمل مكروه . وأصلها الدهان : وهو الذى يظهر على الشيء ويستر باطنه .

تضم المداهنة تحت جناحيها الكذب . وإخلاف الوعد ، أما الكذب فلأن المداهن يصف الرجل بغير ما يعرفه منه ، ومن دخل الكذب من باب سهل عليه أن يأتيه من أبواب متفرقة . وأما إخلاف الوعد فلأن المداهن يقصد إلى إرضاء صاحبه فى الحال ، فلا يبالى أن يعده بشيء وهو عازم على أن لا يصدق فى وعده ، وليس من الصعب على المداهن وقد مرد على الكذب أن يخلف الوعد ويختلق لإخلافه عذراً ، وهذا الاختلاق لا يرتكبه الراسخ فى كرم الأخلاق وإن كلفه الوفاء بالوعد أمراً جللا . فالمداهن لا يتريث فى أن يعد لأنه لا يتألم من أن يخلف ، ولا يصعب عليه أن يصور من غير الواقع عذراً ، والراسخ فى الفضل لا يعد إلا عند العزم على أن يصدق فيما وعد ، فإن وقف أمامه عائق كشف لك عن وجهه الحق ، فإذا لم يساعده الحال على إنجاز الوعد لم يفته الصدق فيما يلقيه إليك من عذر .

ومن المداهنة أن تثنى على الرجل فى وجهه فإذا انصرفت عنه أطلقت لسانك فى ذمه ، قيل لابن عمر رضى الله عنه : « إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول ، فإذا خرجنا قلنا غيره » فقال : « كنا نعد ذلك نفاقاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وقد قرر أهل العلم أن الرجل إن كان مستغنياً عن الدخول على من يضطره الحال إلى الثناء عليه ، فدخل وأثنى بغير ما يعلم ، كان نفاقاً ؛ أما إن اضطر إلى الدخول على ذى قوة لا يخلص من بأسه إلا أن يسمعه شيئاً من الاطراء ، فهو فى سعة من أن يطريه بمقدار ما يخلص من بأسه ، ولا تلحقه هذه الحالة الشاذة بزمرة المداهنين . انهزم جيش السلطان فرج بن برقوق أمام جيش الطاغية تيمورلنك ، ووقع طائفة من العلماء فى أسر الطاغية ، ومن هذه الطائفة الفيلسوف ابن خلدون ، فكان من هذا الفيلسوف أن تقدم إلى تيمورلنك وقال له فيما حادثه به : « إنى ألفت كتاباً فى تاريخ العالم ، وحليته بذكرك ، وما أسفى إلا على هذا الكتاب الذى أنفقت فيه عمرى ، وقد تركته بمصر ، وإن عمرى الماضى ذهب ضياعاً حيث لم يكن فى خدمتك ، وتحت ظل دولتك ، والآن أذهب فآتى بهذا الكتاب وأرجع سريعاً حتى أموت فى خدمتك » فأطلق سبيله ، فقدم مصر ولم يعد إليه .

ومن أسوأ ما يفعل المداهن أن يلاقى الرجلين بينهما عداوة فيظهر لكل واحد منهما الرضا عن معاداته لصاحبه ، ويوافقه على دعوى أنه المحق وصاحبه هو المبطل ، وفى مثل هذا ورد قوله صلى الله عليه وسلم : « تجد من شرار الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه(١) » وقال حكيم من بنى أسد :

ولست بذى وجهين فيمن عرفته ... ولا البخل فاعلم من سمائى ولا أرضى

يتخذ الرجل وجهين متى كان يطمح إلى ما فى أيدى الناس من متاع ، أو كان يطمع فى إرضاء طوائف على تباعد ما بينهم من نزعات ، وعلى شدة ما بينهم من اختلاف . والعبور إلى النفع على جسر من المداهنة يحرم صاحبه من أعز متاع هو الصدق ، بعد أن يحرمه من أطيب لذة هى ارتياح الضمير . ومن كان حريصاً على أن يكون صديق الطوائف المتباينة ، فإن الطيب منهم يأبى أن يلوث صدره بصداقة من يتملق الخبيث .

المداهنون يجعلون ألسنتهم طوع بغية الوجيه ، ويعجلون إلى قول

---

(١) صحيح الإمام البخارى .

ما يشتهى أن يقولوا ، فيمدحون ما يراه حسناً ، ويذمون ما يعده سيئاً ، أما الذين يعرفون ما فى المداهنة من شر ، ويحزنهم أن يظهر الشر على يد من فى استطاعته الخير ، فيربأون بألسنتهم أن تساير فى غير حق ، ويؤثرون نصح الوجيه على أن يزينوا له ما ليس بزين . ابتنى الخليفة عبد الرحمن الناصر « القبيبة » بقصر الزهراء ، واتخذ لسطحها قراميد من ذهب وفضة ، وجلس فيها إثر إتمامها ، وقال لمن حضر مفتخراً : « هل رأيتم أو سمعتم من فعل هذا من قبلى » ؟ فقالوا : إنك لأوحد فى شأنك كله ، ولكن القاضى منذر ابن سعد وعظه وعظاً بليغاً ، وتلا عليه قوله تعالى : (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون) فأطرق الناصر ملياً ، ثم أقبل على منذر ، وقال له : جزاك الله يا قاضى عنا وعن نفسك خيراً ، وعن الدين والمسلمين أجل جزائه ، فالذى قلت هو الحق ، وقام من مجلسه ونقض سقف « القبيبة » وأعاد قرمدها تراباً .

والوجيه الحازم يكره المداهنة ، ويملأ عينه باحترام من يوقظه لوجه الخير إذا كان فى غفلة منه ، ولوجه الشر إذا اشتبه عليه ، قال طاهر ابن الحسين فى الكتاب الذى بعث به لابنه عبد الله بن طاهر : « وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك : من إذا رأى عيباً لم تمنعه هيبتك من إنهاء ذلك إليك فى ستر ، وإعلامك بما فيه من النقص ، فإن أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك لك » .

وقع الوزير هاشم بن عبد العزيز فى يد العدو أسيراً ، وذكره الأمير محمد بن عبد الرحمن الأموى فى جماعة من رجال دولته مستقصراً له ناسباً له إلى الطيش والعجلة والاستبداد برأيه ، فلم ينطق أحد ممن كان فى المجلس بالاعتذار عنه ما عدا الوزير الوليد عبد الرحمن بن غانم ، فإنه اعتذر عن الوزير هاشم ورد على السلطان فى مسلك سائغ ، ومما قال فى الاعتذار عن هاشم : « قد استعمل جهده . واستفرغ نصحه ، وقضى حق الإقدام ، ولم يك ملاك النصر بيده ، فخذله من وثق به ، ونكل عنه من كان معه » ثم قال : « فإنه لا طريق للملام عليه ، وليس عليه ما جنته الحرب الغشوم ، وأيضاً

فإنه ما قصد أن يجود بنفسه إلا رضا للأمير ، واجتنابا لسخطه ، فإذا كان ما اعتمد فيه الرضا جالباً التقصير ، فذلك معدود فى سوء الحظ » . فأعجب الأمير بكلامه ، وأقصر بعد عن تفنيد هاشم . وسعى فى تخليصه من الأسر .

ومن عظماء الرجال من يبغض المداهنة ، ولا يقبل من جليس مبالغة فى مدح أو مسايرة . ومن المثل الكاملة لهؤلاء العظماء عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، فإنا نقرأ فى سيرته أنه قال لجرير حين دخل عليه بقصيدة يهنئه فيها بالخلافة : « اتق الله يا جرير ولا تقل إلا حقاً » . وقال له رجل مرة : « طاعتكم مفروضة » . فقال له : « كذبت ! لا طاعة لنا عليكم إلا فى طاعة الله » .

والأجلاء من علماء الدين الذين كانوا يداخلون رجال السياسة فينعقد بينهما التئام أو صداقة ، كانوا يأخذون بسنة المداراة ، ولم يكونوا فيما نقرأ من سيرتهم يتلطخون برجس المداهنة ، فهذا أبو الوليد الباجى كان يصاحب رجال السياسة ، ويختارونه للسفارة بينهم ، وهو الذى قال لمن ذكره بمداخلة السلطان : لولا السلطان لنقلنى الذر من الظل إلى الشمس . وتاريخه يشهد بأن قوة إيمانه كانت تحرسه من أن يقع فى حمأ المداهنة . كان مرة فى انتظار أحمد بن هود صاحب سرقسطه بالأندلس ، فجالسه ابنه الملقب بالمؤتمن ، وأخذ المؤتمن يجاذب الباجى الحديث فى كتب الفلسفة حتى قال له : « هل قرأت أدب النفس لأفلاطون ؟ » فقال له الباجى : « قرأت أدب النفس لمحمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم » . يعنى شريعته من قرآن وسنة . والباجى هو الذى رجع من الشرق إلى الأندلس فوجد أمراءها فى تقاطع ، والعدو يتحفز لوضع يده على رقابهم ، فقام يتردد على مجالسهم ، ويطرق بالنصيحة آذانهم . ويسعى لجمع كلمتهم ، فكانوا يجلونه فى الظاهر ، ويستبردون نزعته فى الباطن ، وأقل ما يجتنيه الداعى إلى الإصلاح براءة ذمته ، وأمنه عند الوقوف بين يدى ربه .

فالنفوس التى تنحط فى المداهنة انحطاط الماء من صبب ، نفوس لم تشب فى مهد الأدب السنى ، ولم تهدها المدرسة إلى الصراط السوى ، وما شاعت المداهنة فى جماعة إلا تقلصت الكرامة من ديارهم ، وكانت

الاستكانة شعارهم ، ومن ضاعت كرامتهم ، و داخلت الاستكانة نفوسهم ، جالت أيدى البغاة فى حقوقهم ، وكان الموت أقرب إليهم من حبال أوردتهم.

فمن واجب أساتذة التربية ودعاة الإصلاح ، أن يعنوا بجهاد هذا الخلق المشئوم حتى ينفوه من أرضنا ، وتكون أوطاننا ومدارسنا منابت نشء يميزون المداهنة من المداراة ، فيخاطبون الناس فى رقة أدب وشجاعة ، ويحترمون من لا يلوث أسماعهم بالملق ، ولا يكتمهم الحقائق متى اتسع المقام لأن يحدثهم فى صراحة .

• • •

الرفق بالحيوان

أقام الإسلام هدايته على أساس الرحمة المحفوفة بالحكمة ، والرحمة تبعث النفوس مبعث الرفق والإحسان ، والحكمة تقف بالرحمة عند حدود لو تجاوزتها انقلبت إلى ضعف ورعونة ، وعلى هذا الطريق الوسط جاءت الأحكام والآداب الخاصة بالتصرف فى الحيوان .

أذن الإسلام فى أكل الطيب من الحيوان ، ونبه بهذا الإذن على خطأ أولئك الذين يقبضون أيديهم عن تذكيته أو أكله بدعوى الرأفة أو الزهد ، وأباح استعماله فى نحو الركوب والحراثة وحمل الأثقال . وقد امتن القرآن الكريم بهذه الضروب من الاستمتاع المألوف بين العقلاء ، فقال تعالى : **(والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرءوف رحيم)** .

وقال تعالى : **(وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين)** .

امتن الله تعالى فى كتابه العزيز بما يتخذ من أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها وجلودها من الملابس والفرش والبيوت ، وبما يتغذى به من ألبانها ولحومها ، وبما هيئت له من حمل الأثقال ، وهذه المنافع من أهم ما تنتظم به حياة الإنسان .

وقال تعالى : **(والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق مالا تعلمون)** . فذكر فى هذه الآية أهم ما خلقت له الخيل والبغال والحمير من المنافع وهو الركوب ، وفى الركوب راحة البدن ، وسرعة الانتقال من مكان إلى مكان ، والراحة من متممات الصحة ، وسرعة الانتقال حفظ للوقت من أن يذهب فى غير جدوى .

امتن الله تعالى بالأنعام والخيل وما عطف عليها ، ونبه على ما فيها من جمال وزينة ، وفى هذا ما يرشد إلى أن يكون الاستمتاع بها فى رفق ورعاية ، فإن إرهاقها أو قلة القيام على ما تستمد منه حياتها ، يجعل نفعها ضئيلا . ويذهب بما فيها من جمال وزينة .

كان للعرب قبل الإسلام عادات تحرمهم من الانتفاع ببعض أفراد الحيوان وفيها قوة على أن ينتفعوا بها ، ومن هذا القبيل الناقة المسماة بالسائبة ، وهى الناقة التى يقول فيها الرجل : إذا قدمت من سفرى ، أو برئت من مرضى فهى سائبة ، ويحرم ركوبها ودرها ؛ والوصيلة : وهى أن تلد الشاة ذكراً وأنثى فيقولون : وصلت أخاها ، فلا يذبح من أجلها الذكر ؛ والجمل المسمى بالحام : وهو الفحل الذى ينتج من صلبه عشرة أبطن ، فكانوا يقولون : قد حمى ظهره ، ويمتنعون من ركوبه والحمل عليه ، والبحيرة : وهى الناقة التى تنتج خمسة أبطن آخرها ذكر ، فإنهم كانوا يبحرون أذنها أى يشقونها ، ثم يحرمون ركوبها ودرها .

ثم جاء الإسلام فلم ير من الحكمة تعطيل الحيوان وهو صالح لأن ينتفع منه ، فنهى عن هذا التعطيل الناشىء عن سفاهة الرأى ، فقال تعالى : **(ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون) .**

وكان للعرب عادات يسومون فيها الحيوان سوء العذاب . ومن هذه العادات ما يفعلونه لموت كريم القوم ، إذ يعقلون ناقته أو بعيره عند القبر ويتركونها فى حفرة لا تطعم ولا تسقى حتى تموت . ومن هذا الباب شقهم لآذان الأنعام كما قصصنا عليك عادتهم فى البحيرة ، وهو ما أشار القرآن إلى قبحه ، إذ جعله مما يأمر به الشيطان . فقال تعالى : **(وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ، ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) .**

مازال الحيوان كسائر الأمتعة تحت يد مالكه يفعل فيه كيف يشاء ، وإذا ناله رفق فمن ناحية عاطفة الإنسان على ما يملك لتطول مدة انتفاعه به ، ولكن الإسلام أرشد إلى أن الحيوان فى نفسه حقيق بالعطف ، فغرس له

في القلوب عطفاً عاماً ، واستدعى له الرحمة حتى من قوم لا ينتفعون أو لا يرجون أن ينتفعوا به في حال ، وجعل الرفق به من قبيل الحسنات التي تذهب السيئات وتنال بها المثوبة عند الله .

أذن الإسلام في قتل الحيوان المؤذى كالكلب العقور والفأرة . وأمر بالإحسان في القتل ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة » . وأذن في ذبح الحيوان للاستمتاع بالطيب من لحومه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » .

قد يخطر على البال أنه متى أذن في قتل الحيوان أو ذبحه فللإنسان أن يتخذ لإزهاق روحه ما شاء من الطرق أو الوسائل ، فقصد الشارع الحكيم إلى دفع هذا الخاطر وإرشاد الناس إلى اتخاذ أحسن الطرق في القتل أو الذبح فلا يجوز إحراق ما أذن في قتله أو التمثيل به ، ويجب إرهاف آلة الذبح حتى لا يلاقى الحيوان قبل إزهاق روحه آلاماً . وقد ذكر أهل العلم آداباً اقتبسوها مما جاءت به الشريعة من أصول الرفق بالحيوان ، فقال عمر رضي الله عنه : « من الإحسان للذبيحة أن لا تجر الذبيحة إلى من يذبحها » . وقال ربيعة : « من الإحسان أن لا تذبح ذبيحة وأخرى تنظر إليها » . وقالوا : يستحب للذابح أن لا يحد شفرته بحضرة الذبيحة ، وأن لا يصرعها بعنف .

أباحت الشريعة صيد الحيوان بنحو الجوارح والنبال والشباك ، لينتفع منه الإنسان بما يحل الانتفاع به ، ومنعت من أن ينصب الحيوان غرضاً ليرمى بنحو النبال . ومما نقرؤه في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « لا تتخذوا شيئاً فيه الروح(١) غرضاً » . وفي صحيح الإمام مسلم : « مر ابن عمر بفتيان من قريش قد نصبوا طيراً وهم يرمونه وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم ، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا ، فقال ابن عمر : من فعل هذا ؟ لعن الله من فعل هذا ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً » .

---

(١) صحيح الإمام مسلم .

ووردت أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فى فضل سقى الحيوان وإطعامه ، وعدهما من عمل الخير الذى تنال به الزلفى عند الله ، قال صلى الله عيه وسلم : « ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة »(١) .

وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً ، فنزل فيها ، فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ، فسقى الكلب ، فشكره الله فغفر له ، قالوا : يا رسول الله : وإن لنا فى البهائم أجراً ! فقال : فى كل ذات كبد رطبة أجر(٢) » .

وانظر إلى قولهم : « وإن لنا فى البهائم أجراً » تراهم كيف كانوا يستهينون بأمر الحيوان ولا يعتقدون أن الإحسان إليه يبلغ مبلغ الإحسان إلى الإنسان فيستحقون عليه أجراً ، وكيف يكون حال حيوان وقع تحت يد من لا يعتقد أنه سينال بالإحسان إليه ثواباً ، ويلقى من أجل القسوة عليه عذاباً !

وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « عذبت امرأة فى هرة لم تطعمها ولم تسقها ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض(٣)» . والوعيد بعقوبة النار على الأمر يدل على أنه من المحظور حظراً لا هوادة فيه ، ومن ذا يخطر على باله قبل هذا أن يكون لحيوان كالهرة حرمة تبلغ فى الخطر أن يعاقب من ينتهكها بعذاب النار ؟

وقرر الفقهاء وجوب القيام على سقى الدابة وإطعامها ، بأن يعلفها أو يرعاها بنفسه ، أو يكل لغيره رعيها ولو بأجر ، ولم يختلفوا فى وجوب ذلك عليه ، وصرح طائفة منهم بأنه يجبر عليه قضاء . فإن لم يفعل بيعت الدابة ، ولا تترك تحت يده تقاسى عذاب الجوع . ومما نقرؤه فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مر ببعير قد لحق ظهره ببطنه فقال :

---

(١) صحيح الإمام البخارى .
(٢) صحيح البخارى .
(٣) البخارى ومسلم .

« اتقوا الله فى هذه البهائم المعجمة(١)، فاركبوها صالحة وكلوها صالحة(٢)» .

وتحرم الشريعة الإساءة إلى الحيوان بتحميله من الأثقال مالا يطيق ، وكان الصحابة رضى الله عنهم يعرفون أن من حمل دابة مالا تطيق حوسب عليه يوم القيامة ، يروى عن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه قال لبعير له عند الموت : يأيها البعير لا تخاصمنى إلى ربك ، فإنى لم أكن أحملك فوق طاقتك . وقال الغزالى فى الحديث عن الرفق بالدابة وعدم تحميلها مالا تطيق : « والمحمل(٣) خارج عن حد طاقتها ، والنوم عليها يؤذيها ويثقل عليها» وقال : « كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلا غفوة عن قعود » .

وإنما يجوز الحمل على ما يطيق الحمل كالإبل والبغال والحمير ، ولا يجوز الحمل على ما لم يخلق للحمل كالبقر ، قال ابن العربى : لا خلاف فى البقر أنه لا يجوز أن يحمل عليها . وذهب كثير من أهل العلم إلى المنع من ركوبها نظراً إلى أنها لا تقوى على الركوب . وإنما ينتفع بها فيما تطيقه من نحو إثارة الأرض وسقى الحرث .

ومن الرفق بالدابة أن لا يركبها ثلاثة أشخاص يكون عبئهم عليها ثقيلا ، أخرج ابن أبى شيبة عن زاذان أنه رأى ثلاثة على بغل ، فقال : لينزل أحدكم فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الثالث . وأخرج الطبرى عن على رضى الله عنه أنه قال : « إذا رأيتم ثلاثة على دابة فارجموهم حتى ينزل أحدهم » . ويحمل هذه الآثار على حال ما إذا كان ركوب الثلاثة يرهق الدابة ، فإن كان يطيق ذلك كالناقة أو البغلة يركبها رجل وصبيان مثلا ، فليس به من بأس ، ولا سيما ركوبها فى مسافة قصيرة ، وهذا ما كان من النبى صلى الله عليه وسلم حين قدم مكة راكباً على بغلته فاستقبله أغيلمة من بنى عبد المطلب ، فحمل واحداً بين يديه ، والآخر خلفه .

ومن الرفق بالحيوان تجنب أذيته فى بدنه بنحو الضرب الأليم ، والإشعار

---

(١) التى لا تقدر على النطق .

(٢) سنن أبى داود .

(٣) المحمل : شقان على البعير يحمل فيهما المعيلان . ويقال أول من اتخذه الحجاج بن يوسف الثقفى .

الوارد فى بدن الهدى ليس إلا جرحاً فى سنام البعير بنحو المبضع ، ليكون علامة أنها هدى ، وأما طعن البدنة بنحو السنان حتى يتجاوز الجلد إلى اللحم فإنما يرتكبه الجهال ، ولا يختلف العلماء فى تحريمه .

وورد النهى عن خصاء البهائم كما جاء من حديث ابن عمر : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يخصى الإبل والبقر والغنم والخيل(١) » وبهذا احتج فريق من أهل العلم على أنه لا يحل خصاء شىء من الفحول ، وأفتى فريق بجوازه متى دعت إليه مصلحة كأن يخاف عضاضه ، وإذا وجد طريق لمثل هذه المصلحة من غير الخصاء لم يبق موضع للخلاف ، لأنه تعذيب ، وقد نهى الشارع عن تعذيب الحيوان .

ومن الرفق بالدابة أن لا يتابع السير عليها متابعة ترهقها تعباً ، قال صلى الله عليه وسلم : « إذا سافرتم فى الخصب فأعطوا الإبل حظاً من الأرض »(٢) وفى رواية : « ولا تعدوا المنازل » .

وورد فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يبقين فى رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة(٣) إلا قطعت » . فذهب بعض أهل العلم فى فهم الحديث مذهب الرحمة بالحيوان وقال : إنما أمر بقطع القلائد من أعناق الإبل مخافة اختناق الدابة بها عند شدة الركض ، ولأنها تضيق عليها نفسها ورعيها ، وكراهة أن تتعلق بشجرة فتخنقها أو تعوقها عن المضى فى سيرها .

ومن المحظور وقوف الراكب على الدابة وقوفاً يؤلمها ، وقد ورد فى النهى عن هذا الصنيع حديث : « إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر فإن الله إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس(٤) » . وذكر الغزالى أن أهل الورع من السلف كانوا لا يقفون على الدواب الوقوف الطويل .

---

(١) شرح معانى الآثار للطحاوى .

(٢) مسلم وأبو داود .

(٣) أمر بقطع ما تقلد به من وتر القوس ثم أمر بقطع كل قلادة من أى صنف كانت

(٤) رواه أبو داود .

ومن الفنون التي يسلكها قساة القلوب في تعذيب الحيوان تهييج بعض الحيوان على بعض ، كما يفعل بين الكباش والديوك وغيرها . وهو من اللهو الذي حرمته الشريعة لما فيه من إيلام الحيوان وإتعابه في غير فائدة . وفي سنن أبي داود والترمذي : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التحريش بين البهائم » والتحريش بينها إغراء بعضها على بعض .

وإن شئت أن تزيد يقيناً بما جاء به الإسلام من الرأفة بالحيوان فانظر إلى ما رواه أبو داود عن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه إذ قال : « كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فانطلق لحاجته فرأينا حمرة(١) معها فرخان فأخذنا فرخيها ، فجاءت الحمرة فجعلت(٢) تعرش ، فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها » ورأى قرية نمل قد أحرقناها ، فقال : من أحرق هذه ؟ قلنا : نحن ، قال : « إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار(٣) » .

وقد نص علماؤنا على حرمة تمكين الصبي من التلهي بالطير على وجه فيه إيلام له ، وأما ما ورد في الحديث من أن ابناً فطيماً لأم سليم كان يلعب بنغر(٤) فمحمول على أن ذلك التلهي لم يكن بحال تعذيب ، كأن يكون الطير في قفص أو نحوه ، أو يكون التلهي بمحضر أحد أبويه وهما يعلمان ما جاءت به الشريعة من النهي عن تعذيب الحيوان .

ونهى الشارع عن إيذاء الحيوان في وجهه نهياً خاصاً . روى أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (رأى حماراً موسوماً على وجهه . فقال لعن الله من فعل هذا(٥)) وقال المقداد بن معد يكرب : (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن لطم خدود الدواب) .

أما شتم الحيوان ولعنه ، فأدنى ما يقال فيه إنه لغو من القول لا يصدر

---

(١) ضرب من الطير ، وقيل : الحمرة : القبرة .
(٢) ترتفع وتظل بجناحيها .
(٣) أبو داود .
(٤) اسم لنوع من الطير . وقد بلغ هذا الخبر النبي صلى الله عليه وسلم ولم ينقل إنكاره له .
(٥) رواه الطبراني والبزار .

إلا ممن شأنه الرمى بألفاظ الشتم واللعن دون تدبر فى معناها ولا قصد إلى موضعها ، بل وردت الأحاديث فى الزجر عن لعن الحيوان بطريقة بالغة ، فإنا نقرأ فى صحيح مسلم « أن امرأة كانت على ناقة فضجرت منها فلعنتها ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، فقال : « خذوا ما عليها وأعروها فإنها ملعونة » . وإنما أمر بإعراء الناقة مما عليها وإرسالها عقوبة لصاحبتها ، وفى رواية « لا تصاحبنا ناقة عليها لعنة » . وفى هذا الأسلوب من النهى مبالغة فى الزجر عن لعن الحيوان ، وكذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم يعمد إلى الشيء الذى قد يظنه الناس هيناً فيزجر عنه بطريق أشد حتى ينصرفوا عنه جملة .

ومن فوائد النهى عن لعن الحيوان تطهير الألسنة من التعود على قول السوء ومتى ارتدعت النفوس عن لعن مالا يفهم للعن معنى كان ارتداعها عن لعن من تثور ثائرة غضبه أو غضب بعض أوليائه إذا لعن ، أقرب وأولى .

هذه شذرات مما أوصى به الإسلام من الرفق بالحيوان ، وإن شئت أن تعلم كيف كان أثرها فى نفوس من يقتدون بآدابه فى كل حال ، فإليك مثلا من آداب عدى بن حاتم أحد أفاضل الصحابة هو أنه كان يفت الخبز للنمل . ويقول : إنهن جارات ولهن حق(١) ومن أدب الشيخ أبى إسحاق الشيرازى : أنه كان يمشى فى طريق يرافقه فيه بعض أصحابه ، فعرض لهما كلب فزجره رفيق الأستاذ ، فنهاه الأستاذ ، وقال له : أما علمت أن الطريق بينى وبينه مشترك !

فقد رأيت كيف حاربت الشريعة السمحة طبيعة القسوة على الحيوان . وقررت للتصرف فيه أحكاماً مبنية على قاعدة الرفق بكل ذى كبد رطبة . ولعلك تنتبه مما تلوناه عليك أن الإسلام قد وضع لجمعيات الرفق بالحيوان أساساً يقيمون عليه دعوتهم ، وما من نفس أو جمعية تدعو إلى ناحية من الخير إلا وجدت فى هذه الشريعة ما يؤيد دعوتها ، ويهديها سبيل الرشد إذا تشابهت السبل عليها .

---

(١) تهذيب الأسماء للنووى .

ومما تضطرم له القلوب أسفاً أن تؤسس جمعيات الرفق بالحيوان فى بلاد أوربا منذ نحو مائة سنة ، ويرتفع صوت الدعوة إلى الرحمة بالحيوان أكثر مما يرتفع فى بلاد الإسلام ، حتى ظن كثير من الأحداث والعامة الذين يقيسون الأديان بسير المنتمين إليها أن الإسلام لم يوجه عنايته إلى واجب الشفقة على الحيوان ، وأن أوربا هى صاحبة الفضل فى الدعوة إلى هذه الشفقة !

أنشئت فى إنجلترا جمعية الرفق بالحيوان الملكية سنة ١٨٢٤ ، ومما يثير الخجل أن يكون لتلك الجمعية فرع فى بلد إسلامى كالقاهرة ولا يقوم بمثل عملها جماعة من المسلمين ، وقد أيقظ الدين الحنيف فى قلوب أسلافهم عاطفة الرحمة بالحيوان منذ ١٣٥٠ سنة .

وإذا احتاج الإنسان إلى حماة وهو يملك من البيان ما يعبر به عن حاجته ويدافع به عن حقه ، كان الحيوان الأعجم أشد احتياجاً إلى من يستجدى له الرحمة ، ويدفع عنه البلاء بيده إن استطاع ، أو بلسانه .

هذا والأمل معقود على أن تؤلف فى أوطاننا جمعيات لمراقبة تصرف الناس فى الحيوان ، حتى إذا رأت صاحب الحيوان يرهقه بحمل الأثقال أو يناله بأذى ، سعت بما تستطيع من طرق النهى عن المنكر إلى إزالة ما تشهده من الإرهاق أو الأذى ، فيكون لها حمد الناس فى الدنيا ، وثواب الله فى الآخرة .

محاكاة المسلمين للأجانب

قد يوجد فى أفراد البشر من يولد فى بيئة عفاف وحكمة ، وتتولاه يد التربية الحازمة بالتنبيه لمواقع الهنات ، فتكون سيرته كالسبيكة الخالصة لا يجد فيها الناقد مغمزاً . وليس على وجه المعمورة اليوم أمة استوفت خصال الكمال وبلغت فى رقيها المدنى أن يفتح الناقد الألمعى فيها عينه فلا يرى إلا أعمالا مرضية . أو عادات مقبولة . فإذا وجد فى الأفراد من يفضل ببراءته من العيوب جملة ، فإن الأمم إنما تفضل بغلبة خيرها على شرها ، ورجحان محامدها على مذامها ، وإذا وجد فى الأفراد من يأذن لك أساتذة التربية فى أن تقتدى بسيرته على الاطلاق ، فليس فى الأمم أمة يقول الرجل الحكيم لشعبه الناهض خض خوضها فى كل واد ، وشابهها مشابهة الغراب للغراب .

هذه حقيقة قد تغيب عن أذهان فئة من الشعوب الآخذة فى النهوض ، فإذا رأوا أمة ذات معارف وسطوة ، تهافتوا على محاكاتها فى غير تدبر واحتراس ، وربما سبقوا إلى ما يعد من سقط متاعها ومستهجن عاداتها ، فصبوا هممهم فى تقليدها فيه ، فزادوا شعبهم وهناً على وهن ، وكانوا كالعثرات تعترضه فتعوقه عن السير . أو تجعل سيره فى الأقل بطيئاً .

ومتى كثر فى الشعب أمثال هؤلاء الذين لا يميزون فى محاكاتهم السيئة من الحسنة . فقد الشعب هدايته الدينية . وتجرد من مميزاته القومية ، ولا يفلح شعب نكث يده من الدين الحق . ولا يعتز شعب نظر إلى قوميته بازدراء .

وقد تعرض ابن خلدون فى مقدمته لهذه المحاكاة من حيث إنها طبيعة اجتماعية فقال « إن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده ، والسبب فى ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه ، إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه ، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعى ، إنما هو لكمال الغالب »

ثم قال : « ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب فى ملبسه ومركبه وسلاحه ، فى اتخاذها وأشكالها ، بل فى سائر أحواله » ثم قال : « وانظر إلى كل قطر من الأقطار كيف يغلب على أهله زى الحامية وجند السلطان فى الأكثر ، لأنهم الغالبون لهم ، حتى إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها ، يسرى إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير ، كما هو فى الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة ، فإنك تجدهم يتشبهون بهم فى ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم ، حتى فى رسم التماثيل فى الجدران والمصانع والبيوت ، حتى لقد يشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء ، والأمر لله »

وهذا الذى قرره ابن خلدون طبيعة من طبائع الأمم الضعيفة حيث توجد بجوار أمة قوية ، ولكنها طبيعة عرفت علتها . فيمكن لزعماء الأمة الضعيفة أن يعالجوا العلة ، فتسلم الأمة من هذه الطبيعة . ويمكنها أن تتحفظ من الاقتداء بالغالب إلا فيما كان من وسائل الرقى والسيادة . يذكر ابن خلدون أن العلة فى هذا التقليد إما ما وقر فى صدر الأمة من تعظيم الغالب ، وإما ماتغالط به من أن غلب الغالب ليس بعصبية ولا قوة بأس ، وإنما هو بما انتحله من المذاهب والعوائد ، وكلتا العلتين إنما تتفشى فى الأمة التى حبلها على عاتقها ، تمشى على غير بصيرة ، ولا تقصد إلى غاية نبيلة . فإذا قيض الله للأمة المغلوبة رجالا يعالجون ما عساه أن يطغى فى صدرها من تعظيم شأن الغالب ، أو يوقظونها إلى ما تغالط به من أن غلب الغالب بما انتحله من المذاهب والعوائد ، أنقذوها من عماية التقليد الذى تتجرد به من الآداب الدينية والمميزات القومية . والناشىء الذى يدرس تاريخ الإسلام ، وما كان لرجاله من مجد شامخ وسلطان كريم . لا يكبر فى عينه سلطان الغالب إلى أن ينحدر فى التشبه به فى كل حال .

يذكر الكتاب والخطباء تقليد المسلمين للأجانب . ومنهم المسرفون فى الدعوة إلى التقليد ، ومنهم الراشد . وإليك كلمة تعرض عليك الرأى الذى يقف عند حدود الدين ، ويرعى حق القومية . ويقدر المصالح . ويحرص على أن لا يفوت الأمة منها مثقال ذرة :

محاكاة المسلمين الأجانب تظهر فى خمسة وجوه :

(أحدها) محاكاتهم فيما يشتمل على مصلحة دنيوية . ولا يخالف حكماً شرعياً أو أدباً دينياً ، وهذا مما تأذن الشريعة فى الأخذ به ، ويتأكد العمل به على قدر ما فيه من مصلحة ، وليس من المعقول أن تنهى الشريعة عما فيه خير لمجرد أن قوماً من غير المسلمين سبقوا إليه . ويدخل فى هذا مجاراتهم فى العلوم والصنائع ، ووسائل الدفاع ، والمرافق التى يخف بها جانب عظيم من عناء هذه الحياة . ومن شواهد هذا ما فعله النبى صلى الله عليه وسلم من حفر الخندق حول المدينة المنورة ، وقد أشار به سلمان الفارسى ، وهو من مكايد الفرس فى حروبها .

وفى أوربا اليوم نظم إدارية تزنها بقاعدة رعاية المصالح ، فنرى إجراءها فى بلادنا من قبيل إصلاح الإدارة . كنت أرسلت من برلين برقية لصديق لى فى جنيف ، فجاءنى خطاب من إدارة البرقيات يقول لى : لم نهتد إلى معرفة المبعوث إليه بالبرقية ، وبعد ساعات وصلتنى برقية من صديقى جواباً عن البرقية التى بعثت بها إليه ، وبعد ساعات جاءنى خطاب من تلك الإدارة تقول فيه : اهتدينا إلى معرفة صاحبك بعد وأبلغناه البرقية . فمن ذا ينكر فائدة مجاراة الأجانب فى مثل هذه النظم المريحة للنفوس ! وأذكر من أبيات للأستاذ محمد بن عبد الكريم المقيلى فى الرد على من أنكر تعلم علم المنطق قوله :

خذ العلم حتى من كفور ولا تقم   دليلا على شىء بمذهب أهــله

ولا أسوق فى هذا الوجه محاكاتهم فى بعض أخلاق انتظمت بها مدنيتهم ، وارتفعت بها على كثير من البلاد رايتهم . كالصبر على المكاره ، والإقدام على العظائم ، وقوة رابطة الاتحاد والتعاون بين أفرادهم وجماعاتهم ، فإن الإسلام قد أرشد إلى جميع الأخلاق التى تزدهر بها المدنية ، وتستحكم بها عرا السيادة ، فإذا ظهر المسلمون بخلق عظيم ، فإنما يقتبسونه من حكمة دينهم وسيرة عظمائهم .

(ثانيها) محاكاتهم فى شىء من شعائر دينهم ، وهذه المحاكاة إن كانت عن رضا دلت على نبذ الإسلام ، ولا سيما محاكاة تقع منه مرة بعد أخرى ،

فإن قامت قرينة على أنه يقصد الاستهزاء بمن يقلدهم ، فهى سفاهة وعصيان ، فالذين يرسلون أبناءهم لمدارس أجنبية تحتم على كل تلميذ الاشتراك فى القيام بشعائرها الدينية ، إنما يلقون بأفلاذ أكبادهم فى حفرة من النار .

وقد وصل ببعضهم الشغف بالانحطاط فى هوى الأجانب . والانغماس فى التشبه بهم ، أن اقترح فى غير خجل قلب هيئة المساجد إلى هيئة كنائس ، وتغيير الصلوات ذات القيام والركوع والسجود إلى حال الصلوات التى تؤدى فى الكنائس ، وهذا الاقتراح شاهد على أن فى الناس من يحمل تحت ناصيته جبيناً هو فى حاجة إلى أن توضع فيه قطرة من الحياء .

(ثالثها) محاكاتهم فى شىء لم يكن من شعائر دينهم . ولكنه مما نهى عنه الإسلام على وجه الحرمة ، كتقليدهم فى اختلاط الرجال بالنساء ورقص الفتيان مع الفتيات ، أو نهى عنه على وجه الكراهة ، كتقليدهم فى تناول الطعام باليد الشمال(١) أو إطالة بعض الأظفار ، والمحاكاة التى توقع فى محرم فسوق عن أمر الله ، والتى توقع فى مكروه يخسر بها صاحبها قسطاً من ثواب الله . هذا إذا كانت المحاكاة عن مجرد هوى ، فإن كانت عن اعتقاد أن ما يفعله الأجنبى أحكم وأليق ، زلزلت أصل الإيمان ، والتحقت بمحاكاته فيما هو من شعائر ملته ، وعلى هذا الوجه يجرى حكم استبدال قوانينهم الوضعية بأحكام الشريعة الغراء ، نحو القوانين المبيحة لما حرم الله من الربا .

ومن الأمراض التى سرت إلى المسلمين على طريق التقليد للأجانب موبقة الانتحار . فقد يتخيل صغير العقل حيث يقع فى بلاء أن الانتحار طريق يصح أن يسلك للتخلص من البلاء . متكئاً فى هذا الخيال على أن كثيراً من رجال الدول أو الأمم الغالبة يرتكبونه وسيلة إلى الخلاص من مكاره تصيبهم . أو مكاره يخشون إصابتها .

ومن هذا الباب محاكاتهم فى إغلاق محال التجارة فى يوم الأحد أو السبت فقد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم قصد إلى صوم يوم السبت والأحد

(١) ليس من الصعب على من يريد المحافظة على أدب إسلامى أن يعود يسراه قطع اللحم ونحوه بالسكين ، ويعود يمناه تناوله بالشوكة ، وقد عزم على هذا قوم يعز عليهم أن يستخفوا بأدب دينى فوجدوه أمراً ميسوراً .

ليخالف أهل الكتاب فى جعلهما يومى عيد ، لأن صوم اليوم يبعده من أن يكون عيداً . نقرأ فى سنن أبى داود أنه صلى الله عليه وسلم كان يصوم يوم السبت والأحد ، يتحرى ذلك ويقول : « إنهما يوما عيد الكفار وأنا أحب أن أخالفهم » . وأخرج الإمام أحمد والنسائى « أنه ما مات صلى الله عليه وسلم حتى كان أكثر صيامه السبت والأحد » ..

فإغلاق المسلم لمحل تجارته يوم الأحد أو السبت يناقض قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صوم هذين اليومين ، لأن إغلاق محل التجارة أو الصناعة فى يوم معين لا يلتزمه إلا من شأنه أن يعتقد أن ذلك اليوم حقيق بأن يتخذ عيداً .

ومن محاكاتهم فيما يحرمه الشرع وينبذه العقل ، إنشاء مكتب يستأذنه فاسدات الأخلاق فى التجارة بأعراضهن فلا يجد فى صدره حرجاً أن يأذن لهن ، وقد تيقظ كثير من رجال دولتنا الرشيدة إلى ما فى هذه المحاكاة من شر مستطير ، فأخذوا يجاهدون فى تطهير البلاد من هذه الخبائث ، وسيلقون على هذا الجهاد شكراً صادقاً ، وذكراً طيباً . وما عند الله خير وأبقى .

(رابعها) محاكاتهم فيما لم يتعرض له الدين بنهى خاص ، ولكن رعاية جلب المصالح أو درء المفاسد تقضى بترك هذه المحاكاة ، والمصالح كالمفاسد تتفاوت فى شدتها ، فيفصل الحكم على حسب هذا التفاوت . ومن أمثلة هذا النوع اتخاذ بعض الأزياء الظاهرة فى الاختصاص بهم كالقبعة ، فإن وضع المسلم لها على رأسه بين قوم مسلمين يدل على ميله وترجيحه لجانب من اختصوا بلبسها ، ويوقع فى اعتقاد الناظرين إليه أنه من طائفة المخالفين ، والمسلم المطمئن لدينه يتحامى ما يدل على أنه يميل إلى غير أمته أكثر مما يميل إلى أمته ، ويتألم من أن يصفه أحد بأنه من قوم غير مسلمين . وقد حاول بعض المفتونين بتقليد الغالب فيما لا أثر له فى قوة سلطانه أن يحملوا أبناء المسلمين فى مصر على لبسها فخاب سعيهم ولم يكن جند صلاح الدين الأيوبى الذى انتصر على جيوش الأوروبيين فى حطين حيث كانت الواقعة الفاصلة ، يرضى بأن يتخذ فى شعاره القبعات ، ولم ينفع أعداءه المنهزمين أن كان على رأس كل واحد منهم قبعة !

ويدخل فى هذا القبيل اتخاذ نحو الملابس وأثاث البيوت من مصنوعاتهم وفى المصنوعات القومية ما يغنى غناءها ، وفى الإقبال على المصنوعات القومية فتح باب عظيم من أبواب الثروة العامة ؛ وارتقاء الشعوب على قدر يسارها :

ومما يثير الأسف البالغ أن يقتصر المسلم فى رسائله أو عند ذكر الحوادث على ما يؤرخ به المسيحيون ، وهو التاريخ القائم على ميلاد المسيح عليه السلام وقد فشت هذه المحاكاة حتى أصابت أقلاماً شأنها أن تنهى عن مثل هذا التشبه . وفى الاعتماد على التاريخ الهجرى محافظة على ذكرى مبدأ علو الإسلام وظهوره على الدين كله . وكان صاحبنا العلامة أحمد تيمور باشا رحمه الله تعالى يقتصر فى مراسلاته على التاريخ الهجرى متعمداً هذا الاقتصار حتى فى مخاطبة الجمعيات أو الشركات الأجنبية .

(خامسها) محاكاتهم فى أمور لم يرد فيها عن الشارع نهى خاص ، ولم تكن فى نفس موافقتهم فيها مصلحة أو مفسدة ، ولا تلقى على صاحبها شبهة الانتماء إلى ملتهم . ولا حرج فى هذه المحاكاة إلا من جهة الاحتفاظ بالتقاليد القومية . فصغار النفوس أو العقول يسارعون إلى التخلى عن المعروف بين قومهم ، ويتبدلون به المعروف بين الأمم الأجنبية ، ولا داعى لهم إلى هذه المحاكاة إلا الافتتان بكل شأن من شئون أولى الشوكة والسلطان . أما أولو الأحلام الراجحة فلا ينتقلون عن المعهود فى بيئتهم إلا إلى ما هو أفضل ، ولا يفضل عرف على عرف لمجرد أنه يجرى بين قوم لهم القوة والغلبة . ومن أمثلة هذا محاكاتهم فى لون خاص يلتزمونه فى حفلات خاصة ، فليس للون الخاص فى الحفلات مصلحة أو مدخل فى نهوض القوم . وإنما هى عادة جرت بينهم ، وألفتها أذواقهم ، فإذا لم يعتد قوم مسلمون التزام ذلك اللون فى مثل تلك الحفلات وأبوا تقليد الأجانب فى هذا العرف ، دلوا بهذه الإباية على الاعتزاز بقوميتهم ، ونبهوا على أنهم لا يريدون أن يكونوا أتباعاً حتى فيما لا يقدمهم خطوة ، ولا يسد من حاجاتهم خلة .

فإن خطر على بال أحد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يسدل شعر رأسه موافقة لأهل الكتاب ، قلنا : كان عليه الصلاة والسلام بين فريقين : عباد الأوثان ، وأهل الكتاب ، وأهل الكتاب أقرب إلى الدين الحنيف

من عباد الأوثان ، فهم بالموافقة يومئذ أحق من عباد الأوثان . ولكن بعد أن دخل عباد الأوثان فى الإسلام ، وأصبح فرق الشعر شعار فريق كبير من المسلمين ، عاد صلى الله عليه وسلم ففرق شعر رأسه ، وكان الفرق آخر حالتيه .

وإن تعجب فعجب لذلك الذى وضعت صولة الغالب على بصيرته غشاوة ، فقام يدعو المسلمين إلى تقليد الأجانب بدون قيد ولا استثناء ، وذهب يذكر فى وجه هذا التقليد المطلق غاية هى العمل لاتحاد العالم . ولا نطيل فى وصف انحراف هذا الرأى ، فإن العالم فى حاجة إلى الاتحاد فى معرفة واجبات الإنسانية ، وفى احترام الأقوياء لحقوق الضعفاء ، ومتى ظفر بهذا الاتحاد لم يضره اختلاف شعوبه فى بعض مظاهر الحياة . ثم ما بال هذا الكاتب يسعى لاتحاد العالم من ناحية دعوة المسلمين إلى موافقة الغربيين فى كل شىء ، ولم ينظر نظر المتدبر الرصين فيدعو الغربيين إلى موافقة المسلمين فى آداب هى أشد انطباقاً على ما تقتضيه الإنسانية ، وترتضيه الأذواق السليمة !

هذه كلمة نوجهها إلى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، لعلهم يجدون فيها تحقيق الفرق بين محاكاة الأجنبى المحمودة ومحاكاته المنبوذة فيسلكوا طريقاً وسطاً يكفل لهم سعادتى الأولى والآخرة ، (والله يقول الحق وهو يهدى السبيل) . .

الاجتماع والعزلة

خلق البشر لحكمة سامية . هى عبادة مبدع الكائنات وحده ، والعبادات عقلية كالإيمان ، وبدنية كالصلاة ، ومالية كالزكاة ، ومركبة من مالى وبدنى كالحج والجهاد ، فالعبادات لا تقام على وجهها إلا بوسائل هى : صحة الفكر ، وسلامة البدن ، وذات اليد ، ولهذه الوسائل وسائل تسبقها ، كالزراعة والصناعة ، والتفقه فى الدين ، وبعض العلوم النظرية كالمنطق ، أو الكونية كالطب ، وليس فى استطاعة الفرد أو الرهط من الناس الاستقلال بهذه الوسائل ، فاحتاج الناس بمقتضى فطرتهم وما خلقوا من أجله إلى التعارف والتعاون . ولا تعارف ولا تعاون إلا بالاجتماع .

فالاجتماع هو الذى تقتضيه الفطرة . وبه تنتظم العلوم ، وتبلغ المدنية الفاضلة أشدها ، فيتهيأ للناس أن يعبدوا الله على بصيرة ، ويتقربوا إليه بضروب من الأعمال الصالحة لا تحصى .

يظهر إيثار الإسلام للاجتماع على العزلة فى كثير من الأحكام والآداب . فانظروا إلى ما دعا إليه على وجه التوكيد من إقامة الصلوات الخمس فى جماعة ، ثم ما فرضه من الاجتماع لصلاة يوم فى الأسبوع . هى صلاة الجمعة وعين للحج وقتاً فى السنة ، فكان من حكمة هذا التعيين التقاء أمم من بلاد وأقطار مختلفة على صعيد واحد ، وشرع ليوم عيد الفطر ويوم عيد الأضحى صلاة تؤدى فى جماعة ، وتوصل بوعظ وإرشاد .

وشرع إقامة الولائم فى مثل عقد النكاح ، أو البناء ، ويوم سابع الولادة . وحث على إجابة الدعوة ؛ حتى أن عبد الله بن عمر كان يجيب الدعوة فى العرس وغيره وهو صائم .

دعا إلى الاجتماع فى أوقات السرور كأيام الأعياد . ودعا إلى الاجتماع فى أوقات المكاره والشدائد ، كالاجتماع لصلاة الكسوف ، والاجتماع

للصلاة على الميت وتشييع جنازته ، حتى يكون الاجتماع مالئاً لمواطن السرور والحزن ، ولا يبقى للعزلة الجافية مظهر فى حال .

ومما يومىء إلى اختيار الاجتماع قوله تعالى : (إنما المؤمنون إخوة) . فإن من مقتضى الأخوة الائتلاف والاجتماع فى أوقات كثيرة ، وقال تعالى : (وأمرهم شورى بينهم) وكيف يتسنى للمبتعد عن الجماعة فى ناحية أن يعرض عليهم آراءه ، أو يستطلع منهم أمثالها ، فضلا عما تقتضيه الشورى من مناقشة الآراء ؟ وقال تعالى فى وصف ما يدعو به المؤمنون الفائزون : (واجعلنا للمتقين إماماً) وكيف يصلح المفارق للجماعة أن يكون مثلا كاملا للهداية ، يشهد الناس سيرته فيما يفعل أو يذر ، فيسيرون على أثره مقتدين ؟ ومما يومىء إلى اختيار الاجتماع من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا(١) » . وليس المعتزل من الناس باللبنة المرصوفة فى الجدار تمسك لبنة ، وتمسكها لبنة ، وما مثله إلا اللبنة تخرج عن الصف المستقيم فى البناء ، ولا يزال اتصالها بالبناء يضعف حتى تهوى ساقطة إلى الأرض .

دعا الإسلام إلى الاجتماع ، وشرع للاجتماع أحكاماً عادلة ، وآداباً فاضلة ، كالحث على القرض ، والمهاداة ، وقضاء الحاجات ، والإحسان لأولى القربى ، واليتامى والمساكين وابن السبيل ؛ وتحريم الربا والميسر ، ووضع عقوبات للاعتداء على الأنفس والأموال والأعراض ، إلى ما يشاكل هذا من الأحكام القضائية والنظم السياسية ، والآداب التى تحمى الاجتماع من كل نقيصة ، وتجعله مصدر خير وسعادة .

فشريعة الإسلام مشربة روح الاجتماع ، ومن ثم ترى علماءها يخوضون فى المجامع يقولون طيباً ، ويعملون صالحاً ، وهذا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول : «خالط الناس ودينك لاتكلمنه» . وإذا نقل عن بعض من عرفوا بالتدبر فى القرآن والسنة آثار تدل على إيثارهم العزلة على الاجتماع ، فإنما هى حال خاصة تعرض للشخص ، فتجعل الاعتزال فى رأيه أرجح من الاجتماع ، ولا يصح حملها على أنهم يقصدون إلى جعل العزلة مذهباً

---

(١) صحيح الإمام البخارى .

يسع كل الناس . وانظر إلى ما يحكى عن الإمام مالك من أنه كان يشهد الجنائز ، ويعود المرضى ، ويعطى الإخوان حقوقهم ، ثم ترك ذلك فى آخر حياته ، وإنما ترك مالك هذا النوع من الاجتماع لحالة خاصة عرضت له ؛ ويدلك على أنه رأى العذر فى ترك تلك الحقوق قائماً ، وقوله حين سئل عن ذلك : لا يتهيأ للمرء أن يخبر بكل عذر له . فانظر كيف جعل العزلة من الشئون التى لا يجنح لها الإنسان إلا لعذر . ولكنه كره ذكر العذر الذى حمله عليها ؛ وإذا ثبتت استقامة رجل كالإمام مالك ، وعرف بالمحافظة على آداب الشريعة ، ثم روى عنه ترك شىء من هذه الآداب الثابتة ، حمل تركه لها على قيام عذر . ولا يكون هذا الترك موضعاً للاقتداء ، وكيف يرى مالك للرجل – ولا سيما العالم – أن يخلد إلى العزلة ، وهو الذى يقول : « حق على كل مسلم أو رجل جعل الله فى صدره شيئاً من العلم أن يدخل على كل ذى سلطان ، يأمره الخير ، وينهاه عن الشر حتى يتبين دخول العالم على غيره » .

فى الاجتماع مزايا دينية ومدنية لا يدركها المعتزلون . فالمعتزل للناس يفوته العلم إن كان فى حاجة إلى أن يتعلم ، ويفوته فضل التعليم إن كان فيه كفاية لأن يعلم غيره من الجاهلين . والمعتزل يفوته ما يقف عليه المشاهد لأحوال الناس من التجارب التى يبلغ بها العقل أشده ، ويفوته كسب المال أو نماؤه ، والمال وسيلة العفاف وصيانة ماء الوجه ، وهو المرقاة التى تصل بها الأمة إلى قمة المنعة والعزة والسيادة . وفى الاجتماع لذة روحية هى الاستئناس لمحادثات المصطفين من العلماء والأدباء ؛ وإلى هذا الاستئناس يشير القائل :

وما بقيت من اللذات إلا   مجالسة الأديب إلى الأديب

ثم إن معظم خصال الشرف والحمد التى يفضل بها الإنسان على سائر الحيوان ، إنما تبلغ كمالها ، ويعظم أثرها فيمن سيرته الاجتماع ، فسيرة الاجتماع هى التى يتجلى فيها خلق السخاء ، إذ يشهد صاحبها حاجات الأفراد أو الجماعة ، فتثور فى نفسه الشفقة أو الإشفاق فيبسط يده إلى سدها جهد المستطاع . وسيرة الاجتماع هى التى يظهر بها خلق الحلم والأناة ، حيث

يصادف صاحبها طبقات من غير أولى الكياسة ، فيقابل خشونة ألسنتهم باللين ، وغلظة قلوبهم بالرفق . وسيرة الاجتماع هى التى يستبين بها فضل الشجاعة الأدبية ، وهى خلق يهون عليك أن تقول للمخطىء : إن الصواب فى غير ما نطقت ، أو تقول للمبطل : إن الحق فى غير ما رأيت ، أو تقول للمفسد : إن الخير فى غير ما أتيت . وسيرة الاجتماع هى التى يتبين بها الناس كيف تحدث فتصدق ، أو كيف تعد فلا تخلف ، أو كيف تؤتمن فلا تخون .

قد يخطر بالبال أن فى العزلة تخلصاً من نحو القدح فى الأعراض . والسعى بالنميمة ، والتنابز بالألقاب ، ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة . والواقع أن الذى يعلم عاقبة وزر الغيبة والنميمة وما يشاكلها من الأوزار التى قد يسوق إليها الاجتماع ، يجد فى نفسه زاجراً عن ارتكاب شىء منها . وفى يده أن يسدى النصيحة لمن يحوم بها ، أو يلوث صحيفته بلطخ من أقذارها . فإن لم يجد للنصيحة فى مجلس سامعاً ، تركه إلى مجلس أبعد عن اللغو . وأبرأ من الإثم ، وأما مسارقة الطبع ، فمن الاجتماع ما يقتبس منه الطبع آداباً سامية ، ومن الاجتماع ما يمكنك أن تفيض عليه من حكمتك نوراً ، ومن إرشادك ماء طهوراً ، فينقلب ليله صبحاً ، ورجسه طهراً .

ومن ذا يرضى لك وأنت سليم القلب نقى العرض ، أن تتردد على مجامع بضاعتها أقوال لا خير فى سماعها ، أو تكثر من لقاء وجوه لا يغبطك أهل الفضل على لقائها ، ومن ذا يجهل أن الوقت من ذهب . فيزين لك أن تبذله فى غير حق ، أو تشترى به ما ليس بحمد ؟

وإذا قلنا : إن الاجتماع خير من العزلة . لا نقصد إلى أن يصرف الإنسان أوقاته فى التردد على البيوت ، وغشيان المجالس ، والتعرض للقاء كل من يجرى اسمه على الألسنة ، كما يفعل بعض من لم يقدروا الوقت حق قدره ، فيبذرونه تبذيراً ، فإنه لا بد للإنسان من أوقات يخلو فيها بنفسه ، ليؤدى واجباً ، أو يتقرب إلى الله بنفل ، أو يحفظ علماً ، أو يحقق مسألة ، وذلك معنى قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « خذوا حظكم من العزلة » . ونقرأ فى تراجم كثير من أهل العلم أنهم كانوا يجعلون من اليوم والليلة نصيباً للتقرب من الخالق بصلوات أو ذكر أو تلاوة قرآن ، ويقبلون فى

جانب عظيم منهما على العلم تأليفاً ودراسة . ويصرفون طائفة من الوقت في قضاء حقوق اجتماعية . فإن قال الراغب فى العزلة : أريد أن أقضى أوقاتى فى عبادة ، قلنا : فى حضور مجالس العلم مفيداً أو مستفيداً عبادة ، وفى عيادة المريض عبادة ، وفى زيارة الإخوان تأكيداً لمودتهم ، أو تهنئة بنعمة ، أو تعزية على مصيبة ، عبادة ، وفى إرشاد الناس إلى الخير عبادة . وفى مد يد المعونة على ما يسد حاجتهم أو تقوى به شوكتهم عبادة .

وليس ببعيد أن يكون ما يعزى إلى بعض أهل العلم من إيثار العزلة مراداً به صرف معظم الوقت فى علم أو عبادة خالصة . حتى إذا أحس واجباً يدعوه إلى الاجتماع أجاب داعيه فى نشاط . ووضع يده فى أيدى العاملين بإخلاص .

وقد يخطر بالبال أن الشر فى هذا العصر أصبح مستطيراً . وأن للضلال والفساد دعاة لا يملون ، وجنوداً لا يتقهقرون ، فمن فئة غلبت عليهم أهواؤهم فاتخذوا اسم الدين وسيلة إلى ما تهوى أنفسهم . ومن قوم نبذوا الدين وخرجوا يدعون إلى الإباحية والإلحاد علانية ، ومن جماعات يرسلون إلى بلادنا . ويقيمون معاهد ليتصلوا فيها بأبنائنا ، ويحاولوا صرفهم إلى ملة غير ملتنا . ومن طوائف ابتدعوا نحلات خاسرة ، وانتموا بأفواههم إلى الإسلام وقلوبهم تجحده ، ولا شأن لهم إلا اصطياد الغافلين ومن لم تسبق لهم تربية رشيدة ، كما يصنع الفرقتان المدفوعتان إلى تقويض أركان الإسلام واستدراج شعوبه إلى احتمال الذلة والهوان ، وهما البهائية والقاديانية ، ومن فرق لا شأن لها سوى أن تضع أمام عين الشبان مناظر اللهو والخلاعة . فتصرفهم عن الطريق السوى ، وتمشى بهم فى عوج . فلا يدركوا ما يدركه أولو الجد والعفاف والشهامة من مجد وكرامة . قد يخطر كل هذا ببال الرجل فينحدر فى غم ، ويضل سبل التفكير . فلا يرى طريقاً للخلاص من هذا الغم سوى البعد عن المجتمع والعيش فى عزلة لا يسمع فيها صوت الباطل . ولا يبصر فيها منظراً من مناظر الإباحية المتهتكة .

ربما نسمع مثل هذا الخاطر من بعض من نشأوا فى رشد وصلاح ، وقد يكون هذا الخاطر وليد سريرة طيبة ، ولكن العمل عليه يزيد الضلال

صولة ، والفساد جولة ، ويجعل المجتمع الذى تستمد منه الأمة حياتها ، ظلاماً لا يخلفه ضياء ، ودنساً لا يغسله ماء .

أما أصحاب الأهواء والدعايات الزائغة ، فنى أيدينا مقاومتهم بالحجج التى تكشف عن تمويههم ، وتنقذ الناس من مصارع باطلهم ، وأما المحترفون بترويج الخلاعة ، فمتى قامت التربية على دعائم الحكمة والحزم ، خملت سوقهم . وكسدت بضاعتهم . ومن أبقى يده فى أيدى الجماعة قام بنصيبه من الجهاد فى هذا السبيل ، ومن خطر على باله العيش فى عزلة ، فليستعذ بالله من اليأس ، ويدع العزلة إلى اليوم الذى يلتحق فيه بأصحاب القبور .

وإذا هان اعتزال من لا يرجوه الناس لعلم أو رأى أو معونة على عمل اجتماعى ، فإن عزلة العالم أو المجرب للأمور أو المستطيع لأن يعمل مع الجماعة خيراً ، ذات خطر كبير ، وبالأحرى حيث تظهر المنكرات ، أو تكون الأمة غارقة فى جهالة ، أو تبتلى بملمات اجتماعية .

واعتزال العالم للجماعة قد يكون له أثر فى قلة إصابته فيما يتعرض له من الفتاوى ، فإن للنظر فى الوقائع من ناحية ما يترتب عليها من خير أو شر دخلا فى إصابة الحق .

ولا يستقيم النظر فى الوقائع من تلك الناحية إلا لمن يتصل بالناس ويرسخ فى معرفة أحوال المجتمع ، وكيف يدرى هذه الأحوال من هو غائب عنها ، بعيد من مصادرها ومواردها ؟

وإذا انصرف بعض أهل العلم أو الرأى عن الاتصال بالجمهور أيام كانت راية الإسلام تخفق فى الشرق والغرب ، وكانت النفوس فى اطمئنان سائد ، فإن الحال فى هذه العصور يدعو إلى بذل كل عناية فى التعارف والبحث عن علل ضعفنا ، ثم عن الدواء القاطع لهذه العلل ، وماذا ينفع البحث عن العلل وأدويتها إذا لم ننهض إلى تركيب الأدوية ونتعاطاها على الوجه الذى يوفر نشاطنا ، وتشتد به سواعدنا ، ويجرى به دم الحياة أو الحماسة فى صغارنا وكبارنا ؟

لا يليق بالفرد أن يعتزل الجماعة ، ولا يليق بالجماعة أن ترى نفسها فى غنى عن الاتصال بباقى جماعات الأمة ، وإذا كان اتصال أفراد الجماعة باللقاء والتعاون على حاجات بلدهم ، فاتصال الجماعات المتباعدة الأوطان يكون بوسيلة أفراد يرحلون فيداولون على مبلغ ثقافتها ، ويستطيعون أن يصفوا كمالها أو حاجاتها ؛ وهؤلاء هم الذين يصلحون لأن يؤكدوا الروابط بين الجماعات حتى تكون كالبنيان يشد بعضه بعضا .

* * *

التعاون فى الإسلام

الإسلام فى مقدمة الشرائع المتضافرة على حفظ حقائق ، هى : الدين والنفس، والعرض، والعقل ، والنسل، والمال. فمن قصده إلى المحافظة على الدين فرضه القيام بالدعوة إليه والدفاع عن حوزته ، ومن قصده إلى المحافظة على النفس شرعه القصاص، وفرضه حضانة الأطفال ورعايتهم، ومن قصده إلى المحافظة على العرض تقريره لعقوبة القذف بالزنا ، وأمره بتأديب من يتطاول على غيره بلمز أو هجاء ، ومن قصده إلى المحافظة على العقل شرعه لعقوبة من يتناول المسكرات ، أو يسعى فى إزالة عقل شخص بالضرب ونحوه ، ومن قصده إلى المحافظة على النسل حثه على النكاح ، وسنه لعقوبة من يعتدى على شخص فيبطل منه قوة التناسل ، ومن قصده إلى المحافظة على المال شرعه لعقوبة السارق وقاطع الطريق .

وقد يقع بعض هذه الحقائق فى ضياع أو يكون مشرفاً على الضياع ، ويتعذر على الشخص الواحد العمل لسلامتها ، فكان من مقتضى ثقل أعبائها أو كثرة شعبها . أن يمد إليه أشخاص آخرون أيديهم ليتعاون الجميع على حفظ دين أو نفس أو عرض أو عقل أو نسل أو مال .

ومن المعلوم الماثل أمام كل من تفقه فى الدين أن الإسلام قد راعى عجز الأفراد عن القيام بكثير من المصالح الخاصة أو العامة ، فأمر بالتعاون على وجه عام . ثم أقام كثيراً من أحكامه وآدابه على القاعدة التى ينتظم بها العمران ، وتخف بها متاعب الحياة .

أما الأمر بالتعاون على وجه عام فمن شواهده قوله تعالى : **(وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان)** .

يتناول التعاون على البر والتقوى : المؤازرة فى كل عمل ينتج عنه الخير سواء كان القائم به فرداً أم جماعة ، وسواء كان الخير عائداً إلى فرد

أم إلى أمة ، ولا فرق فى أصل طلب التعاون بين أن يكون الخير من مصالح الحياة الدنيا التى أذنت الشريعة بإقامتها ، وأن يكون من وسائل السعادة فى الأخرى ، فمن التعاون على البر والتقوى أن يقوم الرجل للصلاة فتناوله وضوءاً ، أو تهيىء له مصلى ، ومن التعاون على البر والتقوى أن ينهض القوم لإعلاء كلمتهم بنحو بناء المدارس أو المستشفيات أو الملاجىء أو إقامة مصانع تسد جانباً من حاجاتهم المدنية ، فتبذل فى إسعادهم ما تستطيع من قوة .

ويدخل فى الإثم والعدوان كل عمل يعطل شريعة من شرائع الدين . أو يعود على النفس أو العرض أو العقل أو النسل أو المال بالفساد ، فمن التعاون على الإثم والعدوان أن تقضى للخصم بقطعة من مال خصمه وأنت تعلم أنه يدعيها زوراً وبهتاناً ، ومن التعاون على الإثم والعدوان أن تشهد حفلات ترتكب فيها بعض محرمات كتعاطى المسكرات ، أو رقص الفتيان مع الفتيات ، ومن التعاون على الإثم والعدوان أن تشترى ورقة من تلك الأوراق التى يصدرها جماعات ، ويسمونها « اليانصيب » فإنها من الميسر الذى وصفه الله تعالى بأنه رجس من عمل الشيطان ، ومن التعاون على الإثم والعدوان أن تكون كاتب البطاقة التى يأمر فيها الظالم بالاعتداء على نفس أو عرض أو مال .

ومما ورد فى التعاون قوله صلى الله عليه وسلم : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » فإن قصد أحد إلى من بينك و بينه إخاء ليعتدى عليه فى نفسه أو ماله أو عرضه ، وجب عليك الانتصار للمعتدى عليه ودفع المعتدى بما يكفى للخلاص من شره ، وذلك معنى الانتصار له وهو مظلوم ، أما الانتصار له وهو ظالم ، فقد بينه النبى صلى الله عليه وسلم فى نفس الحديث بمعنى الأخذ على يده ، ومنعه من الظلم ، وفى كفه عن الظلم الذى يذيقه عذاب الهون فى الآخرة ، ويلبسه ثوب الخزى فى الأولى انتصار له أى انتصار .

ومن الوجوه التى تدل على قصد الشريعة إلى التعاون ، تحريم السؤال على مستطيع الكسب ، وفى هذا التحريم باعث له على القيام بجانب من حاجات الأمة ، وفى إخلاد القادر على الكسب إلى السؤال بليتان اجتماعيتان :

(أولاهما) : فوات الانتفاع بشخص يمكنه أن يكون كقطرة صالحة فى دم حياة الأمة، فتزداد به قوة على قوتها .

(ثانيتهما) : بقاؤه فى جسم الأمة كعضو يشرب من دمها ويأكل من لحمها ، بل كعضو يسرى منه مرض البطالة إلى أشخاص لاتعرف نفوسهم العزة ، فيكثر سواد هؤلاء الثقلاء فى البلاد ، قال صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير من أن يأتى رجلا أعطاه الله من فضله فيسأله أعطاه أو منعه »(١) فحرام على من يستطيع كسب الرزق أن ينكث يده من العمل ويجلس متشوفاً لما سمحت أو تسمح به نفوس المحسنين لمن قعد به العجز عن طريق الاكتساب .

فلو بدا لأولى الأمر أن يهيئوا للعاجزين عن الكسب ملاجىء ويأخذوا على أيدى المتسولين حتى يضطر صحيح البنية إلى مباشرة بعض الأعمال الحيوية ، لوجدوا فى الإسلام ما يحثهم على أن يبنوا الملاجىء ، ويمنعوا المتكففين من التجول فى الطرق والأسواق .

وقد بث الإسلام روح التعاون فى النفوس لأول ظهوره ، ترى هذا فى حياة المسلمين بالمدينة عقب الهجرة ، فقد ورد فى الصحيح أن المهاجرين قدموا من مكة وليس بأيديهم شىء ، فعرض الأنصار على النبى صلى الله عليه وسلم أن يقسم النخيل بينهم وبين المهاجرين ، فقال : لا ، فعرضوا عليه بعدُ أن يكفيهم المهاجرون مؤنة العمل ويشركوهم فى الثمرة ، فأجاب لذلك ، فقاسمهم الأنصار على ذلك ، وكان الأنصار يؤثرون المهاجرين بما عندهم وإن كانوا فى حاجة إليه ، وهو الإيثار الذى مدحهم الله تعالى به فى قوله : (**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**) .

ومن قصد الشارع إلى التعاون على وجه عام ، أنه نظر إلى الأعمال المنطوية على مصالح ، فكان منها ما تحصل مصلحته لكل شخص يقوم به ، وتوجد هذه المصلحة كلما قام به تام وهو مستوفى الشروط والأسباب والأركان ، فجعل الخطاب فيه موجهاً إلى كل من بلغ سن التكليف ، كالصلاة والصيام والحج والزكاة ، وهذا ما يسميه الفقهاء بالواجب على

(١) كتاب الموطأ .

الأعيان ، ومنها ما تحصل مصلحته بفعل شخص أو أشخاص ، ولو قام غيرهم من بعدهم ليفعله وجد المصلحة قد تحققت ، فجعل الخطاب فيه موجهاً إلى الأمة على أن تقوم به طائفة منها ، كتجهيز الموتى ، وإنشاء ما يكفى حاجة البلاد من المدارس ، وهذا ما يسمى فى عرف الفقهاء بفرض الكفاية .

والحقيقة أن الطلب فى فرض الكفاية يتوجه إلى من فيهم الكفاية للقيام بالعمل المطلوب ، وإذا قام به بعضهم سقط الطلب عن سائرهم ، فولاية القضاء مثلا — يتوجه الطلب فيها إلى من درسوا أحكام الشريعة وكان لهم مقدرة على تطبيق الأصول على الوقائع ، وإنقاذ الغرقى يتوجه الطلب فيه إلى من يحسنون السباحة ، وإغاثة المضطر يتوجه الطلب فيها إلى من يستطيعون الإغاثة ، ونصرة المظلوم يتوجه الطلب فيها إلى من كان قادراً على أن ينصره بانفراده أو بالانضمام إلى غيره . وإنما جعل الخطاب فى فرض الكفاية موجهاً إلى الأمة لأنه يجب على من لم يكن فيهم أهلية للعمل المطلوب أن يهيئوا وسائله لمن فيهم أهلية ، أو يجبروهم على القيام به إذا أهملوا أو تباطئوا . فدفع الشبه وتقويم الزيغ واجب على العارفين بأصول الدين ، فإذا دخلت الضلالة فى قرية لا يوجد فيها من فيهم الكفاية لتقويم الزائغين ، وجب على من فيهم الكفاية ببلد آخر أن ينتقلوا لإرشاد أولئك الضالين ، وإن احتاجوا إلى نفقة أو وسيلة غيرها وجب على القادرين على مساعدتهم بالمال أو بتهيئة ما احتاجوا إليه من الوسائل أن يعينوهم على أداء واجب الإرشاد ، فيسقط الوجوب عن الجميع . وقيادة الجيوش تجب على من جمع إلى الشجاعة العلم بالفنون الحربية . فإذا امتنع من تحققت فيهم شروط القيادة من الخروج إلى مواقع القتال . لا يتركون وشأنهم بعلة أن الأمر بقيادة الجيش موجه إليهم وحدهم . بل على أولى الشأن إجبارهم على تولى قيادة الجيش ، فإن لم يجبروهم كانوا فى العقوبة سواء ، بل لولى الأمر أن يعمد إلى من فيهم الكفاية لأمر من الأمور ، ويعين من بينهم شخصاً أو أشخاصاً للقيام به ، فيصير بهذا التعين فرض عين لا يسوغ لهم التأخر عنه .

ومن المطلوب على الكفاية ما هو دينى محض كالصلاة على الميت ، ومنه ما يرجع إلى مطالب مدنية كتعاطى بعض الحرف أو الصنائع المحتاج إليها فى انتظام حال الجماعة . والنوع الأول يبعث على القيام به القصد إلى

امتثال أمر الله تعالى ، وأما النوع الثانى فقد يبعث عليه داعية فطرية ، ذلك لأن همم الناس تختلف فى توجهها إلى ما تستدعيه الحياة من الحرف والصنائع ، فيوجد فى أغلب البلاد الحداد والنجار والبناء والصائغ والخائط والحمال والكناس ، إلى غير هذا من الحرف والصنائع الضرورية ، ومن المحتمل أن لا تطرد هذه السنة فى بلد أو فى عصر ، فيزهد الناس فى حرفة أو فى صناعة . فلم يدع الشارع هذه الضروريات أو الحاجيات إلى الدواعى الفطرية وحدها . بل جعل القيام بكل حرفة أو صناعة يحتاج إليها فى الحياة فرض كفاية ، حتى يستقيم أمر الحياة ، فإن لم تختلف همم الناس اختلافاً يفى بما تحتاج إليه البلاد من الحرف والصنائع ، وجب على أولى الشأن العمل لسد حاجات الأمة . وإقامة الحرفة أو الصنعة المفقودة ولو ببعث طائفة إلى خارج البلاد ليتعلموها ويحسنوا القيام عليها .

وقد دلنا التاريخ الصحيح لعهد النبوة أن الناس كانوا يتعاونون على مرافق الحياة ووسائل السعادة ، فقد روى الإمام البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : « إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق(١) بالأسواق . وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل فى أموالهم ، وإن أبا هريرة كان يلازم رسول الله صلى الله عليه وسلم لشبع بطنه ، ويحضر مالا يحضرون ، ويحفظ مالا يحفظون » .

فدل الحديث على أن طائفة من المهاجرين كانوا يشتغلون بالتجارة ، وطائفة من الأنصار كانوا يشتغلون بالفلاحة والزراعة ، وأن أبا هريرة كان منقطعاً لطلب العلم ، وعرفنا من طريق غير هذه الرواية أن فى الأمة لذلك العهد طائفة كانت تتعاطى بعض الصنائع كالنجارة والحدادة .

ولم يكن أهل الصفة (٢) إلا بمنزلة الجند المهيأ للدفاع ، زيادة على ما كانوا يتلقونه من علم ، فلهم من هذه الناحية قسط عظيم من التعاون المطلوب فى قوله تعالى : **(وتعاونوا على البر والتقوى)** .

ويجرى على شاكلة الحرف والصنائع العلوم والفنون ، فقد قرر علماء

---

(١) البيع والشراء .

(٢) موضع مظلل فى مسجد المدينة يأوى إليه المساكين .

الشريعة أن كل علم أو فن يحتاج إليه فى الحياة يجب أن تقوم به طائفة من الأمة ، فمن التعاون على تنمية العلوم وتحقيقها إقبال كل طائفة على علم يقتاونه بحثاً ، ويحيطون به من كل جانب ، وإنما اتسعت دوائر العلوم بمثل هذا العمل المسمى بالتخصص . وقد أدرك علماء الإسلام فى القديم فائدة انفراد كل طائفة بعلم تفرغ فيه جهودها ، وتصرف فيه جانباً كبيراً من أوقاتها . فاختلفت وجهاتهم على قدر ما كان بين أيديهم من العلوم ، وظهر النبوغ فى هذه العلوم على اختلاف موضوعاتها وتباعد أغراضها .

وقد يكون اختلاف الناس فى اتقان هذه العلوم من دواعى الفطرة ، بأن يقبل كل إنسان على العلم الذى يجد فى نفسه الميل إلى تعاطيه ، فإن وجد الرئيس همم الناس منصرفة عن بعض العلوم ، اتخذ الوسيلة إلى حمل طائفة منهم على مزاولته .

وأما أن الشريعة بنت كثيراً من أحكامها وآدابها على قاعدة التعاون فشواهده كثيرة ، تجد هذه الشواهد فى التعاون على حفظ الدين والنفس والعرض والعقل والنسل والمال .

من شواهد التعاون على حفظ الدين . أن الشريعة نظرت إلى ما ينبنى على التفقه فى الدين من إنارة الجاهلين ، وإنذار المسرفين ، وتنظيم الحياة على وجه أدعى إلى الارتياح والاطمئنان ، فلم تتركه لهمم الأفراد التى قد يطرأ عليها ضعف أو انصراف عن التعلم ، بل فرضت على كل فرقة من المسلمين أن يرحل منها طائفة إلى المواضع التى يمكنهم أن يتفقهوا بها فى الدين ثم يعودوا إلى قومهم . فتبقى عقائد الدين وواجباته وآدابه محفوظة بينهم .

قررت رحلة طائفة للتفقه فى الدين ، وفيه معنى التعاون على حفظه ، وورد فى الشريعة الأمر بالتعاون على حفظ الدين من وجه آخر ، وهو أن رجال القبيلة أو القرية قد يغفلون عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فتضيع أحكام الدين وآدابه ، ففرضت على الأمة أن يقوم طائفة منها بالدعوة إلى الحق والإصلاح ، والتحذير من الباطل والفساد ، قال تعالى : (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) .

وقد تختلف وجوه التعاون على حفظ الدين اختلاف الأحوال والأزمان .
ومما حدث فى هذا العصر أن بعض المخالفين يعملون لزلزلة أركانه وطمس معالمه ، بوسيلة ما يفتحونه من مدارس ومستشفيات وملاجىء يزعمون أنهم يخدمون بها العلم والإنسانية ؛ فهنالك يجدون الأطفال والمستضعفين من الرجال والنساء واقعين فى حبائلهم لا شاهد عليهم ولا رقيب . فيحدثونهم عن الإسلام بألسنة تفترى عليه الكذب ويلقنونهم آراء تجعلهم من أشد الناس عداوة لدينهم وازدراء لآبائهم ، فمن التعاون على الدين فى هذا العصر أن ينهض المسلمون نهضة صادقة . فيبسطوا أيديهم بالبذل فى سبيل إنشاء مدارس ومستشفيات وملاجىء تغنى عن تلك المبانى المفتوحة لإغواء الغافلين .
ومن التعاون على حفظ الدين أن ينشط العلماء للإرشاد فيطلقوا ألسنتهم وأقلامهم فى نصح من فى قلوبهم بقية من خير ، بأن لا يرساوا أبناءهم إلى تلك المدارس التى لو غفل عنها الناس اليوم غفلتهم عنها بالأمس لطوى بساط الدين طى السجل للكتاب .

ومن شواهد التعاون على حفظ النفوس أن الشريعة قد نظرت إلى ما يحدث بين الطوائف من التنازع فالتقاتل ، فأشفقت من أن تذهب نفوس بريئة ، وتراق دماء كثيرة ؛ فأمرت الباقين من المسلمين بالسعى للصلح بين الطائفتين المتقاتلتين .

ومن هذا القبيل فرض إغاثة العطشان والجائع . حتى قال الفقهاء : من لقى عطشاناً ومعه ماء ، أو لقى جائعاً ومعه طعام ، فمنع العطشان الماء أو الجائع الطعام ، وهو يعلم أنه لا يجوز له منعه ، وأنه يموت إن لم يسعده بما عنده ، حقت عليه عقوبة القصاص .

دعت الشريعة إلى التعاون على حفظ النفوس ، وجعلت له من الزكاة النصيب الأوفى ، فكان من مصارفها الفقراء والمساكين ، ليسدوا بها حاجتهم ويصونوا بها ماء وجوههم ، ثم ندبت إلى وجوه أخرى من وجوه البر كالصدقة والهبة ، فالقصد من الصدقة أو الهبة مواساة من يتصدق عليه أو يوهب له ، وإعانته على حفظ نفسه أو نفس من يعوله . غالباً .

وفى الناس من لا تسمح نفسه برفع يده عن الشىء المنتفع به جملة ،

فجعل له الشارع طريقاً إلى أن يعين غيره بمنفعة الشيء مع بقاء ذاته تحت ملكه ، كالعارية والعمرى(1) . ومن الوجوه الراجحة فى تفسير قوله تعالى : ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ : أن المراد ما يتعاوره الناس من متاع البيت كالقدر والجفنة والسكين ، وإذا طلب منك إعارة أمثال هذه الأدوات فى حال ضرورة كان منعها حراماً ، فإن طلب منك إعارتها فى حال لا تبلغ حال الضرورة ، كان منعها خادشاً فى المروءة ، دليلا على أنك تطوى نفسك على شيء من البخل بما آتاك الله من خير .

ومن شواهد التعاون على حفظ العرض ، أن الشريعة قد وضعت على القذف بالزنا عقوبة محدودة ، وعلى من يتناول غيره بسباب أو هجاء ، التعزير بما يكفى لردعه ، وعهدت بإجراء ذلك الجزاء إلى الرئيس الأعلى أو من يقوم مقامه ، وفى إجراء ذلك الجزاء تعاون على حفظ الأعراض . والقاضى الذى لا يحقق النظر فى قضايا السباب والهجاء ، ولا يقرر لها جزاء وفاقاً ، يعد فيمن لا يقدر حق صيانته الأعراض . ويلحق بمن يجهل أن العرض أعز على الرجل من ماله ونفسه .

ومن مقتضى التعاون على حفظ الأعراض أن لا تترك مجلسك ميداناً يتسابق فيه الطغام إلى ثلب الأعراض ، فإذا حرك أحد لسانه بالقدح فى عرض برىء أو بريئة ، ألجمته بالحكمة . وكذلك يفعل الصالحون والمصلحون قال صلى الله عليه وسلم : « ما من مسلم يخذل امرأ مسلماً فى موضع ينتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله فى موضع يحب فيه نصرته ، وما من امرىء مسلم ينصر مسلماً فى موضع ينتقص فيه من عرضه ، وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله فى موضع يحب نصرته (2) » . وقال صلى الله عليه وسلم : « من ذب عن عرض أخيه رد الله النار عن وجهه يوم القيامة(3) »

ومن شواهد التعاون على حفظ العقل أن الشريعة وضعت عقوبة على من يتناول شيئاً من المسكرات ، أو يؤذى شخصاً فيزيل عقله ، وعقوبة

---

(1) أن تعطى شخصاً منفعة شيء مدة حياته أو حياتك أو إلى أجل مسمى .

(2) أبو داود .

(3) الترمذى .

الأول معروفة ، وعقوبة الثانى الدية كاملة ، وهذه العقوبات يجريها القائمون على المصالح العامة ، وإجراؤها من قبيل التعاون على حفظ العقول .

ومن مقتضى التعاون أن تحول بين الإنسان وما يذهب بقوته العاقلة أو يضعفها ما استطعت أن تحول ، فإن كان لك سلطان منعته بيدك الغالبة ، وإن كنت مرشداً منعته بموعظتك الحسنة . ونصح الطبيب فى معالجة من تصاب عقولهم بشىء من الخلل داخل فى قبيل هذا التعاون المطلوب .

ومن شواهد التعاون على حفظ النسل أن الشريعة رغبت فى النكاح وجعلت من شروط صحته الإشهاد ، فمن حضر ليشهد به فقد أخذ بأدب التعاون على حفظ النسل ، ومن الآخذين بهذا الأدب المحمود الخاطب ، ومن يشفع لدى الزوجة أو وليها فى تخفيف نفقات العرس ، أو الرضا بالميسور من المهر .

ومتى ظهر فى الناس قلة الإقبال على الزواج . وجب على حكماء الأمة والقائمين على مصالحها أن يتعاونوا فى البحث عن علل قلة الزواج ، ويتخذوا الوسائل إلى علاج هذه العلل ، حتى تعود الأمة إلى الفطرة السليمة ، وتسير فى طهر ، وينمو عددها نماء يكفل حياتها ، ويكسبها قوة على القيام بنفسها .

ومن شواهد التعاون على حفظ المال بحمايته من التلف أو العمل على نمائه ، أن الشارع قرر الإيصاء ، وهو أن يعهد الأب لمن يعرف فيه الأمانة وجودة الرأى بالنظر فى شئون ابنه من بعده ، ومن مقتضيات الإيصاء حفظ مال الطفل والتصرف فيه على ما تقتضيه المصلحة ، فقيام الوصى على أمر الطفل بحزم ونصح معونة على حفظ ماله وإصلاح حاله .

ومن هذا الباب تقرير الشارع لباب القراض ، وهو إعطاء مال لمن يتجر به على أن له جزءاً من ربحه ، فصاحب المال يعين العامل على كسب جزء من المال كانت يده فارغة منه ، والعامل يعين صاحب المال على تنمية ماله . ولولا إعانة هذا العامل لبقى المال عند حد ، وقد ينقصه الإنفاق حتى يذهب به جملة .

ومن هذا القبيل فتح الشارع لباب عقد الشركات فى الأموال . وهى

خلط شخص ماله بمال آخر على أن يتصرف كل منهما فى المالين فى حال حضرة شريكه وغيبته ، أو فى حال حضرته فقط .

وفى هذا النوع من التعاون فائدة عظمى لا توجد عند عمل كل واحد فى ماله منفرداً ، فإن ضم القليل إلى القليل يصيره كثيراً ، وهذه الكثرة تجعل الشركاء قادرين على جلب بضائع مرتفعة القيم ، أو مختلفة الأجناس والأصناف ، ولولا الشركة لضاق باع كل منهم أن يصل إلى تلك البضائع ذات القيم المرتفعة ، أو ذات الأجناس والأصناف المختلفة ، فتقل الأرباح ولا يجد أهل البلد على تفاوت طبقاتهم كل ما يقوم بحاجاتهم ويوافق رغباتهم . ونجاح الشركات قائم على تحقق الأمانة والسير على نظم علم الاقتصاد الصحيح فمن الملائم لروح التعاون فى الإسلام تأليف شركات تحتفظ بعهد الأمانة . وتسير على نظم يراعى فيها قواعد الاقتصاد المعقولة وتسعها أصول الشريعة الغراء .

والتعاون بالنظر إلى ما تقع به المعونة إما أن يكون تعاوناً بالنفس ، كأن تدفع بيدك أو سلاحك صائلا على نفس أو مال ، وإما أن يكون تعاوناً بالمال ، كالقرض والهبة والصدقة وضرب الدية فى قتل الخطأ على العاقلة ، وإما أن يكون تعاوناً بالرأى كأن تشير على الرجل بما يخرجه من حيرة أو ينقذه من عطب ، وإما أن يكون تعاوناً بالجاه ، كأن تشفع لذى حاجة عند من يملك قضاءها ، قال صلى الله عليه وسلم : « اشفعوا تؤجروا(١) » . وقال عليه السلام : « والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه(٢) » . وتتفاوت همم الناس فى مصارف الجاه ، وأصغرهم همة من يستخدمه فى منافعه الخاصة ، ولا يوجهه إلى قضاء المصالح العامة ؛ وقد دلنا التاريخ على أن كثيراً من زعماء الإسلام وعلمائه يدوسون منافعهم الخاصة بأقدامهم وإذا وجدوا موضعاً لنفوذ الكلمة لم يذكروا إلا مصلحة عامة أو مصالح أشخاص يبتغون من السعى لها رضا الله فى الدنيا والآخرة .

وخلاصة المقال : أن الإسلام أقام التعاون على أساس محكم ، ومد له فى كل ناحية من نواحى الحياة بسبب ، فإذا وضع المسلمون أيديهم على هذه الأسباب الوثيقة ، بلغت بهم المكانة المحفوفة بالعزة ، المشار إليها بقوله تعالى : **(ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)** .

---

(١) النسائى . (٢) صحيح مسلم

علة إعراض الشبان عن الزواج وعلاجها

فى الشعوب من يهضم حقوق الزوجة ، ويقسو فى عشرتها ، وفيهم من تكون إرادته تابعة لإرادتها ، ورأيه ملغى أمام رأيها . وقلما أخلصت المرأة لمن يهضم حقوقها ويسىء عشرتها ، وقلما طاب للرجل عيش مع زوجة تكون كلمتها فوق كلمته ، وقلما اغتبط بولد تضعه من لا تحترمه فى حضوره فضلا عن غيبته .

أما الإسلام فكان بين ذلك قواماً : أنقذ المرأة من أيدى الفريق الذين يزدرون مكانها ، وتأخذهم الجفوة فى معاشرتها ، فقرر لها من الحقوق ما يكفل راحتها وينبه على رفعة منزلتها ، ثم جعل للرجل حق رعايتها ، وإقامة سياج بينها وبين ما يخدش كرامتها . ومن الشاهد على هذا قوله تعالى : **(ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة)** فجعلت الآية للمرأة من الحقوق مثل ما للرجل . وإذا كان أمر الأسرة لايستقيم إلا برئيس يدبره ، فأحقهم بالرياسة هو الرجل ، الذى شأنه الإنفاق عليها ، والقدرة على دفاع الأذى عن ساحتها . وهذا ما استحق به الدرجة المومأ إليها فى قوله تعالى : **(وللرجال عليهن درجة)** .

فالإسلام أصلح الصلة بين الرجل والمرأة ، وجعلها بمأمن من أن يلحقها وهن ، أو يعلق بها كدر . وبعد أن أحكم صلة الزواج ، وهذب حواشيها : حث على الزواج ، وجعله من سننه التى يعد تاركها من غير عذر ، مستخفاً بما أمر الله .

وإذا نظرت إلى أن حكمة الله تعالى قد اقتضت بقاء النسل ، لإقامة الشرائع ، وعمران الكون ، وإصلاح الأرض ، وأن النسل الصالح لا يبقى

إلا بالزواج ، رأيت كيف كان الزواج وسيلة إلى تحقيق أمور عظيمة أحب الله أن تكون ، وحبب للناس القيام عليها .

وإن كنت من علماء الأخلاق ، ونظرت إلى أن هناك فضيلة يقال لها العفاف . وعرفت أن الزواج مما يعين على التحلي بهذه الفضيلة ، ظهر لك أن الزواج وسيلة من وسائل الفضائل ، وكثيراً ما تأخذ الوسائل حكم المقاصد فى نظر الشارع ، وفى عرف الناس .

وإذا نظرت إلى النساء « الجنس اللطيف » وما فطرن عليه من الضعف وعدم إطاقة الأعمال الشاقة ، شهدت فيهن العجز عن أن يهيئن لأنفسهن مرافق الحياة ، ويعشن فى شيء من الراحة . والزواج يصل ضعفهن بقوة ، ويسوق إليهن جانباً من الهناءة . ولو قصد الرجل بالزواج كفاية المرأة ما يعنيها من مطالب الحياة . لقصد لعمل يكسبه شكوراً ، وتزداد به صحيفة حياته نوراً :

أو ليس الزواج يكسب الرجل رفيقة تخلص له ودها ، وتشمل منزله برعايتها ؟ ومثل هذه الرفيقة التى تحمل حبه الطاهر ، وتعمل لتدبير منزله فى غير من ولا تباطؤ . لا تتمثل إلا فيمن تربطه بها صلة الزواج .

وليس الزواج صلة مقصورة على الزوجين فحسب ، بل تمتد هذه الصلة من الزوجين إلى أسرتيهما ، فتكون حلقة واسعة فى سلسلة اتحاد الأمة ، وللصلات الخاصة كالقرابة والصهر أثر فى التناصر كبير .

والزواج يكسب الرجل ولداً إن يحسن تربيته ، كان له قرة عين فى حياته ، وذكراً طيباً بعد وفاته . ومن ذا ينكر أن الولد المهذب من أجل النعم فى هذه الحياة ؟

فللزواج مصالح تكثر بكثرته . وتقل بقلته . وتفقد بفقده . وقد عرفت قيمة هذه المصالح ، ومكانها فى إعلاء الدين ، وبسط أجنحة العمران وتخفيف متاعب الحياة .

ويكفى الإعراض عن الزواج شراً أنه علة خراب الديار . واليد القابضة لروح العفاف . والوسيلة إلى ابتذال فتياتنا وعيشهن فى تعب أو فى غير صيانة . فمن واجب من يغارون على الفضيلة ، أو على عمارة الأوطان ،

أو على الفتيات المصونات ، أن يعملوا للتعاون على مكافحة هذا الوباء المتفشى فى البلاد ، وهو انصراف شبابنا عن الزواج .

الزواج صلة بين الرجل والمرأة ، تسوق إليه الفطرة السليمة ، وتدعو إليه الشرائع الحكيمة . وما زالت نفوس البشر تنساق فيه مع الفطرة ، وتجيب به داعى الحكمة ، إلا نفوساً لم تسلم فطرتها ، أو عميت عن حكمة خالقها . وقد كانت هذه النفوس المعرضة عن الزواج لعدم سلامة الفطرة ، أو لجهلها بما فى الزواج من حكمة ، مغمورة بالنفوس الآخذة بسنته ، العاملة على تحقيق حكمته ، فلم يشعر الناس بالنقص أو الفساد الذى دخل فى المجتمع من ناحية أولئك المعرضين عن الزواج .

أما اليوم . فقد أصبح انصراف شبابنا عن الزواج فى ازدياد ، حتى ظهر فى مظهر ينذرنا سوء المنقلب ، وما بعد هذا المنقلب إلا الانقراض ، فحرام علينا أن نقف أمام هذا الخطر الداهم صامتين ، وحقيق علينا أن نبحث عن العلل التى أصبحت بها قلة الزواج ظاهرة ظهور المرئى بالعين الباصرة . وعلينا بعد البحث عن هذه العلل النظر فى طريق معالجتها ، لعلنا نقطعها من منبتها ، وننقذ فتياتنا . ونحفظ أمتنا . ونطهر أوطاننا من خبائث لا تظهر إلا من إعراض الفتيان عن الزواج .

وإذا بحثنا عما يصح أن يكون سبباً لهذه الأزمة الاجتماعية . وجدناه يرجع إلى علل مختلفة .

وأظهر هذه العلل تبرج كثير من الفتيات تبرج من استولى عليهن الهوى ، ونضب من وجوههن ماء الحياء ، حتى استوى فى هذا التبرج الممقوت بعض الناشئات فى بيوت غير فاضلة ، وبعض المترددات على مدارس لا تعنى بتلقين الفضيلة ، ولا يؤلمها أن تذهب الفتاة فى الخلاعة إلى غاية قصوى .

وهذا المظهر الذى ظهر به كثير من فتياتنا اليوم ، قد جعل الشاب يحجم عن الزواج مخافة أن ينساق إلى قرينة تستخف بجانب الصيانة ، كما تستخف به هؤلاء السافرات المتهتكات .

وليس هذا الخوف بحق ، فإن البيوت المحتفظة بالحشمة ، الآخذة بأدب

الصيانة ، غير قليلة ، يهتدى إليها كل من يبتغى الحياة الطاهرة ، ولا سيما فتى لايعنيه من الفتاة إلا أن يرتاح قلبه إذا نظر إليها ، ويأمن على عرضه إن غاب عنها .

وإذا أردنا معالجة هذا التبرج الذى أوجس منه الشبان خيفة ، فإن تبعته تعود إلى أولياء هؤلاء المتبرجات ، إذ لم يأخذوا فى تربيتهن بالحزم ، ولا فى الرقابة عليهن باليقظة . فمن طرق مكافحة الإعراض عن الزواج ، مقاومة هذا السفور القاضى على كرامة فتياتنا ، وإرشادهن إلى أن الصيانة خير من الابتذال ، والحياء أجمل من الصفاقة . وأى صفاقة أكثر من أن تقلب الفتاة وجهها فى وجوه الرجال !

ومن علل قلة الزواج ضعف العقيدة الدينية . فإن الإيمان بما ينال الفاسق من الخزى والشقاء ، يقر النفس على العفاف ، ويقطع تطلعها إلى ما ليس بحلال ، فلا يبقى لها إلا الاستمتاع بالزواج المباح . أما مزلزل العقيدة ، فلا يجد فى نفسه حرجاً من أن يطلق لشهواته العنان ، ويتقلب بها فى بيوت الدعارة ، وذلك ما يصرف قصده عن الزواج وهو يستطيع الزواج .

وإذا أردنا أن نعالج هذه العلة ، فإن أكبر جانب من تبعة ضعف العقيدة يقع على المتولين لتربية النشء ، حيث لم يعملوا لتلقينهم العقائد الصحيحة تلقيناً يجعلها راسخة رسوخ الشجرة الطيبة : أصلها ثابت ، وفرعها فى السماء .

فعلاج هذه العلة أن نسعى لأن يكون نشوئنا على تربية دينية صحيحة ، والدين هو الذى يزكى النفوس ، فلا ترى القبيح حسناً ، ولا الخبيث طيباً .

ومن علل قلة الزواج تشوف كثير من الشبان للاقتران بذات ثروة ، وذوات الثروة اللاتى يقبلن على التزوج بالشبان المقلين غير كثير . فهل لأساتيذ التربية وخطباء المنابر ، أن يلقنوا للنشء نصائح فى الزواج ويوجهوا نفوسهم إلى الناحية التى تجىء منها راحة البال ، وانتظام الحياة ، ودوام العشرة وهى طيب منبت الزوجة ، وسماحة أخلاقها ، وسمو آدابها ؟ ! وأريد بطيب المنبت أن تنشأ فى بيت يرعاه ذو غيرة وحزم وإن كان قوت أهله كفافا ،

قال صلى الله عليه وسلم : « الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة(١) »
وقال صلى الله عليه وسلم : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك(٢) » .

وانظروا كيف عنيت الشريعة الإسلامية بوصف الكفاءة بين الرجل والمرأة ، ومن وجوه الكفاءة أن يكون حال الرجل من جهة المال والحسب مناسباً لحال المرأة من هذه الجهة ، وإنما عنيت بالكفاءة بين الزوجين ، وجعلت المال من مقوماتها ، لأن أمر الزواج لاينتظم فى غالب الأحوال إلا أن يكون الرجل محترماً فى عين المرأة ، وشأن المرأة أن لا تحترم من يكون أقل منها مالا أو حسباً ، فلا يجد منها المعاشرة التى يود دوامها ، ولا يطمع أن تطيعه بالمعروف ، فيكون مرتاح القلب للاقتران بمثلها .

وقد يكون سبب الإعراض عن الزواج اتساع رغبات النساء فى صنوف الملابس والمآكل والفرش ، ونحوها من أمتعة البيوت ووسائل الرفاهية ، حتى صارت كل طبقة تنظر إلى ما فوقها من الطبقات ثروة ، وتجتهد أن تحاكيها فى الترف ومظاهر الأبهة . فإن صممت الفتاة على محاكاة الأسر التى هى أوسع غنى وأنمى ثراء من أسرة زوجها ، فإما أن تجد من الزوج غفلة أو ضعف إرادة ، فترهقه بما تقترحه من النفقات إرهاقاً ، ومصير من ينفق من غير سعة الفاقة والإفلاس ، وإما أن يقابل مقترحاتها الخارجة عن مستطاعه بشىء من الحزم والنظر فى العواقب ، فينفق بمقدار ما يسعه كسبه ، وهى بعد هذا إما أن تجنح إلى الفراق ، وإما أن تبقى مع زوجها الحازم فى حالة من ترى أنها مبتلاة بهذا الزوج الذى لا يفى بجميع رغائبها . وماذا ترى فى عيشة صاحبين يعتقد أحدهما أن صحبته للآخر قد جرت عليه شقاء ، وإلى عيشه كدراً ؟ فهل يقطعان مسافة الحياة فى شىء من الراحة والصفاء ؟ !

أما التى تعود إلى رشدها ، وتقنع بالرزق الذى يسوقه الله تعالى إلى زوجها ، فأمثالها فى هذا العصر ، ولا سيما الناشئات فى المدن ، غير كثير .

قد يكون هذا المرض الخلقى المتفشى فى فتياتنا أحد الأسباب التى صرفت

---

(١) صحيح الإمام مسلم .
(٢) رواه الإمامان البخارى ومسلم .

الشبان عن الزواج . لأن الشاب يخشى أن يبتلى بزوجة تتعدى بمطالبها وما تشتهيه نفسها حدود المعروف ، فإما أن ترهقه عسراً . وإما أن تسل ثوبها من ثوبه جانحة للفراق ، وإما أن تبقى معه على غير مودة خالصة . وإذا لم تخلص المودة بين الصاحبين . فلا تسل عن كثرة ما يدور من مناقشات ومنغصات .

ونحن لا ننازع فى أن اتساع رغبات النساء فى شئون الحياة قد تجاوز حد المستطاع . ولكنا لا نسلم أنه نزعة عامة . وطبيعة لا تتحول حتى نتخذ منه للشبان الذين لا يقبلون على الزواج معذرة ، بل نرى أن اتساع الرغبات إلى الحد الذى يثبط عن الزواج إنما هو شائع فى طبقات الناشئات فى ترف ، أو من يتصلن بهن ولم تسبق لهن تربية نافعة . أما الأسر التى تعيش فى حالة اقتصاد وفيها أثارة من تهذيب ، فإن فتاتهم تقنع بما يسره الله لزوجها من رزق ، وتغتبط بحسن خلقه ومودته وبذله الوسع فى إنعام بالها ، غير ناظرة إلى ما تقصر عنه يده من الأشياء الزائدة على الضروريات والحاجيات . وليست هذه الأسر المهذبات بقليل . فلو وجه الفتيان هممهم إلى لذة الحكمة والعلم ، وعرفوا أنهم يجدون مع الفتاة المهذبة من راحة الضمير والتفرغ لاكتساب المجد مالا يجدونه مع الفتاة الواسعة الرغبات ، لكان لهم فى مصاهرة تلك الأسر الفاضلة ما يجعل ضمائرهم فى راحة ، وعيشهم فى هناء .

فمن يبلغ شبابنا هذه الحقائق ، ليعلموا أن إعراضهم عن الزواج قتل لفضيلة العفاف ، وحرمان للأوطان من نسل طيب ، وإطفاء لمصابيح الحياة الاجتماعية الراقية ! ولا أراهم بعد أن يعلموا هذه الحقائق وهم عشاق الفضيلة . والغيورون على المصالح العامة ، والعاملون لحياة الأمة ورقيها ، إلا أن يطهروا نفوسهم من محاكاة الإباحيين فى الإعراض عن الزواج وهم يستطيعونه ، فيكونوا بتوفيق الله تعالى أيادى بانية لا هادمة ، ومصلحة لا مفسدة : (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت . وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب).

• • •

النبوغ فى العلوم والفنون

فى الناس من يجمع علماً غزيراً ، أو يروى أدباً واسعاً . وقد يؤلف فتعد مؤلفاته بالمئات أو الآلاف من الصفحات . ولكنا لا نجد فيها ألف من مئات الصفحات وآلافها شيئاً زائداً عما كتبه الناس من قبله . ويسوغ لنا أن نسمى هذا العالم أو الأديب « حافظاً » أو « ناقلا » .

أما العالم أو الأديب الذى يدرس فنسمع منه ما لم نكن قد سمعنا ، ويؤلف فنقرأ له ما لم نكن قد قرأنا ، فذلك ما يحق لنا أن نسميه نابغة أو عبقرياً .

فالنابغة أو العبقرى هو الذى يحدث علماً أو فناً من فنون الأدب لم يكن شيئاً مذكوراً . كما صنع الخليل بن أحمد فى علم مقاييس الشعر . أو ينقله من قلة إلى كثرة . كما صنع عبد القاهر الجرجانى فى علم البلاغة ، ودون هذه الدرجة درجات وسمو كعب العالم أو الأديب فى العبقرية على قدر ما يأتى به من أفكار مبتكرة ، أو ما يستطيعه من حل المسائل المعضلة .

أما ابتداع الرجل للعلم أساليب تجعل مأخذه أقرب وتناوله أيسر ، فليس بنبوغ فى نفس العلم ، وإنما هو نبوغ فى صناعة التأليف فيه .

وإذا كانت العصور قد تبسط يدها بالعلماء الناقلين كل البسط ، فإنها لا تسمح بالعبقرى إلا قليلا .

فتية لم تلد سواها المعالى　　　والمعالى قليلة الأولاد

تقوم العبقرية على الذكاء والجد فى طلب العلم ، ثم على كبر الهمة ، فمن لم يكن ذكياً لم يكن حظه من العلم إلا أن يحفظ ما أنتجته قرائح العلماء من قبله . ومن لم يجد فى طلب العلم ، ولم يغذ ذكاءه بثمرات القرائح المبدعة ، بقى ذكاؤه مقصوراً فى دائرة ضيقة ، فلا يقوى على أن يحلق فى سماء العلوم ، ليبلغ الغاية السامية ، وماذا تصنع المرأة الكيسة فى بيت

لا مؤونة فيه ولا متاع ؟ يقولون : إن ابن سينا لم ينم مدة اشتغاله بالعلم ليلة واحدة كاملة . ولا اشتغل فى النهار بسوى المطالعة . وقالوا : لم يترك ابن رشد النظر ولا القراءة منذ عقل إلا ليلة وفاة أبيه . أو ليلة بنائه على أهله .

ومن لم تكن همته فى العلم كبيرة ، لم يكفه ذكاؤه ولا جده فى الطلب لأن يكون عبقرياً ، فقد يكون الرجل ذكياً مجداً فى التحصيل ، وصغر همته يحجم به أن يوجه ذكاءه إلى نقد آراء قديمة ، أو ابتكار آراء جديدة حميدة :

إذا غامرت فى شرف مروم فلا تقنع بمـا دون النجـوم

والعبقرى يلذ العلم أكثر مما يلذه الناقلون ، وإنا لنرى الرجل يرتاح للعلم ينحدر من سماء فكره أكثر مما يرتاح للعلم الذى ينساق إليه من فكر غيره . ولا يزيد هو على أن يودعه حافظته . قال تقى الدين السبكى فى أبيات أجاب فيها عن سؤال يتعلق بآية من الكتاب المجيد :

لأسرار آيات الكتاب معـان تدق فلا تبـدو لكل معـان
إذا بارق قد لاح منها لخاطرى همت قرير العين بالطـيران

ولشدة ارتياح النابغة لاستخراج المعانى من معادنها . وتخليص الآراء الراجحة من بين الآراء الواهية . تجده أحرص الناس على العلم . وأشدهم أنساً به . وأثبتهم على الانقطاع له .

مهيئات النبوغ :

للنبوغ مهيئات ، منها أن ينشأ الذكى فى درس أستاذ يطلق له العنان فى البحث ، ويرده إلى الصواب برفق . ويثنى عليه إن ناقش فأصاب المرمى. نقرأ فى ترجمة العلامة إبراهيم بن فتوح الأندلسى أنه كان يفسح لصاحب البحث مجالا رحباً، بل يطلب من التلاميذ أن يناقشوه فيما يقرر ، ويحثهم على ذلك . ويختار طريق التعليم به . وشأن العالم العبقرى أن يقبل على التلميذ المتقد ذكاء، ويأخذ بيده فى طريق التحصيل حتى يعرف كيف يكون عبقرياً.

ومن مهيئات النبوغ أن يشب الألمعى بين قوم يقدرون النوابغ قدرهم ؛ فإن نظر القوم إلى النابغة بعين التجلة ، وإقبالهم عليه باحتفاء ، مما يزيد

الناشئين الأذكياء قوة على الجد فى الطلب ، والسعى إلى أقصى درجات الكمال.

ولا عجب أن يظهر النابغون فى العلم والأدب ببلاد الأندلس . فقد كان أهلها كما قال صاحب نفح الطيب : « يعظمون من عظمه علمه . ويرفعون من رفعه أدبه ، وكذلك سيرتهم فى رجال الحرب : يقدمون من قدمته شجاعته ، وعظمت فى الحروب مكايده » .

وظهر فى عالم الإسلام خلفاء وملوك ووزراء ، كانوا يقدرون النوابغ ويحتفون بهم لنبوغهم . مثل المأمون العباسى وعبد الله بن طاهر وسيف الدولة . والصاحب بن عباد ، فى الشرق . وعبد الرحمن الناصر . والمنصور ابن أبى عامر . والمعتمد بن عباد . فى الأندلس . وأسوق مثلا لهذا التقدير أن القاسم بن سلام عرض على عبد الله بن طاهر تأليفه فى غريب الحديث فقال عبد الله : إن عقلا بعث صاحبه على عمل هذا الكتاب . حقيق بأن لا يحوج إلى طلب المعاش . وأجرى عليه عشرة آلاف درهم فى الشهر .

وقد يهيء الناشيء للنبوغ أن يسبقه أب أو جد بالنبوغ . فإن كثرة تردد اسم سلفه العبقرى على سمعه ، ومطالعته لبعض آثار عبقريته يثيران همته . ويرهفان عزمه لأن يظفر بما ظفر به سلفه من منزلة شامخة . وذكر مجيد.

وإذا رأينا كثيراً من أبناء فطاحل العلماء ، لم يتجاوزوا مرتبة العلماء الناقلين . فلنقص فى ذكائهم الفطرى . أو لعلل نفسية صرفتهم إلى نواح غير ناحية العبقرية .

ومن مهيئات النبوغ نشأة الذكى فى حاضرة زاخرة بالعلوم والآداب إذ فى الحواضر يلاقى الناشيء جهابذة العلماء . وأعلام الأدباء . وفى الحواضر يشتد التنافس فى العلوم والفنون ، ويتسع مجال المحاورات والمناظرات .

ومن مهيئات النبوغ قراءة مؤلفات النابغين فى العلم بعد الاطلاع على كتب غيرهم . فلا يرجى من ناشيء النبوغ فى علم متى وقف عند دراسة الكتب التى تسوق المسائل مجردة من أدلتها . غير معنية بالغوص على أسرارها وإنما يرجى منه النبوغ متى وضعت تحت نظرة كتب يرى مؤلفها كيف يستمدون آراءهم من الأصول العالية ولا يوردون مسألة إلا بعد أن يعززوها بالدليل .

ومن مهيئات النبوغ مطالعة تراجم النابغين المحررة بأقلام تشرح نواحى نبوغهم . وتصف آثارهم . ومؤلفاتهم المنقطعة النظير ، ثم ما يخصه بهم عظماء الرجال من تقدير وتمجيد .

ومن مهيئات النبوغ الرحلة والتقلب فى كثير من البلاد . ولا سيما بلاداً تختلف بعاداتها وأساليب تربيتها ومناهج حياتها العلمية والسياسية ولعل نبوغ ابن خلدون فى شئون الاجتماع ذلك النبوغ الرائع ؛ إنما جاءه من نشأته فى تونس . ثم سياحته فى بلاد الجزائر والمغرب الأقصى والأندلس ثم مصر . سياحة اعتبار . سياحة اتصل فيها برؤساء حكوماتها وأكابر علمائها . بل سياحة كان يقبض فيها أحياناً على طرف من سياسة تلك البلاد .

تقدير النبوغ :

يعرف الناس أن زيداً عالم أو أديب . أما بلوغه مرتبة النبوغ فى علم أو فن من فنون الأدب . فإنما يعرفه من درسوا ذلك العلم أو الفن دراسة تمكنهم من الحكم بأن ما يثمره فكر هذا العالم أو الأديب جديد بديع .

فمن لم يدرس علم الطب مثلا لا يستطيع أن يصف أحداً بالنبوغ فيه إلا أن يقلد فى وصفه بعض كبار الأطباء . ومن لم يدرس علوم اللغة ليس من شأنه أن يشهد لأحد بالنبوغ فى هذه العلوم إلا أن يتلقى تلك الشهادة من أفواه أساتذة اللغة وآدابها . وأعد من تعقل ابن حزم . أنه كتب رسالة بين فيها كيف أبدع أهل الأندلس فيما ألفوه فى العلوم والفنون . ولما وصل إلى علم الحساب والهندسة . قال : « وأما العدد (الحساب) والهندسة فلم يقسم لنا فى هذا العلم نفاذ . ولا تحققنا به . فلسنا نثق بأنفسنا فى تمييز المحسن من المقصر فى المؤلفين فيه من أهل بلدنا .

وإذا انتشر العلم والأدب فى بلد أو قطر . كان أهله أعرف بأقدار النبغاء . وربما عاش العبقرى فى بلد ويكون ذكره فى بلد آخر أذيع ، وشأنه فيه أعلى . نشأ العلامة أبو عبد الله التلمسانى فى تلمسان . وعاش بها ، ويقول الكاتبون فى التعريف به : « وكان علماء الأندلس أعرف الناس بقدره ، وأكثرهم تعظيماً له » .

وأشار إلى هذا المعنى بعض من نشأ أو أقام بين قوم لم يقدروا فضل براعته . فقال :

وما أنا إلا المسك فى غير أرضكم   يضـوع وأما عنـدكم فيضيع

أثر النبوغ فى العلم :

عرفنا أن العلماء الناقلين مزيتهم فى حفظ أقوال من تقدمهم . وليس من شأنهم أن يتقدموا بالعلوم ولو خطوة . وإنما الذى يبتكر العلوم . أو تكون له يد فى تلاحق مسائلها قليلا أو كثيراً هو العبقرى .

ولا يستغنى علم من العلوم عن عبقرى يضيف إليه مسائل . أو يحل منه مشاكل . أو يجيد تطبيق أصوله العالية على فروعها .

فعبقرية الأئمة المجتهدين أورثتنا هذه الثروة العظيمة من أصول الشريعة وأحكامها العائدة إلى حفظ الدين والأنفس والأعراض والأموال وعبقرية علماء الكلام دخلت فى تفاصيل الإلهيات والنبوات . فخاصت الحقائق من الأوهام . وحفظت أصول الدين من أن تزلزلها عواصف الشبهات . وعبقرية المناطقة استنبطت هذه القوانين التى تساعد العقل السليم على أن تكون آراؤه صائبة . وحججه ساطعة . وعبقرية علماء العربية جعلت مقاييس اللغة ومحاسن بيانها فى متناول نشئنا يجرون عليها فى خطبهم وأشعارهم فيسترعون الأسماع . ويأخذون بالألباب .

وهكذا ننظر إلى كل فن من الفنون التى تقوم عليها المدنية الفاضلة الرائعة . فنجده وليد العبقرية التى تخرق القشر وتنفذ إلى اللباب . فحاجة العلم إلى العبقرى لا يقضيها الجماعات التى تقنع بالحفظ وإن كثروا . ومما ينبه لهذا المعنى قول محمد بن عيسى القوصى يرثى العلامة ابن دقيق العيد :

لو كان يقبل فيك حتفك فدية   لفـديت من علمائنـا بألوف

أثر النبوغ فى شرف الأمة :

للنبوغ فى عظمة الأمة حظ كبير . لذلك نرى الشعوب والقبائل يباهى بعضها بعضاً بالنابغين فى علم أو أدب أو سياسة . وانظروا إلى رسالة كتبها

أبو الوليد الشقندى فى فضل الأندلس على بر العدوة . وقد ملأها بقوله يخاطب أهل العدوة : هل لكم فى علم كذا مثل فلان وفلان ؟ وذكر البارعين فى الفقه والنحو والأدب والشعر والتاريخ والهندسة .

ولابن حزم رسالة نوه فيها بفضل الأندلس ، فذكر طائفة من جهابذة تلك البلاد : يقيسهم ببعض علماء الشرق وأدبائه ، فيقول مثلا : فلان نباهى به جريرا أو الفرزدق ، وفلان نسابق به محمد بن إسماعيل البخارى ، وفلان نناطح به محمد بن الحكم ، وفلان وفلان لم يقصروا عن أكابر أصحاب محمد ابن يزيد المبرد .

أثر النبوغ فى علو الهمة :

أشرنا إلى أن النبوغ يقوم على كبر الهمة فى العلم . ونقول الآن : إن النبوغ ينحو بصاحبه نحو عزة النفس ويرفع همته عن أن تسلك طريق الملق والخضوع لإدراك نحو منصب أو مال . فإن شعور العبقرى برفعة منزلته العلمية . يريه أن كل ما عدا هذه المنزلة أهون من أن تطمح إليه النفوس أو تحرص عليه . وقد نال ابن حزم الوزارة . ولما رأى العلم فوق كل مرتبة انصرفت نفسه عنها . وطلقها بتاتاً من تلقاء نفسه . وانقطع للبحث والتحرير .

كيف نصعد بأبنائنا فى مراقى النبوغ :

تختلف نفوس الناشئين فى الميل إلى العلوم . كل نفس تميل إلى ما يوافق طبعها . فترى نفساً تختار علماً ، ونفساً تختار علماً غيره ، ولندع الفلسفة تبحث عن سر موافقة هذا العلم لطبع هذه النفس ، ونكتفى بأن نعلم أن هذه النفس تميل إلى هذا العلم . لنتوجه بها إلى التخصص به ، فتطلبه برغبة زائدة على رغبتها فيه من حيث إنه علم ، وقد أدرك هذا علماؤنا من قبل ، فنقرأ فى التعريف بحياة العلامة أبى عبد الله التلمسانى أنه كان يترك كل طالب يتخصص بالعلم الذى تميل إليه النفس .

ومناهج التعليم اليوم تقتضى تخصص كل طائفة بقسم من العلوم ؛ ولا يكفى توجه الطالب إلى التخصص بقسم من العلوم لأن يكون نابغاً فيه ،

وما فتح أبواب التخصص إلا أحد المهيئات للنبوغ . وقد تفوت الطالب القريحة الوقادة والألمعية المهذبة ، أو تفوته الهمة التي تطمح به إلى بلوغ الذروة في العلم ، فعلى القائمين على شئون التعليم العام أن لا يكتفوا بأن تخرج أقسام التخصص في كل عام فرقاً يؤدون الامتحان ، ويحرزون شهادات تخولهم ولاية بعض المناصب ، بل واجبهم أن يوجهوا عنايتهم إلى ذوى الذكاء المتقد وإن كانوا من أبناء البيوت الخاملة . وربوا فيهم الهمة الطامحة إلى أسمى الغايات . ويقووا عزائمهم بكل وسيلة ممكنة ، حتى يسيروا في طريق العبقرية . فإن سلامة الأمة وسيادتها ، على قدر ما تخرجه معاهدها وجامعاتها من أساتذة أجلاء ، أساتذة لا يتركون في العلم الذي يتخصصون به غامضاً إلا استكشفوه . ولا باباً من أبوابه إلا نفذوا منه ..

* * *

الحلم

وأثره في سعادة الحياة الفردية والاجتماعية

ترغب النفوس فى أشياء ، وتنفر من أخرى . وفى النفوس طبيعة غضب تثور عند منعها مما ترغب فيه ، أو عند ملاقاتها لما تنفر منه . ومن المخل بنظام حياة الأفراد والجماعات إطلاق العنان لقوة الغضب ، تثور كلما منعت النفوس مما تحب . أو لقيت ما تكره . بل الحكمة أن تكون قوة الغضب خاضعة للعقل خضوعاً يجرى فى النفس مجرى الطبيعة ، حتى لا تهيج إلا للأمر الذى ينبغى أن تهيج له . وفى الوقت الذى ينبغى أن تهيج فيه ولا تتجاوز الحد الذى ينبغى أن تقف عنده .

ومن بلغ أن تكون قوة غضبه منقادة للعقل ، جارية على مقتضى العلم ، فهو الحليم بحق .

وليس من شرط الحلم أن يفقد الرجل قوة الغضب بحيث يكون حاله أمام الإساءة وعدمها سواء ، وإنما شرط الحلم أن لا يطغى الغضب حتى يدفع الرجل إلى الانتقام ، أو يمنعه من الصفح حيث يكون الصفح أولى به .

فالحليم قد يأخذه الغضب لجهل جاهل عليه . لكنه يكظم غيظه حتى لا يكون له أثر فى غير نفسه .

ولربما ابتسم الكريم من الأذى   وفؤاده من حره يتأوه

وقد يسلم من الغضب للأمر الذى يستشيط له الأحمق غضباً .

والحلم لا يعارض الأخذ بالحزم ، شأن الفضائل ، يأخذ بعضها بيد بعض وتتلاقى لتتعاون على البر والتقوى . فإذا كان الحلم سكون النفس وعدم تهيجها

للمكروه الذى يكفى فى دفعه الصفح عنه ، فإن من الحزم الغضب للأذى الذى يصدر عن لؤم ، ويتمادى ولو مع الإغضاء عنه . قال المتنبى :

إذا قيل رفقا قال للحلم موضع   وحلم الفتى فى غير موضعه جهل

وقال النابغة :

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له   بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

وقال الحسين بن عبد الصمد يمدح بعض الأمراء :

عجبوا لحلمك أن تحول سطوة   وزلال خلقك كيف عاد مكدرا

لا تعجبوا من رقة وقساوة   فالنار تقدح من قضيب أخضرا

وقال آخر :

أناة فإن لم تغن عقب بعدها   وعيداً فإن لم يغن أغنت عزائمه

والحلم لا يشتبه بالذلة فى حال ، فإن الذلة احتمال الأذى على وجه يذهب بالكرامة ؛ أما الحلم فهو إغضاء الرجل عن المكروه حيث يزيده الإغضاء فى أعين الناس رفعة ومهابة .

سياسة الحلم لا بطش يكدرها   فهو المهيب ولا تخشى بوادره

ولا يظهر معنى الحلم إلا مع القدرة على دفع الأذى باليد أو اللسان ، لهذا نرى كثيراً من الشعراء متى أرادوا مدح شخص بمزية الحلم ؛ نبهوا على أنه يصفح وهو قادر على أن يجزى السيئة بمثلها ، أو بما هو أكبر منها كما قال ابن زمرك يمدح سلطان غرناطة :

ويغضى على العوراء إغضاء قادر   ويرجح فى الحلم الجبال الرواسيا

وقال ابن زيدون يمدح بعض الأمراء :

أرى الدهر إن يبطش فأنت يمينه   وإن تبسم الدنيا فأنت لها ثغر

عطاء ولا منٌّ وحكم ولا هوى   وحلم ولا عجز وعز ولا كبر

ونراهم متى أرادوا الفخر بالحلم أشاروا إلى قدرتهم على مقابلة السوء بمثله كما قال عمرو بن قيس :

وذى ضغن كففت النفس عنه   وكنت على مساءته قديرا

ولو أنى أشاء كسرت منه   مكاناً لا يطيق له جبوراً

وكل الأخلاق فى حاجة إلى أن تتعهد بالتربية والتهذيب ؛ وأشدها حاجة

إلى ذلك التعهد الحلم . ولم نسمع أحداً قال : ترددنا على فلان لنأخذ عنه الشجاعة أو الكرم مثلا — ولكن الأحنف بن قيس يقول : لقد اختلفنا إلى قيس بن عاصم فى الحلم كما نختلف إلى الفقهاء فى الفقه .

وكثيراً ما يشكو الأدباء من قلة الحلم فى الناس . قال بعضهم :

من لى بإنسان إذا أغضبته وجهلت كان الحلم رد جوابه

وقال أبو العتاهية :

عذيرى من الإنسان ما إن جفوته صفا لى ولا إن صرت طوع يديه
وإنى لمشتاق إلى ظل صاحب يرق ويصفو إن كدرت عليه

وروى أن الخليفة المأمون لما سمع هذين البيتين قال : خذوا منى الخلافة واعطونى هذا الصاحب .

ومكارم الأخلاق كلها خير . وكل مكرمة ترفع صاحبها فى الشرف درجة أو درجات ، ومن أعظمها أثراً فى سعادة حياة الأفراد والجماعات : خلق الحلم ؛ ويكفى الحلم شرفاً أن اسمه أخذ من بين أسماء الفضائل ، وسمى به العقل . ومن الحكم الذائعة فى كتب الأدب قولهم : ما أضيف شىء إلى شىء أزين من حلم إلى علم . ومن عفو إلى مقدرة .

قد يقطع الحلم شراً لم يقابل بالحلم لتمادى أو عظم خطره . قال أيوب : حلم ساعة يدفع شراً كبيراً . وقال الأحنف « من لم يصبر على كلمة سمع كلمات . ورب غيظ تجرعته مخافة ما هو شر منه » .

وقد يضع الحلم مكان الضغينة مودة ؛ ذلك أن الفضيلة محبوبة فى نفسها وتدعو إلى إجلال من يتمسك بها ، وقد نبه القرآن المجيد لهذه الحكمة بقوله : **(ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم)** .

وبالحلم يحفظ الرجل على نفسه عزتها ، إذ يرفعها عن مجاراة الطائفة التى تلذ المهاترة والإقذاع . كان عروة بن الزبير إذا أسرع إليه أحد بشتم أو قول سوء ؛ لم يجبه وقال : « إنى أتركك رفعاً لنفسى عنك » .

ونرى الناس فى جانب الحليم متى كان خصمه أو مناظره ينحدر فى

جهالة . ولا يندى جبينه أن يقول سوءاً . قال علي بن أبي طالب : « حلمك على السفيه يكثر أنصارك عليه » .

ومن فضل الحلم أن الرياسة صغيرة كانت أو كبيرة . لا ينتظم أمرها إلا أن يكون الرئيس راسخاً في خلق الحلم . قال معاوية لعرابة بن أوس : بم سدت قومك يا عرابة ؟ قال يا أمير المؤمنين : « كنت أحلم على جاهلهم، وأعطي سائلهم ، وأسعى في قضاء حوائجهم » وذلك أن الناس يكرهون جافي الطبع ولا يجتمعون حول من يأخذه الغضب لأدنى هفوة إلا أن يساقوا إليه سوقاً فمن قل نصيبه من الحلم قل أنصاره ، وذهبت من قلوب الناس مودته ، والرئيس يحق من يملك القلوب قبل أن يبسط سلطانه على الرقاب .

ثم إن أعز غاية تعمل لها الجماعات : التمتع بنعمة الحرية ، ولا تظفر الجماعات بهذه البغية إلا أن يكون الماسك زمام سياستها على جانب عظيم من الحلم . فإن الحليم هو الذي يقدم الناس على نقد تصرفاته ، ويصرحون له بآرائهم فيما لا يرضون عنه من أعماله . أغلظ رجل إلى معاوية بن أبي سفيان القول فحلم عنه . فقيل له : أتحلم عن هذا ؟ فقال : إني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا .

ويعجبني من الشعر المعبر عن الحلم البالغ أبيات محمد بن عميرة المعروف بالمقنع الكندي التي يقول فيها :

وإن الذي بيني وبين بني أبي ... وبين بني عمي لمختلف جداً
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم ... وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجداً

حتى قال :

ولا أحمل الحقد القديم عليهم ... وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا

ونرى الرؤساء الأذكياء ، يقصدون إلى الوسائل التي قد تثير غضبهم على طائفة من الأمة . فيقطعونها ، لما انتهت فتنة ابن المعتز ، وعاد المقتدر إلى الخلافة ، واستوزر علي بن الفرات ، حمل إلى هذا الوزير من دار ابن المعتز صندوقان عظيمان فيهما جرائد بأسماء من بايعوا ابن المعتز . فلم يفتحهما الوزير ورمى بهما في النار ، وقال : لو فتحتهما وقرأت ما فيهما فسدت نيات الناس

علينا . فسد ابن الفرات بهذه السياسة باب الغضب على أشخاص قد يدفع الغضب عليهم إلى فتنة لا يدرى كيف تكون عاقبتها . وإذا وجد الناس فى التغلب على الغضب عسراً ، فإن لدى الرؤساء أولى القوة ما يجعلهم أقرب إلى الحلم من غيرهم . وهو القدرة على الانتقام من المسىء متى شاءوا . قال ابن المقفع : لا ينبغى للملك أن يغضب فإن القدرة من وراء حاجته .

والشعور بالقدرة على مجازاة المسىء إن لم يؤد إلى الصفح عنه ، فإنه يساعد فى الأقل على التمهل فى العقوبة ، فإن اندفاع الرجل إلى العقوبة عند ثورة الغضب قد يلقى به فى العقاب على السيئة بأعظم منها . قال مروان ابن الحكم فى وصيته لابنه عبد العزيز عندما ولاه عاملا على مصر « إن كان بك غضب على أحد من رعيتك فلا تؤاخذه به عند ثورة الغضب ، واحبس عقوبتك حتى يسكن غضبك ، ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب ، مطفأ الجمرة » .

وأعظم فوائد الحلم : الفوز برضا الخالق جل شأنه . فإنه قد دعا إليه فى آيات كثيرة . قال تعالى : (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) . وقال تعالى : (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) وكثير من المؤمنين يؤذون فيضبطون أنفسهم عند الغضب ابتغاء رضا الخالق تعالى اسمه . شتم رجل عمر بن ذر فقال له : إنى أمتُّ مشاتمة الرجال صغيراً ، فلن أحييها كبيراً ، وإنى لا أكافىء من عصى الله فى بأكثر من أن أطيع الله فيه .

وصفوة الحديث أن الحلم يحتاج إليه عميد الأسرة فى منزله ، والتاجر فى محل تجارته ، والعالم فى مجلس دراسته ، والقاضى فى مقطع أحكامه ، والرئيس الأعلى فى سياسة رعيته ؛ بل يحتاج إليه كل إنسان ما دام الإنسان مدنياً بالطبع ، لا يمكنه أن يعتزل الناس جملة ، ويعيش فى وحدة مطلقة .

التصوف

اختلفوا فى أصل كلمة الصوفية ، وذهبوا فيه مذاهب أصحها أنها مأخوذة من الصوف ، لأن الزهاد كانوا يعمدون إلى لبس الصوف بعداً وتجنباً للبس الفاخر من الثياب . وهناك آراء ضعيفة . منها أن الصوفية نسبة إلى صفة لشبه الزهاد بأهل الصفة ، وهم جماعة من فقراء الصحابة كانوا يقيمون بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم عابدين متفقهين لا يفارقونه إلا لجهاد عدو . وهذا الوجه لا يوافق قاعدة النسب فى اللغة ، فإن القاعدة تقضى أن يقال فى النسب إلى صفة : صفية ، لا صوفية . ومنها أن الصوفية نسبة إلى آل صوفة . تشبيهاً لهؤلاء الزهاد بآل صوفة ، وهم قوم كانوا يخدمون الكعبة فى الجاهلية ويتنسكون . ويبعد هذا الوجه أن آل صوفة قد ذهبوا بذهاب عصر الجاهلية . وقد تسمى هؤلاء العباد والزهاد فى الإسلام باسم الصوفية . وقبلوا هذا الاسم ، ولا أحسبهم يرضون بنسبتهم ولو على وجه التشبيه إلى طائفة كانت فى الجاهلية على غير هدى . ومنها أنها نسبة إلى الصوف على معنى أنهم آثروا الإنكسار فكانوا كالصوفة المرمية . وهذا وجه سخيف لا يلتفت إليه . ومنها أن الصوفية نسبة إلى الصف ، لأنهم فى الصف الأول بين يدى الله تعالى . وقاعدة النسب لا تساعد على هذا الوجه ، كما أنها لا تساعد على أن يكون مأخوذاً من الصفاء ، لصفاء نفوسهم وخلوص قلوبهم من شوائب الأهواء . وسيئات الأخلاق . وهذا الاسم حدث بعد عهد السلف ، قال السهروردى فى كتاب عوارف المعارف : لم يعرف هذا الاسم إلى المائتين من الهجرة . وذكر ابن تيمية جماعة من الزهاد منهم الفضيل بن عياض المتوفى سنة ١٨٧ .

وقال : فى عصرهم حدث اسم التصوف . وقال القشيرى فى الرسالة : واشتهر هذا الاسم . يعنى التصوف . قبل المائتين من الهجرة . وذكر حسن صديق فى كتاب أبجد العلوم : أن أول من دعى بهذا الاسم أبو هاشم الصوفى . وقد توفى أبو هاشم هذا سنة ١٥٠ .

والتصوف : رياضة النفس ومجاهدة الطبع . برده عن الأخلاق الرذيلة وحمله على الأخلاق الجميلة ابتغاء السعادة . وهذه الرياضة والمجاهدة تكون بالعكوف على العبادة والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها . والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة مال أو جاه .

التصوف قبل الإسلام :

متى أريد من التصوف الزهد فى الدنيا . والانقطاع إلى العبادة . ومجاهدة النفس بكفها عن الشهوات . صح أن يبحث عن هذا المعنى فى الأمم التى وجدت قبل الإسلام . وإذا بحثنا عن هذا المعنى مع قطع النظر عن اختلاف أوضاع العبادات أو اختلاف الغرض من تلك المجاهدة . رأينا أن لحكماء اليونان فى طلب الحقائق طريقتين : طريقة أرسططاليس وأتباعه . وهى طريقة البحث والقياس العقلى أو الاستقراء . وتسمى بالحكمة المشائية(١) . وطريقة أفلاطون وأتباعه . وهى طريقة المكاشفة وانقداح الحقائق فى النفس . وتسمى حكمة الإشراق . لأنها تعتمد على إشراق العقل بالارتياض والتجرد عن الرذائل . فالإشراقيون من الحكماء الإلهيين يشبهون الصوفية فى مسلكهم إلا ما يخالفون فيه هدى الإسلام قال السهروردى فى حكمة الإشراق : « والإشراقيون لا ينتظم أمرهم دون سوانح نورية حتى إن وقع لهم شك يزول عنهم بالنفس المنخلعة عن البدن » .

وفى البوذية ما يشبه الرهبانية . فإن مؤسس هذه النحلة دهرى لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر (جوتما(٢)) ومن مبادئه أن الشقاوة فى الدنيا ناشئة

---

(١) سميت بالمشائية لأن زعيم هذه الطريقة وهو أرسطو كان يعلم تلاميذه وهو يمشى معهم .

(٢) توفى سنة ٤٨٠ قبل المسيح .

عن الشهوات . فيجب إطفاء هذه الشهوات لينجو الإنسان من الشقاوة ، ويرى هؤلاء أن هناك محرمات على الرهبان والراهبات خاصة : وهي التزين بالزهور . والتطيب بالروائح الذكية . وسماع الغناء . والتفرج على الرقص ، والجلوس على الأسرة العالية . واقتناء الذهب والفضة والجواهر . ويقولون : إن (جوتما) كان من أبناء الملوك وزهد في الدنيا لما رأى فيها من شقاوة الشيخوخة والأمراض والموت . فهجر أهله وولايته ، ودخل جبل الثلج يتقشف ويتفكر .

ووجد ما يشبه التصوف أعني الزهد والانقطاع إلى العبادة في الفرس . نرى ذلك منذ عهد زرادشت الذي ظهر في أيام الملك كيستاسف . فإن كيستاسف نفسه على ما ورد في التاريخ سار إلى جبل كرمان وسجستان وانقطع به للعبادة ودراسة دينهم ، وسلم أمر الملك إلى ابنه اسفندار(١) .

وورد في تاريخ الفرس أن أزدشير بن بابك من أعاظم ملوكهم ، تبين أن الدنيا غرارة ضرارة قاتلة . ما حلا منها لامرىء جانب إلا تمرر منها عليه جانب . فزهد في الدنيا وآثر التفرد عن المملكة وتركها والتحق ببيوت النيران للعبادة والأنس بالوحدة(٢) .

وفي النصرانية رهبانية تشبه التصوف من حيث قيامها على الزهد والانقطاع إلى العبادة . قال الله تعالى في شأن النصارى « وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون » . ومن المعاني الظاهرة في الآية أن قوماً من أتباع عيسى ابتدعوا رهبانية يبتغون بها رضوان الله . ولكنهم لم يرعوا هذه الرهبانية حق رعايتها . أي لم يحافظوا عليها حق المحافظة . وجاء

---

(١) تاريخ ابن خلدون .

(٢) مروج الذهب للمسعودي .

فى بعض الأحاديث المتعلقة بفرق النصارى « وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازرة الملوك ، ولا بالمقام معهم ، فساحوا فى الجبال وترهبوا فيها(١) » .

التصوف بعد الإسلام :

عنى الإسلام بتصفية النفوس من طبائعها الرديئة ، وتخليصها من شهواتها الطاغية ، ثم عطف على الأجسام فخلى سبيلها لأن تتمتع من نعيم هذه الحياة وزهرتها باعتدال ، فبقدر ما يدرك الإنسان من صفاء النفس وسلامة الضمير وبقدر ما يكون له من السلطان على شهواته فلا تتعدى حدود الاعتدال يصعد فى مراقى الفلاح ، ويدنو من مقام الكرامة والوجاهة عند الله .

روى أن فريقاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمعوا وقرروا فيما بينهم أن يسردوا الصيام ويعكفوا على العبادة ولا يقربوا النساء والطيب ، وأن يرفضوا الدنيا ، ويسيحوا فى الأرض ، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم فنهاهم فى خطبة جامعة ، وأنزل الله تعالى **« يا أيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »** .

كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يجدون فى العمل ما استطاعوا ، ويزهدون فى الدنيا زهد من لا يتناول منها إلا حلالا طيباً ، وزهد من لا تلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وهم فى هذا السبيل يتسابقون ويتفاضلون ، وقد اشتهر كثير منهم بالجد فى العبادة والبلوغ فى الزهد مكانة فضلى . ومن هذه الطائفة أبو ذر الغفارى وسلمان الفارسى رضى الله عنهما .

أما أبو ذر فكان يحض عمال عثمان رضى الله عنه حينما يراهم يتسعون فى المراكب والملابس فيتلو عليهم قوله تعالى : **« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم»** وكان يملأ آذانهم تقريعاً ، ويدعوهم ويشتد فى دعوته إلى أن ينفقوا ما زاد على حاجتهم فى سبيل الخير ، وهذا أمر يطيقه الخاصة ولا يحتمله كل إنسان ، فأنهى معاوية أمره إلى عثمان ، فكتب عثمان يأمر أبا ذر بالقدوم إلى المدينة ، فقدمها واجتمع إليه الناس ،

---

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان والحاكم وصححه .

فجعل يسلك بهم ما كان يسلك فى الشام ، فقال له عثمان : لو اعتزلت ! .
ومعناه أن من كان مثلك فى هذه المكانة من الزهد فحاله يقتضى أن ينفرد عن الناس : أو يخالطهم فى رفق ويخلى سبيلهم ما قضوا حقوق أموالهم ، وأدوا فريضة الزكاة على وجهها . فخرج أبو ذر إلى الربذة زاهداً ورعا ، وترك من ورائه قوماً يضاهونه أو يقاربونه زهداً وورعا .

وأما سلمان الفارسى فكان عطاؤه خمسة آلاف ، فإذا خرج عطاؤه تصدق به جميعاً ، ولا يقتات إلا بما كسبت يده ، تمسكاً بمثل قول النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه البخارى « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده » . ويدلكم على مكانته فى الزهد والتقوى كتابه الذى بعث به من العراق إلى أبى الدرداء وهو يومئذ القاضى بدمشق ، ومما يقول فيه : « أما بعد فقد كتبت إلى أن الله رزقك مالا وولداً ، اعلم أن الخير ليس فى المال والولد . وإنما الخير أن يكثر حلمك ، وينفعك علمك . وكتبت إلى أنك نزلت فى الأرض المقدسة ، اعلم أن الأرض لاتقدس أحداً ، وإنما يقدس الإنسان عمله » .

هكذا كانت سيرة الزهاد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهكذا كانت مواعظهم : أعمال مشروعة خالصة ، وأقوال رشيدة واضحة .

وفى عهد التابعين أقبلت طائفة من فضلائهم يتحدثون فى أحوال النفس من حيث صفاؤها وصلتها بالخالق جل شأنه ، وزهدها فى زخرف هذه الحياة ، واشتدت عنايتهم بالحديث فى هذه الآداب ؛ وكانوا يأخذون بها أنفسهم ، ويرشدون إليها غيرهم ، ويلقبون فى ذلك العهد الزهاد والوعاظ .

ومن أشهر هذه الطائفة الحسن البصرى . وكان صاحب حديث وفقه وبيان وعلم بالقرآن ، فصحبه طوائف من الناس شتى . فنهم من صحبه ليأخذ عنه الحديث والأخبار ، ومنهم من صحبه ليستفيد منه البلاغة والبيان وعلم القرآن ، ومنهم من صحبه ليتلقى عنه الفقه والأحكام ، وهو مع هذا يتكلم فى محاسبة النفس والمراقبة والإخلاص والمحبة واليقين والشغف بذكر الله ، وكان يعقد لحديث فى هذا السبيل مجلساً فى منزله لايشهده إلا طائفة يتوسم فيهم الكفاية لأن يفهموا ، والقوة لأن يعملوا . وكان لا يتحدث فى هذا

المجلس إلا فى هذا الباب من العلم . قال أبو سعيد بن الأعرابى : لم يبلغنا أن أحداً ممن تكلم فى هذه المذاهب (يعنى أحوال النفس) ودعا إليها وزاد فى بيانها وترتيبها وصفات أهلها ، مثل الحسن البصرى .

كان هؤلاء الفضلاء يصرفون هممهم إلى تزكية النفوس من نقائصها وإسلام القلوب إلى ربها ، يشهد بهذا كلمهم الطيب ، ومواعظهم الحسنة . ومن مواعظ الحسن البصرى : « حادثوا هذه القلوب بذكر الله فإنها سريعة الدثور . واردعوا هذه النفوس فإنها طلعة تنزع إلى الشر عادة » . وعلى هذا الطراز يقول عامر بن قيس أحد زهاد التابعين « لقد أحببت الله حباً سهل على كل مصيبة ، ورضانى بكل قضية . فما أبالى مع حبى له ما أصبحت عليه وما أمسيت » .

وأخذ بعض الناس فى عهد التابعين ينحو نحو الغلو فى الزهد . وكان الحسن البصرى نفسه ممن يحارب هذا الغلو الذى لا يرتضيه الإسلام. ومما نقروه فى تاريخ هؤلاء أن رجلا قال : أنا لا أكل الخبيص لأنى لا أقوم بشكره ، فقال الحسن البصرى : هذا رجل أحمق ، وهل يقوم بشكر الماء البارد !

فزهد الحسن البصرى وأمثاله من فضلاء التابعين لا يحيد عن منهج الشريعة يميناً ولا يساراً .

وتخرج فى مجلس الحسن البصرى وغيره طبقة عالمة زاكية . منهم مالك بن دينار ، وحبيب العجمى ، وعبد الواحد بن زيد . وبقى هؤلاء الذين يلقبون بالزهاد والوعاظ لا يمتازون عن جمهور الناس إلا بكثرة ما يعملون من صالح ، وبشدة ما يحملون من خشية الله والعزة به والاعتماد عليه ، وبانصراف هممهم عن التعلق بما فى هذه الحياة من شهوات أو حطام .

وفى خلال القرن الثانى صار الزهاد والوعاظ يسمون بالصوفية حسبما تقدمت الإشارة إليه فى صدر البحث .

أخذ الزهاد والوعاظ لقب الصوفية ، وما برحت طريقتهم قائمة على قواعد الدين ورعاية آدابه . وممن استقاموا من رجال القرن الثانى الفضيل ابن عياض ، وداود الطائى ، ومالك بن دينار ، وإبراهيم بن أدهم .

وظهر فى عهد هؤلاء نفر كانوا يتشبهون بهم على جهالة ، ويظهرون للناس بغير ما كانوا يسرون ، وهم الذين يقول فيهم الإمام الشافعى :

ودع الذين إذا أتوك تنسكوا وإذا خلوا فهم ذئاب خفاف

وجعل الصوفية يتحدثون عما يرد عليهم من الخواطر وما يجدونه من الأذواق ، ويعبرون عن هذه الخواطر والأذواق بكلمات إما مألوفة ، وإما غير مألوفة ، حتى أصبح التصوف فى القرن الثالث مذهباً ذا قواعد واصطلاحات.

يصف لنا التاريخ صوفية القرن الثالث ، فنرى كثيراً منهم على طريق سلمان الفارسى والحسن البصرى ، مثل أبى القاسم الجنيد بن محمد ، وسهل ابن عبد الله التسترى ، ويحيى بن معاذ الرازى ، وذى النون المصرى وبشر الحافى وسرى السقطى وأبى يزيد البسطامى .

ونرى بجانبهم قوماً آخرين خلطوا التصوف بشىء من أصول الفلسفة الإشراقية ، وشاع يومئذ الغلو فى الزهد ، وراج ما توهمه بعضهم من أن التوكل نزع اليد من الأسباب جملة .

وأخذ بعض المنتمين إلى التصوف فى ذلك العهد ينطقون بعبارات خارجة عن حدود الشريعة ، كالكلمات التى هى ظاهرة فى معنى الحلول والاتحاد مثل ما قال الحلاج(١) « أنا الحق » وقال : « ما فى الجبة إلا الله » ويعبرون عن مثل هذه الأقوال فى اصطلاحهم بالشطحات .

ودخل فى التصوف من الباطل فى ذلك العهد ما يزعمه بعضهم من أن السالك للطريق تسقط عنه أحكام الشريعة من أوامر ونواه . ومن عبارات هؤلاء : « الاشتغال بالأوراد عن الورود انقطاع عن الغاية » . وأنشد أحد شعرائهم :

يطالب بالأوراد من كان غافلا فكيف بقلب كل أوقاته ورد

ومنهم من يقول : تسقط الأوامر والنواهى عمن شهد الحقيقة ، ووصل إلى مقام الفناء فيها . ويقول قائل من هؤلاء : العارف لا ينكر منكراً لاستبصاره

---

(١) الحسين بن منصور الحلاج المقتول سنة ٣٠٩ .

بسر الله فى القدر . ويقولون : العارف لايستقبح قبيحة ولا يستحسن حسنة . وقد سئل الجنيد رحمه الله عن هذه الطائفة فقال : الذى يسرق ويزنى ، أحسن حالا ممن يزعم هذا ! .

قال الغزالى : لو زعم زاعم أن بينه وبين الله حالا أسقطت عنه الصلاة وأحلت له شرب الخمر وأكل مال السلطان ، كما زعمه بعض من ادعى التصوف ، فلا شك فى وجوب قتله ، وإن كان فى خلوده فى النار نظر ، وقتل مثله أفضل من قتل مائة كافر ، لأن ضرره أكثر ! أ هـ .

وشعر يومئذ بعض المستقيمين من الصوفية بنحو هذا الانحراف وما يماثله من الانسلاخ عن عقائد الدين أو أحكامه العملية فقاوموه بالإنكار والتنبيه على أنه ضلالة وجهالة .

قال الجنيد : مذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة . ويقول : الطريق كلها مسدودة على الخلق إلا المقتفين آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال سهل التسترى : أصول مذهبنا ثلاثة(١) : الاقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم فى الأخلاق والأفعال(٢) أكل الحلال إخلاص النية فى جميع الأعمال . وقال أبوعثمان الحيرى : أسلم الطرق من الاغترار ، طريق السلف ولزوم الشريعة .

وفى ذلك العهد ظهر القول بأن العلوم لا تنال إلا من طريق مجاهدة النفس وقطع العلائق بينها وبين البدن ، والإقبال على الله بالكلية علماً دائماً وعملا مستمراً ، حتى تكشف له الغيوب ، ويرى الملائكة ، ويطلع على أرواح الأنبياء ويسمع كلامهم حتى ينتهى إلى مشاهدة الله جل جلاله . ونسب أبو بكر بن العربى هذا القول إلى الحارث بن أسد المحاسبى وإلى طائفة أتت بعده من الصوفية . والحق أن المكلف لايحتاج فى إيمانه الصادق ولا فى إقامة الأعمال الصالحة إلى أن تنكشف له الغيوب أو يطلع على العوالم الروحانية . فإن ما فى عالم الشهادة ، وما هدى إليه القرآن المجيد ، كافيان فى إشراق القلب بالإيمان الساطع ، والسير على النهج الموصل إلى السعادة فى الدارين .

---

(١) شرح الشيخ عبد القادر بن شقرون للربع الثانى من الأربعين .
(٢) كتاب العواصم من القواصم .

وكذلك استمر حال المنتمين إلى مذهب التصوف فى القرن الرابع فما بعده . فمنهم المستقيمون على السنة . ومنهم الظاهرون فى ثوب الزهد وهم يراءون ويبتدعون .

ومما اتصل بالتصوف مسألة الكرامات . فقد ذهب أهل السنة كما سبق الحديث عنها إلى جوازها بل إثباتها . ولكن الناس بالغوا أو أكثروا من نسبتها إلى الشيوخ الصوفية . ولعل هذه المبالغة والإكثار كانا سبب إثارة البحث عنها حوالى آخر القرن الرابع . فنرى أبا إسحاق الإسفرايينى (١) يجعل للكرامة حداً فيقول : غاية الكرامة إجابة دعوة أو شربة ماء فى مفازة ، أو كسرة فى منقطعة . ونرى أحد كبار الصوفية الأستاذ أبا القاسم القشيرى (٢) يقول : الكرامة لا تنتهى إلى وجود ولد من غير أب ، ولا إلى قلب جماد حيواناً . ومن العلماء من يذكر سيرة الصحابة والسلف الصالح رضى الله عنهم . فإذا تحدث الناس بكرامات لبعض الشيوخ لم يقع مثلها من أولئك الذين هم خير القرون ، لم يقبلها لمجرد تناقل بعض الألسنة لها . قيل لأبى حيان : ماذا تقول فى الشيخ أبى مدين ؟ قال : هو رجل دين ، وما كان يطير فى الهواء ، ولا يصلى الصلوات الخمس فى مكة كما يدعى فيه بعض الناس (٣) .

تعاليمه :

قد عرفت أن التصوف فى الأصل سلوك طريقة الزهد والانقطاع إلى العبادة ، ومحاسبة النفس على الأفعال والتروك . وليس لهذه المجاهدة فى عهد السلف تعاليم خاصة ، لأنها لا تزيد على العمل بما يرشد إليه الكتاب والسنة من أحكام ، ويدعوان إليه من مكارم الأخلاق وسنى الآداب .

ثم إن الصوفية أخذوا يتحدثون بما يعرض لهم فى أثناء المجاهدة من أحوال

---

(١) توفى سنة ٤١٨ .

(٢) المولود سنة ٣٧٦ .

(٣) نفح الطيب ترجمة ابن حيان ج أول .

وخواطر ، وبما ينتقلون فيه من مقامات . وصاروا يعبرون عن تلك المعانى بألفاظ جرت مجرى المصطلحات العلمية .

ومن هذه الناحية وجد بعض الجاهلين أو المضابن منفذاً لأن يضيفوا إلى التصوف معانى باطلة ، وشروحاً لتلك المصطلحات غير صالحة كالكلمات الظاهرة فى الحلول والاتحاد . قال الحافظ ولى الدين أبو زرعة العراقى فى كتابه « الأجوبة المرضية فى الأسئلة المكية » : أما ابن عربى فلا شك فى اشتمال « الفصوص » المشهورة عنه على الكفر الصريح الذى لا شك فيه ، وكذا فتوحاته المكية ، ثم قال : « وينبغى عندى ألا يحكم على ابن عربى بشىء ، فإنى لست على يقين من صدور هذا الكلام منه ، ولا من استمراره عليه إلى وفاته ، ولكن نحكم على هذا الكلام أنه كفر(١) » .

وحصل مما يتحدث به الصوفية من إلهام وأحوال ومنازل . معان ومصطلحات ، مضافة إلى آداب القوم من نحو الزهد والورع والشكر والذكر والتوكل والتواضع والعزة ، وأصبح مجموع ذلك علماً مستقلا . يسمى « علم التصوف » .

صلة التصوف بالفلسفة :

الصوفية المستقيمون الذين لم يدرسوا الفلسفة إنما يتكلمون عما يقتبسونه من حكمة الشريعة ، أو عما يجيئهم من طريق الإلهام والوجدان بعد عرضه على أصول الدين ، وأما من درسوا الفلسفة ، ثم تكلموا بلسان الصوفية ، فقد يدخلون فى هذا العلم بعض الآراء الفلسفية كمسألة وحدة الوجود ، فإنها دخلت فى التصوف من ناحية الفلسفة ، وقد يدخل هؤلاء بعض الآراء الفلسفية بحسن نية ، إذ يبدو لهم أنها من المذاهب التى يتقبلها الدين ، ولا يأبى اتصالها بهدايته السماوية . قال ابن تيمية فى حديث له عن أبى حامد الغزالى : « وأما التى يسميها علوم المكاشفة ، ويرمز إليها فى الإحياء وغيرها ، ففيها يستمد من كلام المتفلسفة . كما فى « مشكاة الأنوار » و « المضنون به على غير أهله »

---

(١) نقله ابن ذكرى فى شرحه للنصيحة .

وغير ذلك ، وبسبب خلطه التصوف بالفلسفة ، صار ينسب إلى التصوف من ليس موافقاً للمشايخ المقبولين الذين لهم فى الأمة لسان صدق ، بل يكون مبايناً لهم فى أصول الإيمان ، كالإيمان بالتوحيد والرسالة واليوم الآخر ، ويجعلون هذه مذاهب الصوفية » .

ودخول آراء غير إسلامية فى التصوف دفع بعض المؤلفين فى اعتقادات الفرق الإسلامية أن يعدوا الصوفية فرقة مستقلة ، كما صنع الرازى فى كتاب « اعتقادات فرق المسلمين والمشركين » إذ قال : « اعلم أن أكثر من حصر فرق الأمة لم يذكر الصوفية ، وذلك خطأ » ثم ذكر فرق الصوفية حتى ذكر فرقة الحلولية منهم . وقال : هم قوم ليس لهم من العلوم العقلية نصيب وافر ، فيتوهمون أنه قد حصل لهم الحلول والاتحاد ، فيدعون دعاوى عظيمة ، وأول من أظهر هذه المقالة فى الإسلام الروافض فإنهم ادعوا الحلول فى حق أئمتهم .

أما التصوف الخالص فإن السائرين فيه لا يخرجون عن مذهب السنة قيد أنملة .

أثر التصوف فى الحياة الإسلامية :

قد أريناك أن التصوف فى الأصل زهد فى الدنيا . ومحاسبة للنفس على كل ما تفعل أو تترك ، وانقطاع إلى عبادة الله فى إخلاص وعفاف وعزة ، واحتفاظ بحقوق العباد ، وجهاد فى سبيل الحق قدر المستطاع . وهو من هذا الوجه قد أتى بخير كثير ، وأنبت رجالا عرفوا بالتقوى والورع ، والدعوة إلى الخير بمواعظهم أو أحوالهم ، فكان لهم فضل كبير فى هداية كثير من الغافلين ، وتقويم كثير من المنحرفين ؛ ولكن آراء وأعمالا مبتدعة دخلت فى التصوف على جهالة أو سوء قصد ، فكان لها فى حياة المسلمين أثر سيء ، مثل الغلو فى الزهد وترك الأخذ بالأسباب فى طلب الرزق ، ومثل عبارات الحلول التى دسها فيه قوم ظهروا فى ثوب التصوف ، فأوقعت بعض الناس فى فتنة .

وكان لإسراف بعض المتصوفة فى الحديث عن المكاشفة والاطلاع على

ما فى العالم الروحانى ، والتصرف الخفى فى الكون ، أثر فى غلو بعض الناس فى الاعتقاد بعلو منزلة من يعتقدون صلاحه ، حتى ترى بعض العامة يمتنعون من أن يحلفوا بالرجل الصالح كذباً ، ثم لا يبالون أن يحلفوا بالله وهم يعلمون أنهم غير صادقين فيما يحلفون . والتوحيد الخالص أن تكون خشيتك الله فوق كل خشية .

ومن أثر التصوف المنحرف عن السبيل أنه أدخل فى العبادات مقصداً يجعلها صوراً من غير روح ، ذلك أن بعض الناس يتجردون للعبادة بقصد أن يصلوا بها إلى الاطلاع على عالم الأرواح وغرائب العلوم ، وأن تخرق لهم العادات ، وتجرى على أيديهم الكرامات . يروى أن بعض الناس لما سمع حديث « من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » تعرض للعبادة لينال الحكمة فلم يفتح له بابها ، فبلغت القصة بعض أولى البصيرة ، فقال : هذا أخلص للحكمة ولم يخلص لله . وقد عرفت أن العبادة بقصد انكشاف الحقائق نزعة فلسفية ، والعبادة الخالصة ما يقصد بها امتثال أمر الله ، والفوز بالسعادة فى دار السلام . وما يزيد على هذا من خيرات شأنها أن تتبع الاستقامة وصفاء السريرة ، فلا ينبغى الالتفات إليها عند أداء العبادة من فرائض أو نوافل .

وإليك جملة من أسماء أشهر من تدور أسماؤهم فى كتب التصوف ، سواء أكانوا ممن اتفق الناس على صلاحهم أم ممن وقع الطعن فيهم ، واخترنا أن نوردهم على حسب ترتيب وفياتهم . وإليك أسماءهم مع التعرض لبعض النواحى من حياتهم ، أو شىء من أقوالهم :

أويس القـــرنى :

أويس بن عامر القرنى : معدود من سادات التابعين ، روى له مسلم أشياء من كلامه ، وقد شهد صفين مع الإمام على ، وقتل يومئذ .

أبو مسلم الخراسانى :

أبو مسلم عبد الله بن ثوب ، وقيل اسمه يعقوب بن عوف . روى عن

عمر بن الخطاب ومعاذ : قال مالك بن دينار : أبو مسلم حكيم هذه الأمة . توفى سنة ٦٢ .

الحسن البصرى :

الحسن بن أبي الحسن يسار البصرى : معدود من سادات التابعين ، وهو الذى قال لابن هبيرة عندما سأله عن الأمر يأتيه من يزيد أفينفذه ويقلده ما نقلده من ذلك : « يابن هبيرة ! خف الله فى يزيد ولا تخف يزيد فى الله . إن الله يمنعك من يزيد ، وإن يزيد لا يمنعك من الله » . ومن كلامه « ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه إلا الموت » توفى سنة ١١٠ مائة وعشرة .

مالك بن دينار :

مالك بن دينار : روى عن أنس وسعيد بن جبير وعطاء . وكان لا يأكل إلا من كسب يده ، يكتب المصاحف بالأجرة . توفى سنة ١٣٠ .

رابعة العدوية :

رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية مولاة آل عتيك : توفيت سنة ١٣٥ ومن كلامها « اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم(١) » .

إبراهيم بن أدهم :

إبراهيم بن أدهم بن منصور : صحب سفيان الثورى ، وجمع بين الزهد ورواية الحديث . وروى عنه الثورى والأوزاعى . وكان لا يأكل إلا من عمل يده : كالحصاد ، وحراسة البساتين . توفى سنة ١٦١ .

ومن كلامه « لو علم الملوك ما نحن فيه من النعيم والسرور وقلة التعب لجالدونا عليه بالسيوف » ومن دعائه « اللهم انقلنى من ذل معصيتك إلى عز طاعتك » .

---

(١) ترجم لها ابن الجوزى فى كتاب « صفوة الصفوة » وابن خلكان فى تاريخه ، وقبرها بظاهر القدس من شرقيه على رأس جبل يسمى الطور .

داود الطائى :

داود بن نصير أبو سليمان الطائى الكوفى : درس الفقه ، وكان يختلف إلى الإمام أبى حنيفة ، ثم اختار العزلة وتخلى للعبادة . توفى سنة ١٦٥ .

ومن كلامه « صم عن الدنيا ، واجعل إفطارك فيها الموت . وفر من الناس فرارك من السبع . وصاحب أهل التقوى إن صحبت ، فإنهم أخف مئونة وأحسن معونة ، ولا تدع الجماعة » .

الفضيل بن عياض :

الفضيل بن عياض بن مسعود التميمى . ولد بخراسان . وقدم الكوفة وسمع بها الحديث ، ثم انتقل إلى مكة وجاور بها إلى أن توفى سنة ١٨٧ .

ومن كلامه « ترك العمل لأجل الناس هو الرياء . والعمل لأجل الناس هو الشرك » وقال : « لو كانت لى دعوة مستجابة لم أجعلها إلا فى إمام صالح لأنه إذا صلح الإمام أمن العباد » .

معروف الكرخى :

معروف بن فيروز الكرخى : كان نصرانياً ، فأسلم على يد على ابن موسى الرضا رضى الله عنه ، ولهذا عد من مواليه ، وهو أستاذ السرى السقطى . توفى سنة ٢٠٠ أو ٢٠١ .

أبو سليمان الدارانى :

عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الدارانى(١) توفى سنة ٢٠٥ . ومن كلامه « تقع فى نفسى النكتة من نكت القوم أياماً فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين : الكتاب والسنة » .

بشر الحافى :

بشر بن الحارث بن عبد الرحمن المعروف بالحافى . قال الحريرى :

---

(١) نسبة إلى داريا : قرية من قرى دمشق بالغوطة .

ما أخرجت بغداد أتم عقلا ، ولا أحفظ للسان من بشر . روى بشر عن مالك والفضيل بن عياض . وتوفى سنة ٢٢٧ ومن كلامه « من طلب الدنيا فليتهيأ للذل » وكان يقول لأصحاب الحديث « أدوا زكاة هذا الحديث . قالوا وما زكاته ؟ قال : اعملوا من كل مائتى حديث بخمسة أحاديث » .

المحاسبي :

الحارث بن أسد المحاسبي : روى عنه الإمام الجنيد وغيره وله تصانيف فى الرد على المعتزلة والرافضة وغيرهم، سئل عن العقل : ما هو ؟ فقال : نور الغريزة مع التجارب يزيد ويقوى بالعلم والحلم . توفى سنة ٢٤٣ . ومن كلامه « فقدنا ثلاثة أشياء : حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن القول مع الأمانة ، وحسن الإخاء مع الوفاء » .

ذو النون المصرى :

ثوبان بن إبراهيم . وقيل الفيض بن إبراهيم المصرى المعروف بذى النون : معدود فيمن روى الموطأ عن مالك بن أنس . وسعى به لدى المتوكل فاستحضره من مصر ، فلما دخل عليه وعظه فرق لوعظه ورده مكرماً . وعنه أخذ سهل بن عبد الله التسترى . توفى سنة ٢٤٥ .

سرى السقطى :

سرى بن المغلس السقطى : خال الإمام الجنيد وأستاذه . توفى سنة ٢٥٥ ، ومن كلامه « المتصوف اسم لثلاث معان : هو الذى لايطفىء نور معرفته نور ورعه ، ولا يتكلم بباطن فى علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب ، ولا تحمله الكرامات على هتك محارم الله تعالى » .

يحيى بن معاذ :

أبو زكريا يحيى بن معاذ الرازى : توفى بنيسابور سنة ٢٥٨ . ومن كلامه « من خان الله فى السر هتكه فى العلانية » وقال : « عمل كالسراب وقلب من التقوى خراب ، وذنوب بعدد الرمل والتراب ، ثم تطمع فى

الكواعب الأتراب ! هيهات ! أنت سكران بغير شراب . ما أكملك اوبادرت أملك ! ما أجلك لو بادرت أجلك ! ما أقواك لو خالفت هواك ! » .

أبو يزيد البسطامي :

طيفور بن عيسى البسطامي : توفى سنة ٢٦١ أو ٢٦٤ . ومن كلامه « لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتفع فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود والشريعة » .

أبو القاسم الجنيد :

هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد ، أصله من نهاوند . مولده ومنشؤه العراق . تفقه على أبى ثور ، وقيل كان فقيهاً على مذهب سفيان الثورى . وصحب خاله السرى السقطى والحارث المحاسبي وغيرهما . توفى سنة ٢٩٧ .

الدقاق :

أبو بكر أحمد بن نصر الدقاق ، من أقران الجنيد وأكابر مشايخ مصر . ومن كلامه « كل حقيقة لا تتبع الشريعة فهى كفر » وأراد بالحقيقة ما يسمى « الخاطر » .

أبو طالب المكى :

أبو طالب محمد بن عطية الحارثى : سكن مكة فنسب إليها . وقدم بغداد فوعظ الناس . ونسبت إليه عبارات ينكرها الشرع ، فبدعه الناس وهجروه . وامتنع من الكلام ، وهو صاحب كتاب قوت القلوب . توفى سنة ٣٨٦ .

أبو القاسم القشيرى :

أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيرى : تلقى العلوم عن أبى بكر بن فورك وأبى إسحاق الإسفرائينى وأبى على الدقاق وهو صاحب الرسالة القشيرية فى رجال الطريق . توفى سنة ٤٦٥ .

ابن الفارض :

عمر بن على بن المرشد الحموى الأصل ، المصرى المولد والدار . يقول الشعر الظاهر فى الغزل على أنه ينحو به نحو معان صوفية ، وديوانه معروف ، وقد أنكر عليه جماعة من علماء الشريعة هذا المسلك الذى لا يعرف فى عهد السلف ، وحكى المقريزى أن الشيخ محيي الدين بعث إلى ابن الفارض يستأذنه فى شرح التائية ، فقال له : كتابك المسمى بالفتوحات المكية شرح لها . توفى سنة ٦٣٢ .

محيي الدين بن عربى :

قرأ القرآن على أبى بكر بن خلف باشبيلية (من بلاد الأندلس) . وتلقى العلم ، ومال إلى الأدب ، وتولى الكتابة لبعض ولاة الأندلس . ثم رحل إلى المشرق حاجا فأدى الفريضة ولم يعد إلى الأندلس ، وأخذ الحديث عن شيوخ ، منهم أبو طاهر السلفى، وأبو الحسن بن نصر، وممن أجازه ابن عساكر وأبو الفرج بن الجوزى ، ودخل مصر ، وأقام بالحجاز مدة ، ودخل بغداد والموصل وبلاد الروم ، وصحب جماعة من الصوفية ، وتوفى بدمشق سنة ٦٥٦ أو سنة ٦٥٨ .

وكان الشيخ على مذهب الظاهرية فى العبادات . وقد اختلف الناس فيه ، فمنهم من يشهد له بالمنزلة الكبرى فى الصلاح والولاية ، ومنهم من ينسبه إلى الإلحاد . ذلك أن بعض مؤلفاته كما أشرنا قبل — تشتمل على عبارات إذا عرضت على أصول الشريعة لم تلتق معها بوجه من وجوه الدلالات المعروفة فى العربية ، وقد سلك مريدوه بهذه العبارات مسلك التأويل ولو على وجوه فيها غموض، ولم ير آخرون للشيخ عذراً فى هذا المسلك، فحكموا عليه بما يجب أن يحكموا به على غيره ممن لم ينسب إلى صلاح ، وقد سقنا إليك آنفاً رأى الإمام العراقى فى هذا ، وهو أنه لا يحكم على ابن العربى بشىء ، ولكنه يضع يده على العبارات المنكرة فى الفصوص أو الفتوحات ويقول : هذا كفر . وهؤلاء لا يؤولون المتشابه إلا إذا ورد فى كلام الشارع .

أحمد زروق :

أحمد بن أحمد بن محمد البرنسى الشهير بزروق : قرأ الفقه قراءة بحث وتحقيق ، ودرس الحديث والتوحيد والتصوف ، ومن شيوخه الشيخ عبد الرحمن الثعالبي ، والشيخ السنوسى ؛ وله مؤلفات فى التصوف ؛ منها كتاب القواعد فى التصوف ، وهو من رجال التصوف القائم على السنة ، الخالص من البدعة . توفى بتكرين من عمل طرابلس الغرب .

* * *

المروءة ومظاهرها الصادقة

خصلة رفيعة القدر . تجرى في منشآت الأدباء . ويتحدث عن معناها في علوم اللغة والشريعة والأدب والأخلاق ، تلك الفضيلة هي : المروءة .

ننظر في منشآت الأدباء من منظوم ومنثور ، فنجد لفظ المروءة وارداً في مقامات المدح ، كما قال زياد الأعجم يمدح عبد الله بن الحشرج :

إن السماحة والمروءة والندى　　في قبة ضربت على ابن الحشرج

أو الفخر كما قال أحد شعراء الحماسة :

عادوا مروءتنا فضلل سعيهم　　ولكل بيت مروءة أعداء

وقالوا في الذم : فلان زمن المروءة : أي أن مروءته دارسة بالية .

وننظر في كتب اللغة ، فنجدها تقول : المروءة : الإنسانية أو كمال الرجولية ، أو الرجولية الكاملة . وكمال الرجولية ينتظم من الأخلاق الحميدة ، والآداب السامية . فالمروءة إذاً هي جماع مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب ، فمن يفوته جانب من هذه المكارم أو المحاسن . يفوته جانب من العناصر التي تتكون منها المروءة .

ولاشتمال المروءة على جملة الفضائل يقتصر بعض الأدباء عليها في مقام إيجاز المديح كما قال سعيد بن حميد يعاتب صديقاً له :

ولئن سبقت لتبكين بحسرة　　وليكثرن على منك عويل
ولن سبقت ولا سبقت ليمضين　　من لا يشاكله لدى خليل
وليذهبن بهاء كل مروءة　　وليفقدن جمالها المأهول

وننظر في كتب الشريعة ، فنجد المروءة واردة فيما يروى من الأحاديث النبوية ، ونجد الفقهاء يذكرونها في بعض أبواب الفقه ، كباب القضاء ، وباب الشهادة ، ويقولون : المروءة صيانة النفس عن كل خلق رديء ،

والسمت الحسن ، وحفظ اللسان ، وتجنب السخف والخون . وقال آخرون منهم : المروءة أن لا يأتي الإنسان ما يعتذر منه مما يحط مرتبته عند أهل الفضل ، قال ابن سعيد يوصي ابنه :

وكل ما يفضي لعـــذر فلا تجعـله في الغـــربة من إربتك

وما يقوله علماء الشريعة غير بعيد مما يقوله علماء اللغة من أن المروءة كمال الرجولية .

وننظر في كتب الأدب . فنجدها تسوق لبعض بلغاء الرجال وحكمائهم عبارات تشير إلى بعض الواجبات والآداب التي تقوم عليها المروءة ، كما قال الأحنف بن قيس : المروءة العفة والحرفة . وقال ميمون بن ميمون : أول المروءة طلاقة الوجه ، والثاني التودد ، والثالث قضاء الحوائج . وقال مسلم بن قتيبة : المروءة الصبر على الرجال . أي الصبر على المكاره في معاشرتهم وقضاء مآربهم . وقال ابن هبيرة : المروءة إصلاح المال . والرزانة في المجلس ، والغداء والعشاء في الفناء . ويريد من إصلاح المال تنميته والتصرف فيه على وجه الصلاح ، وكنى بالغداء والعشاء في . الفناء عن الكرم والسخاء . وقال معاوية : المروءة ترك اللذة .

واللذات التي يعد تركها مروءة هي اللذات المحظورة على الإطلاق . واللذات الملهية عن الازدياد من الحمد وإن لم تكن من المحظورات .

نوم الغـــداة وشرب بالعشيات موكلان بتهـديم المـروءات

وعبارات هؤلاء البلغاء والحكماء لا تخالف قول اللغويين : المروءة كمال الرجولية ، لأن البلغاء قد يتسامحون في بيان معاني الألفاظ ، فيقتصر الواحد منهم على بعض المعنى اهتماماً بشأنه ، وحرصاً على أن يضعه نصب عين السائل ، ليكون ذلك أدعى إلى عنايته به ، ومحافظته عليه .

وننظر في كتب الأخلاق . فنرى بعضها يفسر المروءة بعظم النفس . ووجه هذا التفسير أن عظم النفس هو المنمي لمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب وعلى هذه المكارم والمحاسن يقوم كمال الرجولية .

ولا خلاف بين من تحدثوا عن المروءة أن هناك آداباً لا يعلو مقام الرجل فى المروءة إلا بالمحافظة عليها . وبين أيدينا منابع للمروءة عذبة صافية هى الكتاب الحكيم ، وسيرة النبى الكريم صلوات الله عليه . وإن فى آثار العظماء من السلف بعد ذلك لعبرة .

وها أنا أسوق إلى حضراتكم جملة من تلكم الآداب كأمثلة يزداد بها معنى المروءة وضوحاً ، فأقول :

من أدب صاحب المروءة أن يكون ذا أناة وتؤدة ، فلا يبدو فى حركاته اضطراب أو عجالة ، كأن يكثر الالتفات فى الطريق ، ويعجل فى مشيه العجلة الخارجة عن حد الاعتدال ، وأما السرعة بمعنى عدم التباطؤ والتثاقل ، فدليل الحزم ، والحزم من مقومات المروءة .

ويتصل بهذا الأدب أن يكون الرجل متئداً فى كلامه : يرسل كلماته مفصلة ، ولا يخطف حروفها خطفاً حتى يكاد بعضها يدخل بعضاً .

وحيث كان لحسن البيان دخل فى كمال الرجولية ، صح أن يعد فى مظاهر المروءة . وينبه لهذا قول عمر بن الخطاب : تعلموا العربية ، فإنها تزيد فى المروءة . ومن أدب صاحب المروءة أن يضبط نفسه عن هيجان الغضب أو دهشة الفرح ، ويقف موقف الاعتدال فى حالى الضراء والسراء .

ولست بمفراح إذا الدهر سرنى   ولا جازع من صرفه المتقلب

ومن هنا نرى ذا المروءة لا تطيش به الولاية فى زهو ، ولا ينزل به العزل فى حسرة . عدل معاوية عن تولية الأحنف بن قيس ثغر الهند فقال له زياد : إن الأحنف بلغ من الشرف والحلم والسؤدد ما لا تنفعه الولاية ، ولا يضره العزل . وقال قاضى قرطبة محمد بن بشير : والله لا أبالى فى الحق من مدحنى أو ذمنى ، وما أسر للولاية ، ولا أستوحش من العزل .

ومن أدب صاحب المروءة الصراحة والترفع عن المواربة والنفاق فلا يبدى لشخص الصداقة وهو يحمل له العداوة ، أو يشهد له باستقامة السيرة وهو يراه منحرفاً عن السبيل .

فسرى كإعلانى وتلك خليقتى   وظلمة ليلى مثل ضوء نهارى

والمراد أن صاحب المروءة لا يتخذ الظهور بخلاف ما يضمر عادة مثل ما يفعل قوم لا تشمئز نفوسهم من الملق والرياء ؛ أما إذا اقتضت الحكمة إخفاء بعض ما يضمر من نحو العداوة والصداقة ، فإن اتباع ما تقتضيه الحكمة، من مكملات المروءة .

ويتصل بهذا الأدب أدب آخر هو أن لا يفعل الرجل فى الخفاء ما لو ظهر للناس لعدوه من سقطاته . وقد رفع محمد بن عمران التيمى شأن هذا الأدب حتى جعله هو المروءة ، فقال لما سئل عن المروءة : أن لا تعمل فى السر ما تستحى منه فى العلانية .

وعمل القبيح فى السر يدل على أن تجنبه فى العلانية تصنع ورياء . والمروءة أن يجتنب الرجل القبائح لقبحها ووخامة عاقبتها .

وإذا وجد فى الناس من فيه استعداد لأن يعاشر من يحملون له فى أنفسهم عداء واستهانة بشأنه ، ولا يبالى أن يلاقيهم صباحاً ومساء لغير ضرورة ؛ فإن صاحب المروءة يستطيع أن يلاقى الناس بطلاقة وجه ، ولسان رطب . غير باحث عما تكنه صدورهم من مودة أو بغضاء ، ولكنه لا يستطيع أن يرافق ويعاشر إلا ودوداً مخلصاً .

وعش إمـا قرين أخ وفى أمين الغيب أو عيش الوحـاد

ويطلق خفيف الوزن لسانه فى أعراض الناس يلتقط معايبهم ، أو يختلق لهم معايب ، متخيلا أنه يحظى باسم المروءة من إلصاق العيب بغيره والعرب تقول : « فلان يتمرأ بنا » أى يطلب المروءة بنقصنا وعيبنا .

أما صاحب المروءة الصادقة ، فيبخل بوقته عن هذه الطوية الحقيرة ، ولا يرضى إلا أن يشغله بما تتقاضاه المروءة من حقوق . قال رجل لخالد ابن صفوان : كان عبدة بن الطيب لا يحسن يهجو ، فقال له : لا تقل ذلك فوالله ما تركه من عى ولكنه كان يترفع عن الهجاء ، ويراه ضعة ، كما يرى تركه مروءة وشرفاً ، وأنشد قول أبى الهيذام :

وأجرأ من رأيت بظهر غيب على عيب الرجال ذوو العيوب

وربما اضطر ذو المروءة أن يدافع شر خصومه الكاشحين بذكر شىء

من سقطاتهم ، ولكن المروءة تأبى له أن يختلق لهم عيباً يقذفهم به وهم منه براء ، فإن الأخبار بغير الواقع يقوض صرح المروءة ، ولا يبقى لها عيناً ولا أثراً ، قال الأحنف : لا مروءة لكذوب ، ولا سؤدد لبخيل .

ويتصل بهذا الأدب أن المروءة تحفظ لسان صاحبها أن يلفظ مثلما يلفظ أهل الخلاعة من سفه القول :

وحذار من سفه يشينك وصفه إن السفاه بذى المروءة زارى

ومن الاحتفاظ بالمروءة أن يتجنب الرجل تكليف زائريه ولو بعمل خفيف ، كأن يكون بالقرب من الزائر كتاب ، فيطلب منه مناولته إياه ، أو يكون بجانبه الزر الكهربائى فيشير إليه بالضغط عليه لإنارة المنزل أو استدعاء الخادم ، قال عمر بن عبد العزيز : « ليس من المروءة استخدام الضيف » .

والمروءة تنادى صاحبها أن يسود فى مجلسه الجد والحكمة ، وأن لا يلم فى حديثه بالمزاح إلا إلماماً ، وزناً فى أحوال نادرة ، قال الأحنف بن قيس : « كثرة المزاح تذهب المروءة » ووجه ذلك أن الذى يسرف فى المزاح يكثر منه الوقوع فى لغو الحديث ، ولا يخلو من أن تصدر منه كلمات تؤذى بعض جلسائه ، وكمال الإنسانية لا يلتقى بلغو الحديث ، أو إيذاء بعض الإخوان فى مجلس . ومن أدب المروءة حسن إصغاء الرجل لمن يحدثه من الإخوان ، فإن إقباله على محدثه بالإصغاء إليه يدل على ارتياحه لمجالسته ، وأنسه بحديثه ، وجاء فى الحديث الشريف : « من المروءة أن ينصت الأخ لأخيه إذا حدثه » وإلى هذا الأدب الجميل يشير أبو تمام بقوله :

من لى بإنسان إذا أغضبته ورضيت كان الحلم رد جوابه

وتراه يصغى للحديث بقلبه وبسمعه ولعله أدرى به

وشأن ذى المروءة أن يحتمل ضيق العيش ، ولا يبذل ماء حيائه وكرامته فى السعى لما يجعل عيشه فى سعة ، أو يديه فى ثراء ، قال مهيار :

ونفس حرة لا يزدهيها حلى الدنيا وزخرفها المعار

يبيت الحق أصدق حاجتيها وكسب العز أطيب ما يمار

وذو المروءة لا يظهر الشكوى من حوادث الدهر إلا أن يتقاضى حقاً :

لايفرحون إذا ماالدهرطاوعهم ... يوماً بيسر ولايشكون إن نكبوا

وقال عبد الله بن الزبير الأسدى فى عمر بن عثمان بن عفان :

فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ... ولامظهرالشكوى إذاالنعل زلت

ويعد فى مروءة الرجل أن يكون حافظاً لما يؤتمن عليه من أسرار ، قال المتنبي من أبيات جعلها خطاباً لمن أودعه سراً ، وخشى منه إذاعته :

كفتك المروءة ما تتقى ... وأمنك الود ما تحذر

يريد أنه ذو مروءة ، وذو المروءة لايفشى سراً اؤتمن عليه .

وذو المروءة يحذر أن يؤذى شخصاً ما ، وأشد ما يحذر أن يؤذى ذا مروءة مثله :

وأستحيى المروءة أن ترانى ... قتلت مناسبي جلداً وقهراً

فى المروءة راحة ولذة :

إذا كانت المروءة تقتضى الإعراض عن كثير من اللذات ، فإن فى المروءة نفسها لذة تفوق كل نعيم فى هذه الحياة ، وإن كان فى حفظ المروءة ملاقاة كثير من المشاق ، فإن راحة الضمير التى يجدها الرجل عند ما يبلغ فى المروءة غاية سامية تنسيه كل مشقة ، ولا يبقى معها للتعب باقية ، قال المتنبي :

تلذ له المروءة وهى تؤذى ... ومن يعشق يلذ له الغرام

ولذة المروءة فى شعور النفس ببلوغها كمال الرجولية أو قربها منها ، وإذايتها لصاحبها بما أشرنا إليه من أن للمروءة تكاليف باهظة لاينهض بها إلا ذو صبر متين ، حتى قال أبو عبد الله الكاتب : « الصبر على حقوق المروءة أشد من الصبر على ألم الحاجة » .

ذو المروءة حقيق بالإجلال :

إذا نظرنا فى تفاصيل الأخلاق والآداب التى تقوم المروءة على رعايتها

وجدناها تبعث على إجلال صاحبها وامتلاء الأعين بمهابته . ومن الحكم السائرة : « ذو المروءة يكرم وإن كان معدماً ، كالأسد يهاب وإن كان رابضاً ، ومن لا مروءة له ، يهان وإن كان موسراً ، كالكلب يهان وإن طوق وحلى بالذهب » .

الغرض من هذا الحديث :

قد رأينا كيف انتظمت المروءة أخلاقاً سنية ، وآداباً مضيئة ، وعرفنا أن رسوخ هذه الأخلاق والآداب فى النفس ، يحتاج إلى صبر ومجاهدة ودقة ملاحظة وسلامة ذوق ، فحقيق بنا أن نربى أبناءنا على رعايتها منذ عهد التمييز ، حتى لا تسبق إليهم أخلاق غير نقية ، وعادات غير رضية ، فتحول بينهم وبين الفضائل فلا تجد المروءة إلى نفوسهم مدخلا :

إذا المرء أعيته المروءة ناشئاً　　فطلبها كهلا عليـــه عسير

نربى أبناءنا على ما يثبت قواعد المروءة ، ويرفع بناءها ، ليحمدوا أبوتنا ، ويكونوا قرة أعين لنا ، وأسوة حسنة لأحفادنا ، وزينة لأوطاننا ، وليفوزوا بالعزة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة .

* * *

الإلحاد

أسبابه ، طبائعه ، مفاسده ، أسباب ظهوره . علاجه

فى الناس من يضع إلحاده على طرف لسانه ، أو على ظاهر يده . فيريك ما فى صدره ، وهذا قد جعلك فى حل من أن تسميه ملحداً ، ولم يحوجك إلى أن تنبه الناس لضلاله ، أو تنصح لهم بالاحتراس من أقواله ، إلا أن تعمد إلى ما يطعن به فى الدين ، فتكشف عن وجوه فساده ، وتدفعه بالحجة .

وفى الناس من يحمل فى نفسه إلحاداً فى الدين . وبغضاً للشريعة . وإذا جلس إلى المؤمنين حاول أن يضع بينهم وبين ما فى نفسه حجاباً مستوراً ، وإنما ينطق بآرائه الزائغة حين يخلو بنفوس تلذ ما تلذ نفسه من الطعن فى وجود الإله الحق ، أو فى صدق النبوة وحكمة التشريع .

أسباب الإلحاد :

للإلحاد مهيئات : منها أن ينشأ الشخص فى بيت خال من آداب الإسلام ومبادىء هدايته ، فلا يرى فيمن يقوم على أمر تربيته من نحو والد أو أم أو أخ ، استقامة ، ولا يتلقى عنه ما يطبعه على حب الدين ، ويجعله على بصيرة من حكمته ، فأقل شبهة تمس ذهن هذا الناشىء تنحدر به فى هاوية الضلال .

ومن أسباب الإلحاد أن يتصل الفتى الضعيف النفس بملحد يكون أقوى منه نفساً ، وأبرع لساناً ، فيأخذه ببراعته إلى سوء العقيدة ، ويفسد عليه أمر دينه ، ومن هنا نرى الآباء الذين يعنون بتربية أبنائهم تربية الناصح الأمين يحولون بينهم وبين مخالطة فاسدى العقيدة ، يخشون أن تسرى إليهم العدوى من تلك النفوس الخبيثة فتخبث عقائدهم وأخلاقهم .

ومن أسباب الإلحاد أن يقرأ الناشىء مؤلفات الملحدين وقد دسوا فيها سموماً من الشبه تحت ألفاظ منمقة ، فتضعف نفسه أمام هذه الألفاظ المنمقة ، والشبه المبهرجة ، فلا يلبث أن يدخل فى زمرة الملاحدة الألداء .

ومن أسباب الإلحاد أن تغلب الشهوات على نفس الرجل ، فتريه أن المصلحة فى إباحتها ، وأن تحريم الشارع لها خال من كل حكمة ، فيخرج من هذا الباب إلى إباحية وجحود .

طبائع الإلحـــاد :

ساقتنى صروف الليالى إلى ملاقاة طائفة من الملاحدة فى تونس وفى الآستانة ، وفى الشام وفى ألمانيا وفى مصر ، فرأيت هذه الطوائف تتشابه فى أمور يبعد أن يكون تواردهم عليها من قبيل المصادفة ، وإنما هى طبائع لما تواطأت عليه قلوبهم من جحود لآيات الله ، وإنكار لدينه الحنيف ، وهأنذا أتحدث عن شىء من هذه الطبائع التى لاتجتمع فى شخص إلا أن يكون قلبه مصاباً بعلة الجحود .

فرحهم بتهمة عالم كبير بالإلحـــاد :

يفرح الملحدون بإشاعة الإلحاد عن بعض العلماء المفكرين ، والمثير لهذا الفرح حرصهم على أن لا ينسب إلى الدين من ظهرت له أثارة من علم أو فكر .

استهزاؤهم بالدين :

يستهزئون فى مجالسهم بالدين ، وربما رشحت ألسنتهم بهذا العبث فى حضرة بعض المؤمنين بزعم أنهم مازحون غير جادين ، كذلك كانت مجالس الزنادقة فى القديم ، أمثال مطيع بن إياس ، ويحيى بن زياد ، وحماد عجرد ، وأصحابهم ، وهكذا حال ملاحدة هذا العصر .

انهماكهم فى الفسوق :

ولا ينتظر ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر أن يترك شيئاً من شهواته إلا أن يخشى الناس ، والتاريخ يحدثنا عمن كانوا يتهمون بالزندقة ، فيرينا

كيف كانت مجالسهم قائمة على شرب الخمور وما يتبعها من الخبائث وكذلك كانت مجالس أولئك النفر المعروفين بالإلحاد فى عهد الدولة العباسية .

قال بعض الرواة : إن حماد عجرد ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد نزلوا بالقرب منا فكانوا لا يطاقون خبثاً ومجانة ، وهكذا حال ملاحدة هذا العصر إذا حلوا فى مجلس فإنهم يرتكبون ما تترفع عنه مجالس الفضلاء ، ومن تظاهر منهم بالرزانة وحسن السمت ، فبمقدار وإلى وقت .

تناقضهم فى الأقوال :

أشد النفوس طوعاً إلى الأهواء نفس لا تثق بأن لهذا العالم مبدعاً حكيماً ، أو لا تثق بأن وراء هذه الحياة دار جزاء ، والنفوس المنقادة إلى الأهواء ، قد تألف الشىء فى وقت ، وتنفر منه فى وقت آخر ، فتمدحه مرة ، وتذمه أخرى ، وقد تستقبح الأمر ، وتستحسن ما يضاهيه من كل وجه ، وربما استقبحت الشىء . واستحسنت ما هو أقبح وأشد مفسدة منه . وانظروا إلى مايكتبه بعض الملاحدة فى الاجتماع أو السياسة تجدوه متخاذلا يلعن بعضه بعضاً .

إنكارهم المعجزات الكونية :

يرى الملاحدة أن المعجزة أساس للنبوة والرسالة . فيتوجهون إلى هدم هذا الأساس ، فينكرونه ، ويلقون حوله الشبه ، ويقولون : إن حكمة الدعوة كافية فى الدلالة على نبوة صاحبها . وقد قال هذا البهائية والقاديانية ، وأشخاص فى قلوبهم مرض . وتراهم يعمدون إلى ما قصه القرآن الكريم من معجزات الأنبياء ، فيخرجونه بالتأويل غير المعقول إلى معان مصنوعة ، مثال ذلك القاديانى الذى ترجم القرآن إلى اللغة الإنكليزية ، فإنه لا يمر بآية فيها معجزة صريحة إلا كتب معلقاً عليها هذياناً يخرجها عن وجه دلالتها العربية .

وتبعه على ذلك أحد الجاهلين الضالين فى أوراق سماها تفسيراً ، ومن قرأ هذه الأوراق رآها بالغة الغاية فى الزندقة .

دسهم فى الشريعة ما ينافى حكمتها :

يعمل الملاحدة لتنفير النفوس من الدين ، ومن الطرق التى يسلكونها

للتنفير إلصاقهم بالدين أشياء لا تطابق الحكمة ، وقد وضع الزنادقة أحاديث كثيرة نسبوها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ كما وضعوا حديث « الباذنجان لما أكل له » .

وقد كشف علماء الحديث عن الأحاديث الموضوعة وبينوها للناس ومن جملتها هذه الأحاديث التي وضعها الزنادقة .

إنكارهم العمل بالحديث :

لا يزال السلف الصالح من الصحابة والتابعين يجعلون الأحاديث أصلا من أصول الدين ، يقفون عندها إذا وجدوها ، ولا يتجاوزونها ، حتى أخذت الزندقة تعبث من وراء ستار ، فكان من مكايدها أن أجرت على ألسنة شياطينها أن مأخذ الدين هو القرآن وحده ، وأن السنة لا تستقل بإنشاء الأحكام يقولون هذا ليسقطوا جانباً كبيراً من أحكام الإسلام .

تأويلهم القرآن على حسب أهوائهم :

يعمل الملاحدة لطرح السنة من أصول الدين ، ثم يعمدون إلى القرآن المجيد فيحرفون الآيات الحكيمة عن معانيها ، ويفسرونها كما يشتهون ليتم لهم بهذا التأويل تعطيل أوامر الدين ونواهيه ، وذلك ما فعله الباطنية من قبل ، وجرى فيه على آثارهم باطنية أهل هذا العصر ، مثل البهائية والقاديانية ، وأشخاص يطوون صدورهم على جحود غير قليل .

صداقتهم للمجاهرين بالجحود :

من يشرح الله صدره للإيمان لا ترتاح نفسه لصحبة الجاحدين ، ولا يجد ودادهم إلى داخل نفسه سبيلا ، وقد يضطر المؤمن أن يلاقيهم ويشاركهم في بعض الأمور الحيوية أو الاجتماعية ، فليكن اتصاله بهم على قدر الضرورة .

فإن رأيت شخصاً يصاحب جاحداً بآيات الله ، وأحسست من لحن خطابه أن الصداقة بينهما محكمة ، سبق إلى ذهنك أن منشأ هذه الصداقة التشابه في زيغ العقيدة **« لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . . . »** .

إلحاحهم فى الدعوة إلى حرية الرأى فى الدين :

غاية الملحد أن يطعن فى الدين ، ويصد عن سبيله بقلمه أو لسانه . وقد يرى أن الحال لا يسعه لأن يطعن فى الدين أو يصد عنه فى علانية ، فتجده يحتال لأن يذهب إلى غرضه من طريق البحث وإبداء الرأى ، فيبالغ فى الدعوة إلى حرية الرأى فى الدين ؛ ليكون مطلق العنان ، يقول ويكتب ما يشاء من آراء يقوض بها صرح الدين من أساسه .

يدعون إلى حرية الرأى فى الدين لتجد دعوتهم المعادية للدين سعة ، ومن ملك من هؤلاء قوة ، استعملها فى اضطهاد رجال الدين المستقيمين ، وسد باب الحرية فى وجوههم ، فإن لم يفعل ذلك على طريقة مكشوفة . فعله من طريق ملتوية .

بسط ألسنتهم فى رجال الدين :

من طبائع الملحدين الحط من شأن علماء الدين المستقيمين ، باعتقاد أن هدم من يتمثل فيهم الدين القويم هدم للدين نفسه ، فإذا بلغوا أن جعلوا الناس يزدرون برجال الدين ويصرفون أسماعهم عما يدعونهم إليه من حق ، فقد بلغوا أمنيتهم من تعطيل أوامر الدين وإهمال آدابه ، وإطفاء نور حكمته .

دعوتهم إلى الإلحاد :

فى الملاحدة من يعجز أن يكون داعية إلى الإلحاد . فيكتفى بأن يطلق لنفسه العنان فى الإباحية ، ومنهم من يدفعه بغض الدين إلى أن يعمل بلسانه أو بقلمه لهدم أصوله والصد عن سبيله ، ولهؤلاء طرق يأتمرون لتدبيرها ، وهى شبيهة بطرق إخوانهم الباطنية ، ذلك أنهم يبتدئون من يريدون إغواءه بعرض شيء من الشبه فى صورة السائل أو الحائر فى دفعها ثم ينظرون إليه ماذا يكون حاله من الاستخفاف بتلك الشبه ، أو التأثر بها ، فإن رأوه قد ضعف أمام هذه الشبه ، أكثروا من إلقاء أمثالها عليه حتى يقع فى حيرة ، ويستبينوا منه أن إيمانه قد تزلزل ، وعند ذلك يوحون إليه بما شاءوا من الغمز فى الدين حتى يجردوه من عقيدة الحق ويتخذوه عضواً فى مجامعهم .

مفاسد الإلحـــاد الاجتماعية :

عرفنا أن من طبائع الإلحاد اتباع الشهوات ، والانطلاق فى الإباحية فالملحد لا يحافظ على عرض أحد ولا على مال ولا على حرمة إلا أن يعجز عن الوصول إلى شىء من ذلك ، ومتى ساعدته الفرصة ، وظن أنه بمأمن من العقوبة ، عاث فى الأعراض والأموال غير متحرج من انتهاك حرماتها وقد يقع انتهاك الأعراض ونحوها من غير الملحد بدافع الشهوة أما الملحد فإنه يأتيها مستبيحاً لها ، وضرر الطائفة التى ترتكب الفسوق مستبيحة له أشد من ضرر من يفعله معتقداً أنه يأتى أمراً محرماً .

ولنتخيل أمة مؤلفة من الملاحدة ، أو كانت الأغلبية فيها للملاحدة ، وننظر كيف تكون سيرتها ، وماذا تكون عاقبتها فى هذه الحياة ؟

لا شك أنها تسير فى غير طريق ، وتكون عاقبتها السقوط إلى الحضيض إذ أن الملاحدة يبيحون موبقة الزنا وما يضاهيها من الفواحش ، ويبيحون الخمور ، ولا يتحرجون أن يضموا إليهم أموال غيرهم بغير حق ، وإذا وجدت فى أهل الدين من لا يفعل فاحشة أو لا يعتدى على حق ولو أمن من أن يطلع عليه مخلوق ، فإن الملحد لا يكف نفسه عن الهوى إلا أن يخاف ألماً يأتيه من الناس أكبر من ذلك الهوى .

وإذا وجدت فى زائغى العقيدة من يتحدث عن الأخلاق ، ويوهم الناس أن الأخلاق تكفى فى استقامة السيرة والاحتفاظ بالعفاف ، فإن ذلك كله رياء ونفاق ، نعم للأخلاق أثر فى تقليل الشر ، ولكنها لا تأتى بأثر عظيم فى انتظام حال الاجتماع إلا حينما تسير تحت مراقبة عقيدة دينية ثابتة .

أسباب ظهور الإلحـــاد :

لاسعادة للأمة إلابالوحدة،ولاوحدة للأمة إلا أن تكون سليمة العقيدة سنية الأخلاق والآداب ، فمن الحكمة أن يراعى الإسلام هذه الوحدة التى هى وسيلة سعادتها ، ويأخذ فى المحافظة عليها بالتى هى أحزم ، فكان من أحكامه منع الناس من أن يركبوا الطيش ، ويعلنوا إلحادهم تحت رايته ،

فلم يكن الملاحدة قبل اليوم يعلنون إلحادهم ، وما كانوا يدعون إليه إلا من وراء ستار ، فكان الإلحاد فى العصور الماضية لا يتجاوز نفراً قليلا يعرفهم الناس فى لحن أقوالهم ، وبانهماكهم فى الفجور وقضاء أوقاتهم فى المجون .

أما اليوم فقد ظهر الإلحاد ، ورفع رأسه ، وتجاوز المجالس الخاصة إلى الصحف والمؤلفات ، ولهذا فيما أرى أربعة أسباب :

(أحدها) أن بعض الحكومات صارت تضع قوانينها الدستورية فى عبارات لا يرى فيها الملحد قيداً يكفه عن إعلان إلحاده ، أو الدعوة إليه كما يشاء .

(ثانيها) أن كثيراً من المنتمين إلى علوم الشريعة فرطوا فى جانب الغيرة على الحق ، فتراهم يوادون من يصفهم الناس بالإلحاد ، ويتملقونهم بالاطراء ، ويشهدون لهم بالإخلاص للدين ، يفعلون هذا رجاء متاع الحياة الدنيا ، وهم يعلمون أنهم إنما يمدحون طائفة تفسد على الأمة أمر دينها ، وأخلاقها .

(ثالثها) أن بعض الحكومات الإسلامية ترفع إلى مناصبها العالية من لم يتلقوا من علوم الدين ما يميزون به المفسد من المصلح ، فيجد الجاحدون لديهم حظوة ولو مع إعلانهم الإلحاد ، وجراءتهم على الطعن فى الشريعة الغراء ، وإقبال كبراء الدولة على الملحد وتمكينه من المناصب التى يتخذها وسيلة لنفث سموم إلحاده ، قد يكون مشجعاً لغيره من زائغى العقيدة على أن يجهروا بزيغهم ويدعوا إليه وهم آمنون .

(رابعها) أن بعض الملاحدة دخلوا فى الحركات الوطنية ، وتظاهروا بالغيرة على الوطن ، فانخدع بهم الناس حتى خلعوا عليهم لقب الزعامة ، فأخذ هؤلاء الزعماء الملاحدة يعملون لنشر الإلحاد بين من يتصل بهم من الشبان .

كيف يعالج الإلحـــاد :

متى قيض الله للحكومات الإسلامية رجالا يقدرون فضل الدين فى إصلاح حال الأفراد والجماعات ، وفضله فى إخراج رجال يطمحون إلى العزة ، ويقتحمون كل ما يعترضهم فى سبيلها من عقبات ، وفضله فى بسط الأمن فى البلاد – متى قدر أولو الأمر فضل الدين ؛ ومتى تضافر علماء الشريعة على الدعوة إلى الحق بحكمة ، وعلى مكافحة الزائغين بالحجة طهرت الأمة من خبث الإلحاد ، وبلغت أقصى غايات المجد والفلاح .

• • •

العلماء وأولوا الأمر

يقصد الإسلام لأن يخرج للناس أمة تجلها القلوب ، وتهابها العيون ، وإنما تجلها القلوب وتهابها العيون على قدر اعتصامها بهدى الله ، وعلى قدر ما تأخذ به من مظاهر القوة والمنعة .

ولا تعتصم الأمة بهدى الله ، ولا تظهر فى قوة ومنعة ، إلا أن يقيض الله لها علماء ، يملأ الخوف من الله قلوبهم ، حتى لا يدع فيها للخوف من مخلوق مثقال ذرة ، وتظفر مع هذا بولاة يحرصون على أن يقيموا العدل ، ويستقيموا على طريق الرشد أكثر من حرصهم على ما تشتهى أنفسهم وتلذ أعينهم من متاع هذه الحياة .

لهذا عنى الإسلام بأن يكون فى الأمة علماء لا يكتمون عن أحد نصائحهم وأمراء يحبون أن يسمعوا كلمة الحق تتردد فى مجالسهم .

والتاريخ الصادق يحدثنا أن بلاد الإسلام قد حظيت بعلماء يزهدون فى زهرة الحياة الدنيا ، ويبيعونها بكلمة حق يقولونها ابتغاء أن يكون لها فى إصلاح حال السلطان أثر كبير أو صغير .

وحظيت برؤساء يرتاحون لوعظ العالم الأمين ، ويسيغونه إساغة الظمآن للماء القراح . وبمثل هؤلاء العلماء والأمراء تسعد الأمة ، ويعظم شأن الدولة .

والتاريخ الصادق قد حدثنا أيضاً أن فى أهل العلم من فتنته الدنيا بزخرفها فانطلق يجرى وراءها ، لا يراعى للحق عهداً ، ولا لجانب الله حرمة . وحدثنا أن فى الرؤساء من يكون نصيب اللهو والانهماك فى الشهوات منه ، أكثر من نصيب الجد والرشد .

وإذا حدثنا التاريخ عن أمة ذات بعد عزة ، أو دولة سقطت بعد قوة ، فتبعة ذلك الذل أو السقوط ، ملقاة على رقاب أولئك العلماء الذين لا ينصحون أو الرؤساء الذين لا يحبون الناصحين .

نلقي نظرة على تراجم العلماء ، فنجد حالهم مع الأمراء يجعلهم على ثلاثة أصناف :

(أولهم) عالم يضع نصب عينه رضا الله ، ويهمه أن يسير أولو الأمر في الناس على استقامة ، فيأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر بمرأى ومسمع منهم ، غير مبال بأن يقع أمره أو نهيه لديهم موقع الرضا والقبول ، أو موقع الكراهة ، والإعراض عنه . قيل لمالك : إنك تدخل على السلطان وهو يظلم ويجور ؟ فقال : يرحمك الله ، فأين يكون الكلام في الحق ! .

والعلماء الذين يقومون بواجب النصيحة للأمراء يختلفون في أساليب وعظهم ، فمنهم من يسلك طريق الصراحة ، ويشافه الأمير بإنكار ما يريد إنكاره على وجه التعيين ، حيث يرى أن طريق التصريح والتعيين أبلغ وأقرب إلى نجاح الدعوة .

كان السلطان سليم أمر بقتل مائة وخمسين رجلا من حفاظ الخزائن . فبلغ ذلك الشيخ علاء الدين الجمالي ، فدخل على السلطان وقال له : وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان ، وهؤلاء الرجال لا يجوز قتلهم شرعاً ، فعليك بالعفو عنهم . فغضب السلطان سليم ، وقال للشيخ : إنك تتعرض لأمر السلطنة ، وليس ذلك من وظيفتك . فقال : لا ، بل أتعرض لأمر آخرتك ، وإنه من وظيفتي ، فإن عفوت فلك النجاة ، وإلا فعليك عقاب عظيم . فانكسرت سورة الغضب في نفس السلطان ، وعفا عن أولئك الرجال الذين كان قد أمر بقتلهم .

ومن العلماء الحكماء من يسلك في وعظ الأمراء طريقاً غير صريح إذ يراه كافياً في إبلاغ النصيحة . قدم الشيخ أبو بكر بن سيد الناس حاضرة

تونس فى عهد المنتصر بالله ، ولما دخل على الأمير أمره أن يقرأ بين يديه آية من القرآن ، فقرأ « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر » فاستحسن المنتصر قراءته وقصده ، وكان ذلك سبب حظوته ، ورفعة منزلته عنده .

ومن العلماء من يأخذ فى نصح الأمراء بالعزيمة ، ويوطن نفسه على احتمال كل ما يمكن أن يلاقيه من أذى . وقد صبر رجال من كبار أهل العلم أيام فتنة القول بخلق القرآن ، على ما أصابهم فى الدين من أذى ، واحتملوا أشد العذاب ، مثل نعيم بن حميد الذى توفى فى سجن الواثق ، وأحمد بن نصر الخزاعى الذى قتل فى عهد الواثق ، وأحمد بن حنبل الذى سجن وضرب فى عهد المعتصم ، ومثل أبى يعقوب البويطى الذى حمل مقيداً من مصر إلى العراق ، حتى مات فى أقياده .

ومن العلماء من يرى أن له فيما يلحقه من الأذى عذراً فى السكوت وعدم التعرض للسلطان بأمر أو نهى ، ويصح أن يقال : إن هؤلاء قد أخذوا بالرخصة ، وليس لهم من قوة الصبر على الأذى ما يحملهم على أن يأخذوا بالعزيمة ، ويجاهروا بالدعوة إلى حق أو إصلاح .

وإذا جاز للعالم أن يسكت عن الأمر أو النهى اتقاء لأذى لا طاقة له به فليس له أن يكتم الحق لمجرد الخوف من أن يجفوه السلطان ، أو يبعده من مجلسه ، أو يحرمه من ولاية منصب .

(ثانيهم) عالم يذهب مذهب العزلة والبعد من ساحات الأمراء ، حتى لا يقف بين يدى ذى نخوة وتعاظم ، ومن هؤلاء من يقول :

إن صحبنا الملوك تاهوا علينا ... واستخفوا كبرا بحق الجليس
فلزمنا البيوت نستخرج العلـ ... ـم ونملا به بطون الطروس

وملاقاة النخوة والتعاظم ليست عذراً يبيح للعالم القعود عن إسماع الأمراء النصيحة ، فقد دخل موسى عليه السلام على فرعون ليدعوه إلى الحق وكان فرعون متكبراً جباراً .

وقد يبتعد العالم عن الأمراء الذين لا يعنون بتنقية ساحتهم من أقذاء المنكرات ، كراهة أن يشاهد منكراً ، وقد يكون هذا الابتعاد حكمة متى عرف العالم أنه لا يستطيع النصح بإزالة ذلك المنكر ، وأنه لا يجتنى من رؤيته إلا حسرة وأسفاً .

وقد يكون الاقتراب خيراً من الابتعاد ، متى قصد بالاقتراب إيصال النصيحة إليهم ، عسى أن تجد أذناً واعية أو نفساً زاكية . وكان أبو الحسن الأشعرى يقصد إلى مجالس المعتزلة ليناظرهم ، ويقول : هم أولو رياسة منهم الوالى والقاضى ، ولرياستهم لا ينزلون إلى، فإذا لم أسر إليهم ، فكيف يظهر الحق ، ويعلمون أن لأهل السنة ناصراً بالحجة ؟

(ثالثهم) عالم يتردد على ساحة الأمراء، ويميل مع أهوائهم. وربما بلغ به الإغراق فى ابتغاء مرضاتهم أن يحرف أحكام الله عن مواضعها .

ومثل هذا الصنف من العلماء لا يرجى منهم أن يبسطوا ألسنتهم إلى السلطان بنصيحة . ولهذا الصنف جنايات على الدين وعلى الأمة وعلى الأمراء أنفسهم ، أما جنايتهم على الدين فلأنهم يختلقون أحكاماً يلصقونها بالدين وليست من الدين ، وأما جنايتهم على الأمة فلأنهم يسهلون على الولاة السير بالسياسة فى طريقة عمياء ، وأما جنايتهم على الأمراء أنفسهم ، فلأن الأمة إنما تفتح صدورها لمحبة أمرائها ، وتبذل لهم حسن الطاعة من جميع أفئدتها ، متى ساروا فى رشد ، وساسوا الناس بقوانين العدل .

ونحن نعلم أن العصور تتغير ، وأن مقتضياتها تختلف ، ولكن الحق هو الحق، والكرامة هى الكرامة . فلا يأتى عصر يفقد فيه الحق جلاله ، ولا يأتى عصر يبيح للعالم أن يداهن السلطان ، ولا أن يغمض عن شىء من كرامته ، وإنما هى التربية الدينية الصحيحة ترى العالم وجه الحق مشرقاً فلا يرضى إلا أن يحميه بيده أو لسانه ، وتريه منزلته شامخة الذرى فيأبى أن ينزل عنها ، ولو وضعت الشمس فى يمينه والقمر فى يساره .

يحدثنا التاريخ القديم أن بعض المنتمين إلى العلم كانوا يتملقون أولى الأمر من المسلمين وقد يفتونهم بغير ما أنزل الله ، ويحدثنا التاريخ غير

القديم أن من المنتمين إلى العلم من يتملق بعض المخالفين الغاصبين ، ويرضى أن يكون جسراً يعبرون به إلى قضاء مآربهم التى يكيدون بها الإسلام ، والمسلمين .

وقد يسمى هذا العالم تملقه للمخالفين الغاصبين مداراة ليقضى بعض حاجات شخصية ، وربما زعم أنه يقضى بهذا التملق مصالح وطنية . والواقع أن اتصال العالم بالمخالفين الظالمين ، وهو يستطيع أن لا يتصل بهم ، وصمة فى عرضه لا يغسلها ماء ، وجناية على الدين خاصة والأمة عامة . أما أنه وصمة فى عرض ذلك العالم ، فلما عرف من أن المخالف الغاصب لا يقبل بوجهه ولا يضع يد الصداقة إلا فى يد من اختبر سرائرهم ، ووثق من إخلاصهم له ، وأما أنه جناية على الدين فلأن ذلك الاتصال الآخذ اسم الصداقة خروج عن الدين الذى ينهى عن موادة أعدائه ، وأما أنه جناية على الأمة عامة ، فلأن هذا العالم لا يتحامى أن يرضى أولئك المتغلبين المخالفين بالمساعدة على أعمال يفسدون بها على الأمة أمر دينهم أو دنياهم . .

ونلقى بعد هذا نظرة فى حال الأمراء مع العلماء الذين يجاهرونهم بالنصيحة أو يؤثرون الحق على أهواء الأمراء ، فنجدهم ثلاثة أصناف :

(أولهم) أمير تلقى إليه النصيحة فيأخذه التعاظم بالإثم . ويقابل الناصحين بوعيد أو بعقوبة المجرمين .

وقد يدعو بعض الأمراء بعض العلماء إلى حرام ، فلا يجيبه إلى ذلك فيناله بالعقوبة ، ويتلقاها العالم بصبر جميل : دعا أحمد بن طواون القاضى بكار بن قتيبة لخلع الموفق من ولاية العهد للخلافة ، فامتنع ، فحبسه ، وما زال يكرر عليه القول وهو لا يجيبه إلى ذلك ، حتى مرض ابن طواون وأمر بنقل بكار من السجن إلى دار اكتريت له .

(ثانيهم) أمير يجد فى صدره الحرج من إسماعه الموعظة تأتى على غير ما يهوى ، ولكنه يهاب مكان العالم ، فلا يقابله بأذى : استدعى أبو جعفر المنصور عبد الله بن طاوس بن كيسان ومالك بن أنس ، فلما دخلا عليه أطرق ساعة ، ثم التفت إلى ابن طاوس ، وقال له حدثنى عن أبيك ، فقال :

حدثني أبي أن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى فى سلطانه فأدخل عليه الجور فى حكمه . فأمسك أبو جعفر ساعة ، قال مالك : فضممت ثيابي خوفاً أن يصيبني دمه : ثم قال له المنصور : ناولني تلك الدواة ، قال ذلك ثلاث مرات ، فلم يفعل ، فقال له : لم لا تناولني ؟ فقال : أخاف أن تكتب بها معصية ، فأكون قد شاركتك فيها ! فلما سمع ذلك قال : قوما عنى ! قال : ذلك ما كنا نبغى ! قال مالك : فما زلت أعرف لابن طاوس فضله من ذلك اليوم .

(ثالثهم) أمير تأخذه اليقظة وصفاء الفطرة إلى طاعة الحق وشكر الدعاة إليه : دخل عز الدين بن عبد السلام إلى السلطان أيوب نجم الدين وقال له : ما حجتك عند الله إذا قال لك : لم أبق لك ملك مصر ثم تبيح الخمور ! فقال : هل جرى هذا ؟ قال نعم ، الحانة الفلانية تباح فيها الخمور وغيرها من المنكرات ، وأنت تتقلب فى نعمة هذه المملكة ! فقال : أنا ما علمته ، ثم أمر السلطان بإبطال تلك الحانة .

ودخل ابن شهاب على الوليد بن عبد الملك ، فسأله الوليد عن حديث : إن الله إذا استرعى عبداً الخلافة كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات ، فقال له : هذا كذب ، ثم تلا « **يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض**» الآية . فقال الوليد : إن الناس ليغروننا عن ديننا(١) .

ولما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب طاوس بن كيسان إليه : « إن أردت أن يكون عملك كله خيراً فاستعمل أهل الخير » فقال عمر : كفى بها موعظة .

ومن الأمراء الذين كانوا يوسعون صدورهم لنصح العلماء عبد الرحمن الناصر ، فقد كان القاضى منذر بن سعيد يواجهه بإنكار ما يراه من أعماله منكراً ، كخطبته التى ألقاها على مسمع منه فى إنكاره عليه الإسراف فى الإنفاق على بناء القصور وزخارفها . ومن مواقف منذر بن سعيد فى هذا السبيل دخوله على الناصر ومخاطبته بالبيتين :

---

(١) فتح البارى ص ٩٣ ج ١٣ .

يا باني الزهــراء مســتغرقاً أوقاته فيهـا أمسـا تمهــل
لله مـا أحسنهـا رونقــا لو لم تـكن زهـرتها تذبـل

ولم يزد الناصر على أن قال : إذا سقيت بماء الخشوع ، وهب عليها نسيم التذكار ، لا تذبل إن شاء الله .

ولقبول الأمراء لنصح العلماء فضل لا يقل عن فضل قيام العلماء بنصيحة الأمراء ، فإن النفوس ولا سيما الشاعرة بما لديها من قوة ومقدرة على البطش شأنها النفور من أن تؤمر بمعروف أو تنهى عن منكر ، تتخيل أن ذلك الأمر أو النهي يتضمن نسبتها إلى الجهل أو القصد إلى ارتكاب أمر قبيح فإن تلقى الأمير نصيحة العالم الأمين ، وإساغتها على ما فيها من مرارة ، دل ذلك على أنه يجل الحق ، ويبتغي الخير ، ويريد أن يفتح لحرية القول باباً طالما أغلقه المستبدون الظالمون . ولا تبلغ الأمم مراقي المنعة والسيادة إلا أن يكون باب الحرية مفتوحاً في وجوه الدعاة المصلحين .

يقدم العالم الأمين على نصح ذي السلطان غيرة على الحق ، وحرصاً على أن يكون ذو السلطان كامل السيرة طيب السمعة ، وكثير من الأمراء من يفهم وعظ العلماء على هذا القصد ، ويكون في نفسه نزعة إلى الاستقامة فيتلقى الإرشاد بارتياح وشكر .

الأمراء المستقيمون يرتاحون لوعظ أهل العلم ، ومنهم من يطلب من أتقياء العلماء أن يزودوه بالوعظ ، كما كان عمر بن عبد العزيز وأمثاله يفعلون ذلك .

يعظ العلماء المستقيمون الأمراء ، فيساعدونهم على أن يكونوا أمراء راشدين ، ويستطيع الأمراء أن يلاقوا العلماء بما يساعدهم على أن يكونوا علماء مصلحين ، وسبيل هذه المساعدة أن يجلوا العلماء ويفهموهم أنهم يجاونهم لعلمهم واستقامتهم ، ثم إذا استفتوهم في واقعة طلبوا منهم أن يبينوا لهم حكم الله الذي تدل عليه نصوص الشريعة أو أصولها دلالة تطمئن إليها

النفوس ، وإذا استبانوا أن عالماً فقد الخشية من الله ، وأخذ يبتغى مرضاتهم بتحريف النصوص أو تلقط الأقوال الساقطة ، عدوه فى جماعة المنافقين ، وأشعروه بأن مثل هذا النفاق لا يزيده عندهم إلا حقارة ثم كانوا منه على حذر .

وبمثل هذه السيرة يصل الأمير العادل إلى أن يرى المعاهد العلمية والمحاكم الشرعية ، طافحة بعلماء تزدهر بهم مملكته ازدهار السماء بالكواكب النيرة .

• • •

أديان العرب قبل الإسلام

قص الله تعالى علينا فى القرآن المجيد أن العرب كانوا يتخبطون فى ضلالة الشرك ، ويتخذون من دون الله آلهة ، فيبعث إليهم أنبياء ليهدوهم السبيل ، ويدعوهم إلى العقائد السليمة ، والأخلاق الكريمة .

بعثة هود عليه السلام :

أقدم قوم من العرب قص الله علينا أنهم كانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل إليهم رسولا : قوم عاد ، وكانت منازلهم بالأحقاف ، قال الله تعالى : « **واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف** » . والأحقاف جمع حقف وهو الرمل المستطيل فيه اعوجاج وانحناء . فالآية ظاهرة فى أن منازلهم كانت ببلاد فيها رمال كثيرة . وذكر ابن قتيبة أنهم كانوا ثلاث عشرة قبيلة ينزلون الرمل : بالدو ، والدهناء ، وعالج ، ووبار ، وعمان ، إلى حضرموت .

وهذا لا يخالف ما جاء فى سورة الفجر من قوله تعالى : « **ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم (١) ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد** » لصحة أن تحمل العماد على عماد الأخبية . ثم إن نزولهم بالأحقاف لا يمنع من أن تكون لهم مبان ضخمة . والقرآن الكريم يشير إلى هذا فيما قصه الله تعالى علينا من مواعظ هود عليه السلام إذ قال : « **أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون(٢)** » .

---

(١) هو إرم بن سام الذى هو أحد جدود عاد ، فإرم بدل من عاد لأن أولئك القوم يطلق عليهم اسم جدهم عاد واسم جدهم إرم .

(٢) الريع : الجبل أو المكان المرتفع ، والآية : القصر ، والمصانع : ما كان من نحو الحصون ومجارى المياه .

وكان هؤلاء القوم يعبدون آلهة غير الله ، ولم يصرح القرآن الكريم بما كانوا يتوجهون إليه بالعبادة على وجه التعيين ، ويروى أنهم كانوا يعبدون الأصنام(١) . وجمع الآلهة فى قوله « **بتاركى آلهتنا** » وجمع الأسماء فى قوله « **أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان** » يدل على أن عادا كانت تعبد آلهة متعددة .

ويقال : إن عاداً أول من عبد الأصنام بعد الطوفان ؛ والقرآن الكريم إنما يدل على أن بعثة هود كانت بعد بعثة نوح عليه السلام ، قال تعالى فيما يقصه من قول هود لقومه : « **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح** » أى خلفاً من بعدهم ، لتعتبروا بما كان من عاقبتهم ، وتشكروا الله على ما أعطاكم من قوة ، ووهبه لكم من نعمة .

بعث الله هوداً عليه السلام إلى هؤلاء القوم ، فدعاهم إلى نبذ عبادة غير الله ، وأمرهم بإخلاص العبادة لله وحده ، قال تعالى : « **وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** » . وذكر فى وعده لهم على إجابة دعوته أن لهم قبل خير الآخرة خير الدنيا ، فقال : « **ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويزدكم قوة إلى قوتكم** » . وهذا ما يناسب دعوة القوم الذين غرقت قلوبهم فى الحرص على الدنيا : أن يبشروا بأن الاستقامة على هدى الله أعظم وسائل السعادة فى هذه الحياة .

وتوعدهم بعقوبة الدنيا والآخرة إذا هم تمادوا فى غيهم ، فقال : « **ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** » وقال : « **فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربى قوماً غيركم** » .

ولم يكن من قومه إلا أن كذبوه ، وتنقصوه ، وجحدوا ما جاء به من الآيات ، وأصروا على ما وجدوا عليه آباءهم من عبادة غير الله ، فقالوا

---

(١) قال المسعودى فى مروج الذهب : كانوا يعبدون ثلاثة أصنام وهى : صمود ، وصداء ، والهباء ، وقال المسعودى أيضاً : إن عادا كان يعبد القمر .

فيما قصه الله تعالى من إجابتهم لهود : « إنا لنراك فى سفاهة ، وإنا لنظنك من الكاذبين » وقالوا : « أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » وقال تعالى : « وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد » .

ووقف هود عليه السلام موقف من لا يهاب أهل الباطل ، ولا يبالى بهم ولا بما هم فيه من قوة وطغيان ، ولا بما طبعوا عليه من الحرص على إذاية الداعين إلى الحق ، والمبادرة إلى البطش بهم ، فقال : « إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون . من دونه ، فكيدونى جميعاً ثم لاتنظرون . إنى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم » .

وكذلك يجب أن يكون دعاة الإصلاح فى كل حين : يزدرون أهل الضلال ، ويواجهونهم بكل ما ملكوا من حجة وحكمة .

دعا هود عليه السلام قومه إلى الحق ، ودلهم على سبيل الخير ، فاستحبوا الكفر على الإيمان إلا قليلا منهم ، وكان عذابهم أن أرسل الله عليهم ريحاً شديدة الصوت : « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية » .

أباد الله أولئك الجاحدين ولم يبق منهم أحد ، قال تعالى : « فهل ترى لهم من باقية » . وقال : « وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين » وقال : « فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم » وقال تعالى : « وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى » . ونجى هوداً والذين آمنوا معه ، قال تعالى : « فأنجيناه والذين معه برحمة منا » وقال تعالى : « ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ، ونجيناهم من عذاب غليظ » .

بعثة صالح عليه السلام لثمود :

بعث صالح إلى قوم من العرب يقال لهم « ثمود » . وثمود قبيلة من العرب العاربة كانوا يسكنون الحجر : بين الحجاز والشام . وفى صحيح البخارى عن ابن عمر « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل الحجر فى

غزوة تبوك أمرهم ألا يشربوا من بئرها وألا يستقوا منها » وفى صحيح البخارى أيضاً أن النبى صلى الله عليه وسلم لما مر بالحجز قال لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم الله مثل ما أصابهم». ثم تقنع بردائه وهو على الرحل وأسرع السير حتى أجاز الوادى » .

وكان هؤلاء القوم يعبدون غير الله : يروى أنهم كانوا يعبدون الشمس وفى مروج الذهب للمسعودى وغيره أنهم كانوا يعبدون الأوثان . والقرآن الكريم لم يتعرض لما كانوا يعبدون على وجه التعيين ، وإنما دل على أنهم كانوا يعبدون غير الله ، ومن أدلة هذا قولهم فيما قصه الله عنهم : « **أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا** » .

دعوة صالح لثمود :

دعا صالح عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده ، قال تعالى : « **وإلى ثمود أخاهم صالحاً ،قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره** »وذكرهم بما وهب الله لهم من النعم ، وحذرهم من إطاعة المفسدين ، قال تعالى : « **وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً ، فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين**» وقال : « **هو أنشأكم من الأرض** » أى ابتدأ خلقكم منها « **واستعمركم فيها** » أى جعلكم عمارها أو طلب منكم أن تعمروها « **فاستغفروه ثم توبوا إليه** » أقلعوا عما أنتم عليه فإنه يقبل منكم ويتجاوز عنكم« **إن ربى قريب** » برحمته « **مجيب** » لسائليه . وقال :« **فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون** » .

وكان من قومه أن أعرضوا عن الدعوة وجحدوا بما جاء به من الآية البينة ، وقالوا فيما قصه الله عنهم :« **يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا** »كنا نرجو قبل هذه المقالة والدعوة أن يكون عقلك كاملا « **أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب** »ورد عليهم صالح فى رفق ولطف ، فقال : « **يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة ، فمن ينصرنى من الله إن عصيته ، فما تزيدوننى غير تخسير** » .

آية نبوته :

دعا صالح عليه السلام قومه إلى الحق ، فاقترحوا عليه أن يأتيهم بآية تدل على صدق دعوته ، قال الله تعالى فيما يقصه عنهم : « **فأت بآية إن كنت من الصادقين** » فكان له في الناقة التي آتاه الله آية ظاهرة ، قال تعالى « **وآتينا ثمود الناقة مبصرة** » أي آية بينة ، وقال « **قد جئتكم ببينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء** » .

أما وجه المعجزة فيها ، فلم يصرح به القرآن الكريم إلا ما جاء به قوله تعالى : « **ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر** » وقوله تعالى : « **لها شرب ولكم شرب يوم معلوم** » . وروى أحمد والحاكم عن جابر قال « لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر قال لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح ، وكانت الناقة ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم ، وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً ، فعقروها ، فأخذتهم صيحة أهمد الله من تحت أديم السماء منهم (١) »

ودل القرآن الكريم أن من قوم صالح من قبلوا دعوته وآمنوا بما جاء به ، يؤخذ هذا من قوله تعالى : « **قال الملأ الذين استكبروا للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ، قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون. قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون** » .

واتفق رأي ثمود بعد على عقر الناقة ، وكان صالح ينذرهم إن يتعرضوا لها « **ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب عظيم** » فعقروها « **وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** » فقال لهم صالح عليه السلام : « **تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب** » ولما أمسوا هموا بقتله كما أخبر الله تعالى في قوله : « **وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله** » أي لنكبسنه في داره مع أهله ليلا ونقتله « **ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون** » .

---

(١) هذا الحديث قال فيه ابن كثير هو على شرط مسلم .

ولما انتهت الأيام الثلاثة جاءتهم صيحة من فوقهم ، ورجفة شديدة من تحتهم ، فأصبحوا فى دارهم جاثمين ، قال تعالى : « **فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم(١) ربهم بذنبهم فسواها** » وقال تعالى « **فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون** » . وقال تعالى : « **إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة ، فكانوا كهشيم المحتظر(٢)** » . وقال تعالى : « **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين** » .

بعثة إسماعيل عليه السلام للعرب :

بعث إبراهيم عليه السلام فى أرض بابل ، ودعا قومه إلى الدين الحنيف فلم يجيبوا دعوته ، فهاجر ، وورد الشام ومعه زوجته ساره(٣) وأتى مصر ، وحاول أحد الجبارين الاعتداء على سارة وخلصها الله منه ، وأخدمها « هاجر » . ثم رجع الخليل عليه السلام إلى أرض المقدس ، ووهبته سارة أمتها هاجر رجاء أن يرزقه الله منها ولداً ، فدخل عليها إبراهيم فحملت منه وولدت منه إسماعيل عليه السلام ، وحصلت لسارة غيرة من هاجر وطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها ، فذهب بها الخليل حتى وضعها حيث مكة اليوم .

وفى صحيح البخارى عن ابن عباس : « ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعها عند البيت وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء ، إلى أن أكرمها الله بنبع زمزم » .

ومر بها رفقة من جرهم فنزلوا هنالك ، وشب إسماعيل وتعلم منهم العربية ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم .

وعاد إبراهيم عليه السلام إلى مكة ، وبنى بها البيت الحرام ، يعينه على

---

(١) أطبق عليهم العذاب كما يقال دمدم عليه القبر أى أطبقه عليه ، وقيل الدمدمة إهلاك فى استئصال .

(٢) كالهشيم اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته فى الشتاء .

(٣) قيل : ابنة ملك حران ، فارقت دين قومها فتزوجها إبراهيم عليه السلام والمشهور أنها ابنة عمه « هاران » وأما من زعم أنها ابنة أخيه « هاران » وادعى أن نكاح بنت الأخ كان إذ ذاك جائزاً ، فزعم باطل لا يستند إلى دليل ولا ما يشبه الدليل .

ذلك ابنه إسماعيل عليه السلام ، وبعث الله إسماعيل بشريعة إبراهيم إلى جرهم والعماليق . وذكر بعضهم أنه أرسل إلى جرهم والعماليق وقبائل من اليمن في زمن إبراهيم عليه السلام(١) .

وإذا أرسل إسماعيل بشريعة إبراهيم فإن إبراهيم كان يدعو إلى التوحيد الخالص ومكارم الأخلاق ومحاسن الآداب كما يدعو سائر الأنبياء ، ومن شريعته إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، قال الله تعالى في قصة إسماعيل : « **وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً** » . . ومن شريعته حج البيت : « **وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر** » . ومنها الاختتان ، كما ورد في الصحيح .

بعثة شعيب عليه السلام إلى مدين :

من العرب الذين كانوا يعبدون غير الله مدين ، وكانت منازلهم تجاور أرض معان بأطراف الشام ، ومما عرفوا به من الفساد في الأرض أنهم كانوا يبخسون المكيال والميزان ، أي يأخذون لأنفسهم بالزائد ، ويدفعون لغيرهم بالناقص .

فبعث الله إليهم شعيباً عليه السلام داعياً إلى التوحيد والإصلاح ، وبعثته كانت بعد بعثة إبراهيم عليه السلام . يدل على هذا قوله لقومه كما جاء في الآية« **وماقوم لوط منكم ببعيد** » وقال تعالى في قصة إبراهيم «**فآمن له لوط**» . والقرآن الكريم يسمي من أرسل إليهم شعيب بمدين تارة ، وبأصحاب الأيكة مرة أخرى(٢) فقال : « **وإلى مدين أخاهم شعيباً** » وقال : « **كذب أصحاب الأيكة المرسلين ، إذ قال لهم شعيب ألا تتقون** » وقال قوم : إن شعيباً أرسل إلى أمتين : مدين وهم الذين عذبوا بالصيحة ، وأصحاب الأيكة وهم الذين أخذهم الله بعذاب يوم الظلة(٣) وقال آخرون : إن شعيباً أرسل إلى أمة

---

(١) السيرة الحلبية .

(٢) سموا أصحاب الأيكة لأنهم كانوا يسكنون أيكة أي غيضة تنبت ناعم الشجر ، وقيل الأيكة اسم للبلد الذي كانوا يسكنونه . والأظهر ما قاله ابن كثير من أنهم كانوا يعبدون أيكة .

(٣) يعزى هذا إلى السدي وعكرمة .

واحدة تسمى مدين وهم أنفسهم أصحاب الأيكة ، وهذا هو المختار . قال ابن كثير فى تاريخه : ومن المفسرين من قال : إن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين ، وقوله ضعيف لم يوافقوا عليه ، وإنما عمدتهم شيئان :

(أحدهما) : أن الله تعالى قال : « **كذب أصحاب الأيكة المرسلين** » ولم يقل أخوهم كما قال : « **وإلى مدين أخاهم شعيباً** » .

(ثانيهما) : أنه ذكر أنه عذب أصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة وذكر فى مدين أنه عذبهم بالرجفة والصيحة .

والجواب عن الأول أنه تعالى لم يقل أخاهم بعد ذكر الأيكة لأن ذكره غير مناسب بعد وصفهم بعبادة الأيكة ، ولما نسبهم إلى العبيد ساغ ذكر الأخوة كما قال تعالى : « **وإلى عاد أخاهم هوداً** » وقال : « **وإلى ثمود أخاهم صالحاً** » .

والجواب عن الثانى أنه جمع عليهم الثلاثة أنواع من العذاب : الصيحة ، والرجفة ، وعذاب الظلة(١) .

دعا شعيب عليه السلام قومه إلى نبذ ما كانوا يعبدون من دون الله ، والإقلاع عن الفساد ، « **قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء** » وأتاهم بآية بينة على صدق رسالته ، أشار إليها القرآن الكريم بقوله تعالى فيما يقصه من قول شعيب « **قد جئتكم ببينة من ربكم** » والآية ما يجريه على يد الرسول من المعجزة . وسلك فى دعايتهم كل طريق حكيم من التبشير كقوله : « **واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود** » .

أو الإنذار كقوله : « **ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد(٢)** » وقوله : « **إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط** » .

---

(١) لم يبين القرآن الكريم حقيقة هذا العذاب ، والذى يذكره الرواة أن الله تعالى بعث عليهم ريحاً حارة شديدة ، فأخذت بأنفاسهم ، وبعث عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس وهى الظلة حتى إذا اجتمعوا تحتها أسقطها الله عليهم ناراً ورجفت بهم الأرض ، وجاءتهم الصيحة من فوقهم .

(٢) قوم لوط لم يكونوا ببعيد من قوم شعيب لا فى الزمان ولا فى المكان ولا فى الصفات والأفعال القبيحة .

ولم ينتفع القوم بالآيات والمواعظ ، فأصروا على كفرهم وفجورهم ، وقالوا فيما قصه الله عنهم « ياشعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز » . .

ولما أيس شعيب من إيمانهم استنصر الله تعالى فى مجازاتهم بما يستحقون فقال : « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » فاستجاب الله له فيهم وجمع عليهم أنواعاً من العقاب ، فأصبحوا فى دارهم جاثمين .

ونجى الله شعيباً والذين معه ، قال تعالى : « ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا » .

الشرك فى بلاد العرب :

انتشر فى بلاد العرب الدين الحنيف الذى تلقوه من إسماعيل عليه السلام ، وما زالوا على ذلك حتى مرت عليهم أحقاب وفعلت فيهم الأهواء فعلتها ، ووجدت الآراء الباطلة فى نفوسهم مواضع ، فابتعدوا عن سبيل الرشد ، وذهبوا فى أودية الضلال فرقاً ، حتى أصبحت الجزيرة كمعرض للملل الضالة والآراء الفاسدة ، فيجد الباحث فى تاريخهم أصنافاً كثيرة من مظاهر الشرك كانت قائمة فى الجزيرة : من نحو عبادة الأصنام والأنصاب(١) والأشجار والملائكة والجن والحيوان ، ومن دين الصابئة وعبادة الكواكب ، ومن المجوسية والبرهمية .

عبادتهم الأصنام :

سبب ضلال العرب فى عبادة الأصنام بعد تمسكهم بملة إبراهيم عليه السلام ، أن أولاد إسماعيل لما ملأوا مكة وانتشروا فى البلاد لطلب الرزق ، كان الظاعن منهم يحمل معه حجراً من حجارة الحرم ، وحيثما نزل وضعه

(١) قال ابن الكلبى فى كتاب الأصنام : إن المصنوع من خشب أو ذهب أو فضة على صورة إنسان : صنم ، وإذا كان من حجارة فهو وثن . وذهب آخرون إلى أن الصنم والوثن مترادفان ، فقال : ما يعبد من الحجر على غير صورة فهو نصب ، وما يكون تمثالا فهو صنم ووثن . وحكى صاحب المصباح قولا بأن الأنصاب هى الأصنام ، فقال : النصب : حجر نصب وعبد من دون الله . قيل هى الأصنام وقيل غيرها فإن الأصنام مصورة والأنصاب بخلافها .

وطاف به طوافه بالكعبة ، ثم انجر بهم ذلك إلى المبالغة فى تعظيم تلك الأحجار فعبدوها ، وعادوا إلى ما كانت عليه الأمم الضالة من قبلهم .

ثم ظهر عمرو بن لحى الخزاعى أيام تغلبت خزاعة على مكة ، ونفت منها جرهم ، وكان قد تولى سدانة البيت ، فدعا إلى عبادة الأوثان . وسبب ضلال عمرو هذا فيما يروى أنه دخل البلقاء(١) من أرض الشام ، فرأى قوماً يعبدون الأصنام ، ويقولون : هذه أرباب نتخذها ، نستنصر بها فننصر ونستسقى بها فنسقى ، وكل من سألها يعطى ، فرجع إلى مكة ومعه صنم منهم ، فنصبه على الكعبة ، ودعا القوم إلى عبادته ففعلوا .

تفشت فى العرب عبادة الأصنام ، فأقاموا فى جوف الكعبة تماثيل وكان أعظمها فى زعمهم « هبل » .

ووضعوا حول الكعبة نحو ستين وثلاثمائة صنم (على عدد أيام السنة) ومن الأصنام التى وضعوها حول الكعبة إساف وكان على الصفا ، ونائلة وكانت على المروة . واتخذ أهل كل دار من مكة صنما يعبدونه من التماثيل القائمة فى الكعبة ، والأنصاب الموضوعة حولها .

وللعرب أصنام فى غير مكة يبالغون فى تعظيمها : منها « اللات(٢) » وهو صنم لثقيف ، « ومناة »(٣) صنم كان منصوباً على ساحل البحر بقديد (الجبل الذى بين مكة والمدينة) وكانت العرب جميعاً تعظمه ، وتذبح حوله ، ولم يكن أحد أشد إعظاماً له من الأوس والخزرج « وفلس »(٤) صنم لطيىء و « نهم » (٥)صنم لمزينة و « ذو الخلصة » صنم لخثعم ودوس وبجيلة و « الأقيصر » كان بمشارف الشام لخم وجذام ، وغطفان(٦) و « ذو الكفين »

---

(١) البلقاء : كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادى القرى ، قبتها عمان .

(٢) بالتاء المشددة ، وقرأ بها ابن عباس وعكرمة وجماعة تسمية للصنم بوصف الذى كان يلت عنده السويق .

(٣) الأصنام لابن الكلبى .

(٤) ضبطه صاحب القاموس بكسر الفاء وسكون اللام ، وضبطه ياقوت بضم الفاء واللام .

(٥) بضم النون وسكون الهاء .

(٦) بفتح أوله وثانيه ، وحكى ابن دريد فتح أوله وإسكان ثانيه ، وقيل بضم ثانيه . وكان يقال له الكعبة اليمانية .

صنم لدوس ، و « ذو الشرى » صنم لبنى الحارث بن يشكر . و « رضا » صنم لربيعة ، و « عميانس » صنم لخولان ، و « سعير » صنم لعنزة .

ومن أصنامهم « ود » كان فى قبيلة كلب ، و « سواع » وكان فى قبيلة هذيل ، و « يغوث » وكان فى قبيلة مراد . و « يعوق » وكان فى قبيلة همدان ، و « نسر » وكان فى حمير .

وقد ذكر القرآن المجيد هذه الأصنام الخمسة فى قصة نوح عليه السلام . قال تعالى : **«وقالوا لاتذرن آلهتكم ولاتذرن وداً ولاسواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا»** .

روى عن ابن عباس أن هذه الأصنام كانت لقوم نوح عليه السلام ثم انتقلت إلى العرب من بعدهم .

ومن المحتمل القريب أن تكون أسماء هذه الأصنام بقيت تذكر إلى ما بعد نوح ، ثم اتخذ العرب أصناماً ، وسموها بهذه الأسماء .

ومن هذه الأصنام ما كان يتخذ من الأحجار النفيسة . كهبل ؛ فإنه كان - فيما روى - من عقيق أحمر على صورة إنسان . ومنها ما يتخذ من نحاس ، كصنم خزاعة الذى أقاموه فوق الكعبة ، ومنها ما يتخذ من الحجارة . كمناة ، فإنه كان صخرة مربعة ، ونحو ذى الخلصة فأنه كان مروة بيضاء وعليها نقش فى شكل تاج ، ومنها ما يتخذ من خشب كذى الكفين .

مظاهر تعظيمهم للأصنام :

كان عباد الأصنام يزورون الأصنام ، ويتمسحون بها ، ويتقربون إليها بالذبائح ، ويحلفون بها ، ولا يتعرضون لمن التجأ إليها . وكانوا يرون أن سبها يأتى بأمراض معضلة ، ويؤلفون أسماء أبنائهم من أسمائها تبركاً بها . كما قالوا : عبد العزى . وزيد اللات . وزيد مناة . وعبد يغوث . وعبد نهم . وعبد ود ، وعبد غنم ، وعبد المدان(١) وعبد رضا . وعبد كلال(٢) وعبد مناف(٣) وعبد ياليل(٤) .

---

(١) قال ابن دريد : المدان : اسم صنم ، وفى القاموس : المدان كسحاب صنم .

(٢) هو ابن عبدياليل أحد سادات الطائف عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه الدعوة فلم يجبه .

(٣) فى القاموس : ومناف صنم .

(٤) فى القاموس : ياليل كهابيل : رجل وصنم .

وكانت الحيض من النساء لايدنون من الأصنام ولا يتمسحن بها ، وإنما كانت الواحدة تقف ناحية منها(١) .

وكانوا يسكبون لها خمراً أو زيتاً أو حليباً . ويجعلون أمامها طعاماً ليأكله الطير . وكانوا يقصون عندها نواصي أولادهم أو يحلقون شعورهم وكان العذارى يرقصن حولها مسبلات ذيولهن . وكانوا يقسمون لها من حرثهم وأنعامهم . قال تعالى : **« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، ساء ما يحكمون »** .

وبيان هذه القسمة الضالة على ما جاء فى بعض الروايات أنهم كانوا يعينون شيئاً من حرث ونتاج لله تعالى ، فيصرفونه إلى الضيف والمساكين وأشياء منها لآلهتهم ، فينفقون منها لسدنتهم ، ويذبحون عندها ، فإذا رأوا ما جعلوه لله تعالى زاكياً نامياً ، يزيد فى نفسه خيراً ، رجعوا فجعلوه لآلهتهم ، وإذا زكا ما جعلوه لآلهتهم تركوه معتلين بأن الله تعالى غنى .

عبادتهم لبعض الأشجار :

كان العرب يعبدون بعض الأشجار . و « العزى » سمرة(٢) كانت لغطفان يعبدونها . وكانوا بنوا عليها بيتاً وأقاموا لها سدنة(٣) وقيل ثلاث سمرات أو نخلات . وكانت قريش تخصها بالإعظام ، وكانوا يعظمون ذات أنواط وهى شجرة عظيمة فى جوار مكة كانت الجاهلية تأتيها كل سنة فتعلق عليها أسلحتها ، وتذبح عندها .

عبادتهم بعض الحيوان :

من العرب من كانوا يعبدون بعض الحيوان . فقد جاء فى قصة وفد

---

(١) الأصنام لابن الكلبى .

(٢) واحدة السمر وهو شجر الطلح .

(٣) معجم ياقوت .

طيء أن النبي صلى الله عليه وسلم نظر إليهم ، وقال : « إني خير لكم من العزى ولاتها ، ومن الجمل الأسود الذى تعبدونه من دون الله(١) » .

وجاء فى قصة عمرو بن حبيب الملقب بذى الكيود أنه أغار على بنى بكر . فأصاب سقباً(٢) كانوا يعبدونه ، فنحره وأكله ، وإلى هذا يشير الشيخ أحمد البدوى الشنقيطى فى عمود النسب(٣) بقوله :

وانسب حبيبهم(٤) وذا الكيود آكل سقب بكر المعبود

عبادتهم الكواكب :

كان بعض كنانة يعبدون القمر والدبران . وبنو لخم وجرهم كانوا يعبدون « المشترى » وبعض بنى طيء عبدوا « سهيلا » وبعضهم عبدوا « الثريا » وبعض قبائل ربيعة عبدوا المرزم ، وطائفة من تميم عبدوا الدبران وبعض قبائل لخم وخزاعة عبدوا « الشعرى العبور » .

عبادتهم للملائكة :

من العرب من كانوا يعبدون الملائكة ، ويزعمون أنهم بنات الله يشفعون لهم عنده(٥) وقد أنكر الله تعالى عليهم ذلك ، فقال تعالى : « **أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً** » وورد فى القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى يسأل الملائكة يوم القيامة عن عبادة الإنس لهم فيتبرءون منهم ومن ولايتهم جاء هذا فى قوله تعالى : « **ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم . بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون** » .

---

(١) الروض الأنف ج ٢ ص ٣٤٢ .

(٢) السقب : ولد الناقة .

(٣) توجد منه نسخة بدار الكتب المصرية

(٤) الضمير يعود على بنى فهر ، وهو الذى يقول فيه الشاعر :

ألا كل ن سمى حبيب ولو بدت روته يفدى حبيب بنى فهر

(٥) الملل والنحل للشهرستانى ومروج الذهب للمسعودى .

وسؤال الله تعالى للملائكة يدل على أن من الإنس من كانوا يتوجهون بعبادتهم إلى الملائكة ؛ وقول الملائكة « **بل كانوا يعبدون الجن** » ظاهر في نفي أن يكون من الإنس من يتوجه إليهم بالعبادة وأن المشركين إنما كانوا يقصدون بعبادتهم الجن . ومن وجوه تفسير الآية التي يكون بها جواب الملائكة موافقاً للسؤال أن أولئك الإنس كانوا يتوجهون بالعبادة إلى الملائكة ولكنهم كانوا يتخيلون للملائكة صوراً وهذه الصور إنما تطابق حال الجن ، فيصح أن يقال إن هؤلاء الإنس إنما يعبدون أصحاب تلك الصور وهم الجن .

ومن الوجوه التي تجعل الجواب موافقاً للسؤال أن الملائكة جعلوا عبادة الإنس لهم عبادة للجن ، لأن الجن وهم الشياطين وسوسوا لهم بهذه العبادة ، فنسبة عبادة الإنس للجن من جهة أنهم وسوسوا بها .

عبادتهم الجن :

من العرب من كانوا يعبدون الجن ، قال أبو المنذر في كتاب الأصنام : كانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن ، وهم المشار إليهم بقوله تعالى : « **بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون** » .

وقال ابن عطية في تفسير هذه الآية : « يجوز أن يكون في الأمم الكافرة من عبد الجن ، وفي القرآن آيات يظهر منها أن الجن عبدت ، في سورة الأنعام وغيرها » ومن آيات الأنعام الظاهرة في هذا قوله تعالى : « **وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم** » وجاء في سورة الجن « **وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً** » أي زاد الرجال العائذون الجن رهقاً أي تكبرا وعتواً ، ذلك أن الرجل منهم إذا أمسى في واد قفر وخاف على نفسه ، نادى بأعلى صوته : يا عزيز هذا الوادي أعوذ بك من السفهاء الذين في طاعتك . وجاء في هذا من الشعر قول بعضهم :

قد استعذنا بعظيم الوادي   من شر ما فيه من الأعادي

فلم يجرنا من هزبر عاد

والاستدلال على أن في العرب من كانوا يعبدون الجن بآية « **بل كانوا**

يعبدون الجن » غير ظاهر . فإن سؤال الله تعالى للملائكة عن عبادة الإنس لهم يشعر بأن هناك جماعة من الإنس يتوجهون بعبادتهم إلى الملائكة فيكون جواب الملائكة بأن هؤلاء إنما كانوا يعبدون الجن ، غير مناسب السؤال إلا على أحد الوجوه التى أوردناها فى بحث عبادتهم للملائكة .

وقد يلوح للناظر وجه فى تأويل الآية يمكن أن تدل به على أن من الإنس من كان يعبد الملائكة ومنهم من كان يعبد الجن . وهو أن يقال : لما حضر المشركون من عباد الملائكة والجن والأصنام ، وأراد الله تعالى إقامة الحجة على أن غيره لايستحق أن يعبد ، وجه الخطاب إلى أشرف من توجه المشركون إليه بالعبادة وهم الملائكة ، حتى إذا تبرأوا وتبين بإقرارهم أنهم غير أهل لأن يعبدوا ، كان قصور غيرهم عن مرتبة العبادة أولى ، وكان جواب الملائكة أن تبرأوا من الإنس الذين كانوا يعبدونهم ، فقال : « **سبحانك أنت ولينا من دونهم** » وبعد هذه البراءة انتقلوا إلى الإخبار بأن أولئك المشركين كانوا يعبدون الجن .

فاسم الإشارة فى قوله : « **أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون** » مشار به إلى جملة المشركين بالنظر إلى أن فريقاً من هذا المجموع كانوا يعبدون الملائكة ، والضمير فى قوله تعالى : « **بل كانوا يعبدون الجن** » يعود إلى مجموع المشركين بالنظر إلى الفريق الذين كانوا يعبدون الجن ، وكلمة « **بل** » تستعمل فى عطف الجمل لمجرد الانتقال من خبر إلى آخر ، فهى هنا للانتقال من التبرؤ من الإنس إلى وصفهم بعبادة الجن ، ولا غرابة فى إطلاق اسم يتناول جماعة ثم يخبر عنه بأمر صدر من بعضهم لأمر يقتضيه المقام ، والأمر الذى اقتضى فى السؤال تخصيص عبادتهم للملائكة بالذكر هو ما أشرنا إليه من أن الملائكة أشرف معبوداتهم ، والذى اقتضى فى جواب الملائكة ذكر عبادتهم للجن هو أنه كان شأن أكثر المشركين ، فإن الذين كانوا يعبدون الأصنام يتعلقون مع ذلك باعتقاد أن من ورائها أرواحاً خفية تتصرف فى شئونهم . وأكثرهم يسمون هذه الأرواح بالجن .

عبادتهم للكواكب :

كان بنو لخم وجرهم يعبدون المشترى ، وبعض كنانة عبدوا القمر والدبران . وبعض قبائل ربيعة عبدوا سهيلا ، وبعضهم عبدوا الثريا . وبعض قبائل ربيعة عبدوا المرزم ، وطائفة من تميم عبدوا الدبران . وبعض قبائل لخم وخزاعة عبدوا الشعرى العبور . قال ابن قتيبة : « كان قوم الجاهلية عبدوا الشعرى العبور ، وفتنوا بها ، وكان أبو كبشة الذى كان المشركون ينسبون إليه النبي صلى الله عليه وسلم أول من عبدها ، وخالف قريشاً ، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم ودعا إلى عبادة الله ، وترك عبادة الأوثان ، قالوا : هذا ابن أبي كبشة : أي يشبهه(١) .

ومن العرب من عبدوا الشمس ، ومن أثر هذا تسميتهم لها بالإلهة ، قال عتبة بن الحارث اليربوعى :

تروحنا من اللهباء(٢) عصراً　　وأعجلنا الإلـــلهة أن تؤوبا

وذكر صاحب تاج العروس أن الشمس اسم لصنم قديم . وقال : قد سميت العرب عبد شمس وهو بطن من قريش . قيل سموا بذلك الصنم ، وأول من تسمى به سبأ بن يشجب .

ومن أثر اعتقادهم بتأثيرها فى الكون ما هو جار فى بعض البلاد إلى الآن من أن الغلام إذا سقطت له سن ، أمسكها بين السبابة والإبهام واستقبل بها الشمس ، ورماها نحوها طالباً منها أن تعوضه سناً أحسن من السنة الساقطة .

ومن أثر عبادتهم للكواكب تسميتهم أبناءهم بأسماء مضافة إليها نحو عبد شمس ، وعبد المشترى .

البرهمية فى العرب :

اشتهر دين البرهمية فى سكان عمان(٣) والبرهمية منسوبة إلى برهم وهو

---

(١) وقيل : أبو كبشة كنية وهب بن عبد مناف جد النبى صلى الله عليه وسلم من جهة أمه .

(٢) فى اللسان : اللعباء بالعين .

(٣) خلاصة تاريخ العرب لسيديو .

المعبود الأول أو الأكبر عند أصحاب هذا المذهب المنتشر فى الهند ، ويصفون هذا المعبود بأنه أصل كل الموجودات ، واحد أزلى(١) .

وبرهما فى الهند هيكل يعبده البراهمة(٢) ويتوجهون إليه بالدعاء ، وهم يعبدون مع ذلك الشمس بدعوى أنها ينبوع النور والحرارة ، فهى أول المعبودات فى زعمهم ، ويستدل بعضهم بهذا على أن البرهمية فرع للمجوسية قبل ظهور زرادشت .

دين الصابئة فى العرب :

من العرب من كانوا على دين الصابئة ، ومذهب الصابئة يقوم على عبادة الملائكة ، ذلك أنهم قالوا : إنا نحتاج فى معرفة الله وأحكامه إلى متوسط روحانى ، ولما لم يتيسر لهم مشاهدة الروحانيات والتلقى منها لجأوا إلى الكواكب بزعم أنها هياكل الروحانيات ، وصاروا يعبدون الكواكب تقرباً إلى الروحانيات التى تقربهم فيما يزعمون إلى البارى جل جلاله ؛ والكواكب التى كانوا يعبدونها السبع السيارات أو بعض الكواكب الثابتة . فصابئة الروم تعبد السيارات ، وصابئة الهند تعبد الثوابت (٣) .

ثم إن جماعة منهم قالوا : إن الهياكل السماوية لا ترى فى كل الأوقات لأن لها طلوعاً وغروباً ، وظهوراً بالليل واحتجاباً بالنهار . فلا يمكن التقرب بها فى كل وقت ، وبدا لهم أن يقيموا أشخاصاً مبصرة لهم فى كل وقت يتوسلون بها إلى الهياكل ، فاتخذوا أصناماً على مثال الهياكل ، ونصبوا كل صنم فى مقابلة هيكل .

وقد بعث الله تعالى إبراهيم عليه السلام فحاج الفريقين : عباد الكواكب وعباد الأصنام .

---

(١) يريدون به الطبيعة ، ولهذا كانت لهم آلهة متعددة يمثل كل منها مظهراً من مظاهر الطبيعة .

(٢) انظر كتاب محمود بن سبكتكين الذى بعث به إلى ديوان الخلافة عند فتح الهند (فى ترجمة ابن سبكتكين من تاريخ ابن خلكان) .

(٣) سميت ثوابت وإن كانت متحركة ، لأنها ثابتة الأبعاد لا يقرب أحدها من الآخر ولا يبعد عنه ، ولا تتغير عن جهاتها .

ومن أثر ديانة الصابئة فى بلاد العرب اعتقادهم بالأنواء ، وبيان ذلك أن للقمر ثمانى وعشرين منزلة ، وتسمى هذه المنازل بأسماء كواكب تظهر فيها ؛ وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع ما يقابلها يكون مطر ، فيقولون : مطرنا بنوء كذا ، والنوء الكوكب الطالع ، لأنه إذا سقط الساقط بالمغرب ، ناء الطالع أى نهض وطلع بالمشرق ، وقيل : النوء اسم للكوكب الذى يغرب(١) وقد أشار الحديث الشريف إلى بطلان هذه العقيدة بقوله : « فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فهو مؤمن بى كافر بالكواكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب » ومما روى عنهم فى هذا الشأن أنهم كانوا يكرهون نوء السماك ، ويقولون : فيه داء الإبل ، قال الشاعر :

ليت السماك ونوءه لم يخلقا ومشى الأفيرق(٢) فى البلاد سليما

المجوسية فى العرب :

المجوسية قائمة على اعتقاد أن للعالم أصلين : هما النور والظلمة ، وأهل هذه النحلة يعظمون النار بزعم أنها من أجناس الآلهة النورية . والمجوس فرق ، وأشهر فرقهم الزرادشتية : أصحاب زرادشت الذى ظهر فى عهد كشتاسف ودعا هذا الملك إلى دينه فأجابه ، وأصل عقيدة هؤلاء أن النور والظلمة مبدأ العالم ، وأن الله خلقهما وأبدعهما ، وأن الخير والشر والصلاح والفساد ، حصلت من امتزاج النور بالظلمة ، ولزرادشت كتاب يقولون أنه صنفه أو أنزل عليه وهو « زندستا » .

ومن أشهر فرقهم « الثنوية » وهم أصحاب القول بأن النور والظلمة اللذين هما مبدأ العالم فى زعمهم أزليان قديمان .

---

(١) وقيل : النوء اسم لسقوط النجم فى المغرب مع الفجر ، وطلوع آخر يقابله من ساعته فى المشرق .

(٢) اسم لجمل الشاعر .

ومنها « المانوية » وهم أصحاب مانى بن فاتاك الذى ظهر فى عهد شابور ابن أزدشير ، وقتله البهرام بن هرمز وقتل الرؤساء من أصحابه(1) .

ومنها المزدكية ، وهم أصحاب مزدك الذى ظهر أيام قبادو والد أنوشروان ودعا قبادو إلى مذهبه ، فأجابه . ولما تولى أنو شروان اطلع على كذب مزدك هذا ، فقتله . ومن مبادىء هذه النحلة إباحة النساء والأموال ، وجعلها شركة بين الناس .

وكانت المجوسية فى نفر من تميم ، منهم زرارة بن عدى ، وابنه حاجب ابن زرارة والأقرع بن حابس ، وأبو الأسود جد وكيع بن حسان .

وكانت المجوسية بالبحرين (2) ، جاء فى كتاب المنذر بن ساوى رئيس البحرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم « قرأت كتابك على أهل البحرين فنهم من أحب الإسلام وأعجبه ، ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضى مجوس ويهود ، فأحدث إلى فى ذلك أمرك » فجاءه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه « من أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية » .

وكانت المجوسية فى نفر من قريش . قال ابن قتيبة فى كتاب المعارف « وكانت الزندقة فى قريش أخذوها من الحيرة » ومراده من الزندقة المجوسية ، والظاهر أن العرب المجوس كانوا على مذهب الثانوية ، لأن الثانوية هى المعروفة باسم الزندقة .

ومن أثر المجوسية فى العرب حلفهم بالنار وتعاقدهم عليها ، فقد ورد فى عاداتهم أنهم كانوا يوقدون ناراً عند التحالف ، قال الجاحظ فى كتاب

---

(1) فى أيام مانى ظهر اسم الزندقة ، ذلك أن الفرس حين أتاهم زرادشت بكتابه المعروف بالنسياه باللغة الأولى من الفارسية ، وعمل له التفسير وهو الزند ، وعمل لهذا التفسير شرحاً هو البازند ، فكان من عدل إلى التأويل الذى هو الزند ، قالوا هذا زندى فأضافوه إلى التأويل أى أنه منحرف عن ظاهر التنزيل ، فأخذ العرب هذا اللفظ من الفرس وعربوه فقالوا « زنديق » والزنادقة هم الثانوية ، ثم ألحق بهم فى هذا الاسم سائر من اعتقدوا قدم العالم وأنكروا حدوثه .

(2) ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم أخذ الجزية من مجوس هجر ، وهجر : بلد معروف بالبحرين ، وأما هجر التى تنسب إليها القلال الهجرية فهى قرية من قرى المدينة المنورة (النهاية لابن الأثير) .

البيان والتبيين : وكانوا (أى العرب) يتحالفون على النار . ويتعاقدون . ويأخذون العهد المؤكد واليمين الغموس .

وقال فى كتاب الحيوان « كانوا لا يعقدون حلفهم إلا عند نار . فيذكرون عند ذلك منافعها . ويدعون الله بالحرمان والمنع من منافعها على الذى ينقض الحلف ، ويخيس بالعهد » .

وجاء فى قصيدة الأعشى التى مدح بها المحلق ما يشير إلى أنهم كانوا يتحالفون على الرماد وهو قوله :

رضيعى لبان ثدى أم تقاسما بأسحم داج عوض لا نتفرق(١)

وأورد صاحب العقد الفريد هذا البيت وقال : قوله « تقاسما بأسحم داج » يقول : تحالفا على الرماد ، وهذا شيء تفعله الفرس لئلا يتفرقوا أبداً .

ومن أثر المجوسية فى العرب زعمهم أن ابن المجوسى إذا كان من أخته وخط على النملة(٢) تبرأ وتنصلح . قال بعض شعرائهم :

ولا عيب فينا غير عرق لمعشر كريم وأنا لا نخط على النمل

يريد أنا لسنا بمجوس ننكح الأخوات . وكانوا يكنون عن المجوسى بقولهم : فلان يخط على النمل .

الدهرية فى العرب :

قص الله تعالى علينا أن قوماً من كفار العرب يقولون « ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » وهذه الآية تدل على أن هؤلاء القوم ينكرون البعث ، ويسندون الإهلاك أى الإماتة إلى الدهر . واختلف الكاتبون فى التفسير والتاريخ فى أن هؤلاء القوم يقرون بالخالق أو يجحدون

---

(١) قبل هذا البيت بيتان هما :

لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار فى يفاع تحرق

تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

(٢) هى بثيرة تخرج فى الجسد بالتهاب واحتراق وورم مكانها يسيراً ويدب إلى موضع آخر كالنملة ، وتطلق على قروح فى الجنب كالنمل (قاموس) .

به . فقال بعضهم : إن هؤلاء القوم يعترفون بوجود الله تعالى فهم غير الدهرية الذين يسندون الحوادث إلى الدهر ولا يقولون بوجوده تعالى ، وجرى على هذا المسعودى فى مروج الذهب ، فقال : ومن العرب من أقر بالخالق وكذب بالرسل والبعث . ومال إلى قول أهل الدهر . وهؤلاء الذين حكى الله تعالى إلحادهم ، وأخبر عن كفرهم ، بقوله تعالى : « وقالو ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » .

ومن المفسرين من حمل الآية على قوم ينكرون وجود الخالق . وهذا ما سلكه القرطبي فى تفسيره إذ قال فى تفسير هذه الآية : وكان المشركون أصنافاً منهم هؤلاء . ومنهم من كان يثبت الصانع ، وينكر البعث . وجرى على هذا أبو البقاء فى كلياته فقال : والدهرى بالفتح هو الذى يقول : العالم موجود أزلا وأبداً ، لا صانع له « ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » .

ومن المفسرين من جعل الآية محتملة لأن تكون فى قوم لا يعرفون الله ولا يقرون به وهم الدهرية ، وأن تكون فى قوم يقرون بالخالق وينكرون البعث وينسبون الآفات إلى الدهر لجهلهم أنها مقدرة من الله . وجرى على هذا أبو حيان فى تفسيره البحر .

وليس فى الآية ما يدل على أن هؤلاء القوم يقرون بالإله أو يجحدون به ، فمن ذهب إلى أن موردها قوم لا يقرون بالإله ، فلأن إضافة الحوادث إلى الدهر مقترنة بإنكار البعث ، شأن الدهريين الذين ينكرون وجود الخالق ، جل شأنه .

ومن أثر اعتقادهم أن الحوادث من الدهر ، كثرة شكواهم من الدهر ويظهر هذا كثيراً فى أشعارهم . قال أبو عبيد : ومن شأن العرب أن يذموا الدهر عند المصاب والنوائب ، حتى ذكروه فى أشعارهم ، ونسبوا الأحداث إليه . وقد أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يقطع هذا الأثر الناشىء عن أصل عقيدة فاسدة . فقال كما جاء فى صحيح البخارى : « لا يقولن أحدكم : يا خيبة الدهر . فإن الله هو الدهر » .

اليهودية فى جزيرة العرب :

لليهودية فى جزيرة العرب على ما يقوله بعض الكاتبين فى تاريخها طوران :

(أولهما) كان لبطون من اليهود نزلوا بلاد العرب . وانتهى هذا الطور فى القرن الخامس قبل ميلاد المسيح(١) .

(ثانيهما) ابتدأ فى القرن الأول والثانى بعد ميلاد المسيح(٢) ، ذلك أن جموعاً كثيرة من اليهود هاجروا من فلسطين إلى البلاد العربية . ولهذه الهجرة أسباب . منها نمو عدد اليهود فى فلسطين حتى ضاقت بهم البلاد . ومنها أن الدولة الرومانية كانت قد استولت على فلسطين حوالى القرن الأول قبل ميلاد المسيح . وانهالت تضطهد اليهود . وتسومهم الخسف . فلجأ طوائف منهم إلى الهجرة . وقصدوا البلاد العربية ، مما عرفوه فى حياة البداوة العربية من الحرية ، فقبلهم العرب . وعاملوهم بإحسان . ومنها أن بلاد العرب كثيرة الرمال . فيتعسر على الجيوش الرومانية وهى على شىء من النظام أن تقطعها ، فنزل اليهود فى شمال الحجاز بيثرب (المدينة المنورة) وأرض خيبر(٣) ، ووادى القرى(٤) . وتيماء(٥) . واتخذوا الحصون والآطام(٦) ، على رؤوس الجبال .

ومن دخل فى اليهودية من العرب طوائف من بنى كنانة وبنى كندة

---

(١) انقرض اليهود من الجزيرة لذلك العهد ولم يبق فيها يقال إلا بعض آثار منازلهم .

(٢) انتهى هذا الطور بإجلاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه لهم من الجزيرة

(٣) على ثمانية برد من المدينة لمن يريد الشام ، وخيبر بلسان اليهود الحصن وقيل سميت باسم رجل من العماليق نزلها وفتحت سنة ٧ للهجرة وقيل سنة ٨ .

(٤) واد بين المدينة والشام وهو من أعمال المدينة ، كثير القرى ، فتحها النبى صلى الله عليه وسلم سنة ٧ ثم صولحوا على الجزية بعد أن فرغ النبى صلى الله عليه وسلم من خيبر .

(٥) بلد بين الشام ووادى القرى ، لما بلغهم فتح أم القرى بعثوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وصالحوه على الجزية ، وأقاموا ببلادهم وبقيت أرضهم بأيديهم .

(٦) جمع أطم : وهو القصر ، ويطلق على الحصن المبنى بالحجارة وعلى كل بيت مربع

وبنى نمير . وكانت هذه القبائل مجاورة لمواطن اليهود : يثرب وأم القرى وتيماء .

وظهرت اليهودية فى بلاد اليمن منذ عهد بعيد ، ودخل فيها بعض ملوك حمير ، فقامت دولة متهودة(١) ، إلى أن جاء الحبش فقوضوا أركانها . ولكن بقيت طوائف من اليهود متفرقين فى البلاد . وسبق كتاب المنذر أمير البحرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيه يقول « بأرضى مجوس ويهود . فأحدث إلى فى ذلك أمراً » .

وقال الجاحظ : « وجاء الإسلام وليست اليهودية بغالبة على قبيلة إلا ما كان من ناس من اليمانية ، ونبذ يسير من جميع إياد وربيعة . وعظم اليهودية إنما كان بيثرب وخيبر وتيماء ووادى القرى فى ولد هارون ، دون العرب(٢) » .

وفى أهل نجران الذين أجلاهم عمر بن الخطاب من الجزيرة يهود . ومما يقولونه فى سبب ظهور اليهودية فى اليمن أن الدولة الرومانية بالشرق بعد أن انتهت من بسط سلطانها على الممالك المجاورة لجزيرة العرب ، وجهوا أنظارهم إلى الاستيلاء على أطراف الجزيرة العربية ، فأرسلوا وفوداً من الرهبان لنشر الديانة المسيحية بالجزيرة تمهيداً لتنفيذ خططهم السياسية الاستعمارية وتنبه ملوك حمير لهذه الغاية . فدخلوا فى اليهودية . ودعوا إليها ليدافعوا بها النصرانية(٣) .

---

(١) قال بعض المؤرخين من المستشرقين إن دولة حمير اليهودية لم تظهر إلا فى القرن الخامس بعد المسيح واستشهد على هذا بقول الطبرى : إن تبان أسعد مالك حمير وصاحب الدعوة اليهودية ، كان فى نهاية القرن الخامس .

(٢) رسالة فى الرد على النصارى .

(٣) هذه الحيلة يعمل بها الدول المسيحية اليوم ، فيرسلون دعاة النصرانية إلى بلاد الإسلام ليمهدوا لهم السبيل إلى احتلالها أو ليعينوهم على تثبيت سلطانهم عليها ، وليست البهائية والقاديانية إلا فرقتين غير إسلاميتين تعملان تحت اسم الإسلام لتمكين بعض الدول المسيحية من احتلال البلاد الإسلامية أو مساعدتهم على تثبيت قدم الاحتلال .

أثر اليهودية فى العرب :

روى جماعة من المحدثين كأبى داود والبيهقى والحاكم عن ابن عباس أنه قال « كان هذا الحى من الأنصار وهم أهل وثن مع هذا الحى من اليهود وهم أهل كتاب كانوا يرون لهم فضلا عليهم فى العلم ، وكانوا يقتدون بكثير من أفعالهم » ومن أثر اعتقادهم بفضل اليهود فى العلم لذلك العهد ، أنه كان من نساء الأوس والخزرج من إذا ولدت ولداً تنذر إن عاش ولدها أن تهوده (١) ويروى أن يهود يثرب علموا العرب الكتابة العربية (٢) ويرى أثر اليهودية فى شعر العرب ، كما قال لبيد يصف رجلا قد غلبه النعاس :

يلمس الأحلاس(٣) فى منزله بيديه كاليهودى المصـــل

ووجدت للعرب أشياء تقارب بأسمائها وصورها بعض ما عرف لليهود فعدها بعض الكاتبين من تأثير اليهودية مثل « النسىء » الذى كان يقوم به أفراد اتخذهم العرب رؤساء فيه (٤) ، وهو أنهم إذا فرغوا من الحج اجتمعوا إلى هذا الرئيس فحرم الأشهر الحرم : رجباً وذا العقدة وذا الحجة والمحرم ، فإذا احتاجوا إلى شن الغارة وطلب الثارات أخر شهر المحرم إلى صفر ، وإن احتاجوا إلى ذلك فى صفر أخروه وحرموا ربيعاً الأول وهذا ما نزل فيه قوله تعالى : « **إنما النسىء زيادة فى الكفر** » لأنه تحريم ما أحل الله « يحلونه » أى الشهر المؤخر « عاماً » ويحرمون مكانه شهراً آخر « ويحرمونه » أى يحافظون على حرمته « عاماً ليواطئوا » ليوافقوا « عدة ما حرم الله » من الأشهر الأربعة(٥) .

---

(١) الروض الأنف للسهيلى .

(٢) فتوح الإسلام للبلاذرى .

(٣) الأحلاس جمع حلس وهو الكساء الذى يكون على ظهر البعير تحت البرذعة ، ويبسط فى البيت تحت حر الثياب .

(٤) آخرهم عوف بن أمية .

(٥) ويقع النسىء على وجه آخر هو أنهم يؤخرون الحج عن وقته تحرياً منهم للسنة الشمسية ، فكانوا يؤخرونه فى كل عام أحد عشر يوماً أو أكثر قليلا ، حتى يمر ثلاث وثلاثون سنة فيعود الحج إلى وقته ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » فكانت حجة الوداع فى السنة التى عاد فيها الحج إلى وقته .

وقد قال بعض الأفرنج : إن النسيء الذى كان عند العرب فى الجاهلية مأخوذ من اليهود ، فإن الناسىء فى اللغة العبرية معناه الرئيس الدينى ، وكذلك كان الرئيس الدينى عند اليهود يؤخر ويقدم الشهور ، ويعين مواعيد الأعياد والصيام ، ويبعث بذلك إلى طوائف اليهود المختلفة .

ونحن نستبعد أن يكون النسيء مأخوذاً من اليهود ما دام لفظه مشتقاً من مادة عربية له تصرفات تدور حول معنى التأخير(١) ومما ظنه بعضهم من أثر اليهودية فى العرب كلمة « صوفة » ذلك أن هذا اللفظ فى العبرية معناه الحادى ،والعرب يطلقونه على قوم يندفعون بالناس من عرفة ، ويؤمونهم فى رمى الجمار ، وكان آخرهم عند ظهور الإسلام كرب بن صفوان ، والكتب العربية تذكر فى تسميتهم صوفة وجوهاً ، منها ما ذكره صاحب القاموس من أنه اسم لأبيهم الغوث بن مرة وقال أبو عبيدة سموا بذلك لأنهم بمنزلة الصوف : فيهم القصير والطويل والأسود والأحمر ، ليسوا من قبيلة واحدة . وقيل : لأن أم الغوث نذرت لئن عاش لتعلقن برأسه صوفة وتجعله خادماً للكعبة .

وزعم بعضهم أن الختان أخذه العرب من اليهود ، ونحن نرد هذا بأن الختان من سنة إبراهيم عليه السلام كما ورد فى صحيح البخارى « اختتن إبراهيم عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة » .

وزعم أحد دعاة النصرانية (٢) أن ما عرف عند العرب من أن إسماعيل عليه السلام أبو العرب إنما جاءهم من اليهود ، قالوا لهم ذلك ليتقربوا إليهم بدعوى أنهم أبناء إسماعيل وأن اليهود أبناء إسحاق ، وجد الجميع إبراهيم عليه السلام وقد أخذ هذا الزعم صاحب كتاب فى الشعر الجاهلى وأنكر أن يكون إبراهيم عليه السلام دخل بلاد العرب . ونحن نؤمن بما جاء فى القرآن الكريم والحديث الصحيح . وليس فى يد ذلك الداعية النصرانى

---

(١) يقال : نسأه ونسأه إلى آخره . وبعته بنسيئة أى بأخرة ، واستنسأه سأله أن يؤخر دينه ، ونسئت المرأة : تأخر حيضها .

(٢) ذيل مقالة فى الإسلام لنصرانى سمى نفسه هاشماً العربى .

ولا صاحب كتاب فى الشعر الجاهلى رواية تقف فى وجه ما ورد فى القرآن أو الحديث(١) .

ومن أسباب قلة انتشار اليهودية فى العرب أن « اليهودية هى خلاصة القانون التلمودى (٢) وهذا القانون الذى نشـأ فى بيئة معينة وفى مدة معينة ، والذى استمد مبادئه وتعاليمه من نصوص التوراة ، قد أدخلت عليه تغييرات تلائم الأحوال الجديدة التى طرأت على اليهود ، وقد نجم عن ذلك أن الذين أرادوا أن يقبلوا جوهريات صحف التوراة دون أن يخضعوا للناموس التلمودى لم يؤذن لهم باعتناق اليهودية »(٣) ثم قال « وتأثر كثيرون من العرب بتعاليم اليهودية ، وأخذوا يخضعون لبعض الأصول الجوهرية من التوراة دون أن ينقادوا للبعض الآخر ، فلم ترض منهم اليهودية ذلك ، ولم تقربهم إلى الله ، بل لم تفرق بينهم وبين بقية عبدة الأصنام ، لأنهم لم يقبلوا التمسك بالسبت ، ولم يخضعوا لبقية وصايا التوراة والتلمود » .

النصرانية فى العرب :

كانت النصرانية فى غسان . وبعض قضاعة . وأتت هؤلاء النصرانية من جهة الروم ، فقد كانت منازلهم قريبة منها ، وكانت فى قبائل بالحيرة ، يقال لها العباد ، منها عدى بن حاتم ، وكانت فى بنى تغلب ، ومنازلهم بالعراق ، ودخل فى النصرانية بعض ملوك الحيرة ، قيل : كان تنصرهم فى عهد امرىء القيس الأول فى أوائل القرن الرابع بعد المسيح ، وقيل : إن أول من تنصر منهم النعمان بن المنذر على يدى عدى بن زيد ، وكان النعمان فى أواخر القرن السادس بعد ميلاد المسيح .

وكان أهل نجران فى بلاد اليمن نصارى وهم بنو الحارث بن كعب ابن مذحج ، وجاءتهم النصرانية من جهة الحبشة ، ومن جهة الروم ،فقد

---

(١) انظر نقض كتاب فى الشعر الجاهلى مؤلفنا فى الرد على الدكتور طه حسين .

(٢) التلمود : تفسير المنشاة ، والمنشاة تفسير التوراة . والمتمسكون بالتلمود يقال لهم ربانيون أما القراءون ، فيتمسكون بالتوراة ، ولا يأخذون بالتلمود ، ويوجد منهم طائفة فى الآستانه وطائفة فى مصر .

(٣) تاريخ اليهود فى بلاد العرب للدكتور إسرائيل ولفنسون .

ذكر بعض المؤرخين أن ملوك الدولة الرومانية لما أرادوا ضم أطراف الجزيرة العربية إلى ممالكهم أرسلوا وفود الرهبان إلى بلاد اليمن لبث الديانة المسيحية .

ومن المعروف فى السيرة أن وفد نجران قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا من نصارى العرب ، وهم الذين نزلت فيهم آية المباهلة : قوله تعالى : « **فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين** » وأبوا أن يباهلوا ، وصالحوا على الجزية وعادوا إلى بلادهم .

قال الجاحظ : « إن العرب كانت النصرانية فيها فاشية ، وعليها غالبة إلا مضر فلم يغلب عليها يهودية ولا مجوسية ، ولم تفش فيها النصرانية إلا ما كان من قوم منهم نزلوا الحيرة يسمون العباد ، فإنهم نصارى ، وهم مغمورون مع نبذ يسير فى بعض ، ولم تعرف مضر إلا دين العرب ثم الإسلام » .

وزعم بعض المسيحيين(١) أن الأوس والخزرج كانوا نصارى ، واستدل بقول حسان :

فرحت نصارى يثرب ويهودها　　مما توارى فى الضريح الملحد

وهذا البيت لا يوجد فى قصيدة حسان برواية بن هشام فى السيرة ولا يوجد فى ديوانه الذى كتب عليه البرقوقى تعليقاً(٢) .

ومن المعروف أن ورقة بن نوفل عم خديجة رضى الله عنها ، كان على دين النصرانية وهو قرشى ، وجاء فى السيرة أن النبى صلى الله عليه وسلم لقى فى طريقه إلى الطائف عداسا النصرانى فآمن به(٣) ووجود فرد أو أفراد معدودين فى القبيلة على دين النصرانية لا يدل على انتشار هذا الدين بينهم .

---

(١) لويز شيخو .
(٢) نسب هذا البيت لديوان حسان فى طبعة ليدن .
(٣) زاد المعاد .

وجاء فى بعض الآثار أن صورة عيسى ومريم عليهما السلام كانت فى جملة صور الأنبياء بالكعبة ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم أمر يوم فتح مكة بمحو جميع الصور إلا صورة عيسى وأمه(١) واستدل بهذا بعض المسلمين على أن الديانة النصرانية كانت بمكة ونحن نقول : إن إبقاء النبى صلى الله عليه وسلم لهذه الصورة غير معقول ، ولا يظهر له وجه ؛ وفى صحيح البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة ، فأمر بها فأخرجت ، فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل فى أيديهما من الأزلام فقال : « قاتلهم الله ! لقد علموا ما استقسما بها قط » فهذا الأثر الذى ورد فى تاريخ الأزرق باطل قطعاً ، فإن بقاء الصورة فى المسجد منكر ، والنبى صلى الله عليه وسلم لا يقر منكراً .

ومن أثر النصرانية فيما ظهر شعر ، كقول امرىء القيس يصف كلاب الصيد وقد أدركت فرسه :

فأدركنه يأخـــذن بالساق والنسا(٢) كما شبرق(٣)الولدان ثوب المقدس(٤)

يشير إلى ما كان ولدان النصارى يفعلونه بالراهب الذى يقدم من بيت المقدس ، إذ يأخذون من مسحه وهو لابسه خيوطاً للتبرك بها .

ومن هذا الباب قول امرىء القيس يصف بقر الوحش :

فآنست سرباً من بعيــد كأنه رواهب عيد فى ملاء مهدب(٥)

يشير إلى ما كانت الراهبات يلبسنه فى الأعياد من الملاء والأنسجة الطويلة الأذيال .

ومما ظهر فيه عادة إيقادهم المشاعل فى عيد الفصح قول أوس بن حجر :

عليــه كمصباح العزيز يشبه بفصح ويحشوه الذبال المفتلا

(١) تاريخ مكة للأزرقى .
(٢) عرق من الورك إلى الكعب .
(٣) شبرق : مزق .
(٤) من قدس الرجل أى أتى بيت المقدس .
(٥) الملاء بالضم : ثياب ، واحدة ملاءة والمهدب : ذو أهداب أى خمل .

وصف أوس فى هذا البيت رمحه ، وشبه سنانه بالمصباح يوقده رئيس النصارى فى عيد الفصح(١) :

وأشار حسان فى قصيدة له فى الجاهلية إلى ما كان يصنعه ولائد النصارى من نظم الأكلة فى عيد الفصح بقوله :

قد دنا الفصح والولائد(٢) ينظمـ ـن سراعاً أكلة (٣) المرجان .

الموحدون من العرب :

فى العرب أفراد كانوا قبل البعثة على عقيدة التوحيد ، منهم زيد(٤) ابن عمرو بن نفيل بن عبد العزى ، فقد اعتزل الأوثان ، واجتنب أكل ما يذبح على الأنصاب . روى البخارى فى الجامع الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم لقى زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح(٥) قبل أن ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحى ، فقدمت إلى النبى صلى الله عليه وسلم سفرة لحم فأبى أن يأكل منها ، ثم قال زيد : إنى لا آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه(٦) .

ومنهم أبو قيس صرمة بن أبى أنس صرمة بن مالك من بنى النجار كان ترهب فى الجاهلية ، ولبس المسموح ، وفارق الأوثان ، وهم بالنصرانية ثم أمسك عنها ، ودخل بيتاً له فاتخذه مسجداً وقال : أعبد رب إبراهيم ، حتى قدم النبى صلى الله عليه وسلم فأسلم وحسن إسلامه(٧) أورد له ابن هشام أشعاراً فى تعظيم الله تعالى ، قالها فى عهد الجاهلية .

---

(١) الفصح الكبير للنصارى يزعمون أن المسيح قام فيه بعد الصلب بثلاثة أيام (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) .

(٢) جمع وليدة وهى الصبية .

(٣) جمع أكليل وهو عصابة تزين بالجواهر .

(٤) هو ابن عم عمر بن الخطاب بن نفيل وهو أبو سعيد بن زيد أحد المبشرين بالجنة .

(٥) واد بظاهر مكة فى طريق التنعيم .

(٦) لم يرد فى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم أكل من هذه السفرة ، وقال الخطابى : كان النبى صلى الله عليه وسلم لا يأكل مما يذبحون على النصب للأصنام ، ويأكل ما عدا ذلك وإن لم يذكر عليه اسم الله لأن الشرع لم يكن نزل بعد .

(٧) سيرة ابن هشام ومروج الذهب .

ومنهم قس بن ساعدة الإيادى ، نجد خبره فى بعض كتب التاريخ والأدب . روى بعض المحدثين عن ابن عباس أنه قال : قدم وفد عبد القيس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أيكم يعرف القس بن ساعدة الإيادى ؟ فقالوا : كلنا يا رسول الله نعرفه ، قال : « ما فعل » ؟ قالوا : هلك ، قال : ما أنساه بعكاظ فى الشهر الحرام وهو على جمل أحمر وهو يخطب الناس وهو يقول : يا أيها الناس اجتمعوا واسمعوا ، وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، إن فى السماء لخبراً وإن فى الأرض لعبراً ، مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تمور ، وبحار لا تغور . أقسم قس بالله قسماً حقاً ، لئن كان فى الأرض رضاً ليكونن بعده سخط . إن لله ديناً هو أحب إليه من دينكم الذى أنتم عليه ، ما لى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ، أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تركوا فناموا ؟ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفيكم من يروى شعره » ؟ فأنشده بعضهم :

فى الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً ... للموت ليس لها مصادر
لا يرجع الماضى إليـ ... ـك ولا من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محا ... لة حيث صار القوم صائر

وروى هذا الحديث الطبرانى والبزار وفى إسناده محمد بن الحجاج اللخمى وهو ممن لا يوثق بخبره بل يعده النقاد فى جملة الكذابين . وروى هذا الخبر ابن سيد الناس فى سيرته على وجه يخالف روايته السابقة إذ جاء فى روايته أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « فلست أنساه بسوق عكاظ على جمل أورق وهو يتكلم بكلام ما أظن أنى أحفظه ، فقال أبو بكر يا رسول الله فإنى أحفظه كنت حاضراً ذلك اليوم بسوق عكاظ فقال فى خطبته : يا أيها الناس . . . إلخ الخطبة والأبيات ، على أن فى سند هذه الرواية من يتهم بوضع الأحاديث كما قال ابن كثير . فخبر قس هذا ورد من طرق كلها ضعيفة ، وقصارى ما يؤخذ منها أن أصل القصة ثابت وأن قسا كان على شىء من التوحيد .

ويذكر المؤرخون من الموحدين خالد بن سنان العبسى وقد وردت آثار

تتضمن أنه كان نبياً وأن ابنه أو بنته جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأنه عليه الصلاة والسلام قال : « ذاك نبي ضيعه أهله » وهذه الروايات كلها ضعيفة لم تقم على سند يعتد به . ومما يساعد على ردها قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه سعيد بن جبير مرسلا : « أنا أولى الناس بعيسى بن مريم ، وليس بيني وبينه نبي » .

وأذكر بهذه المناسبة أن ببلاد الجزائر قبراً عليه بناء يقال إنه قبر خالد ابن سنان ، ويجتمع الناس لزيارته في اليوم السادس والعشرين من شهر رمضان ، وشهدت الاجتماع به في بعض السنين ، ورأيت هنالك بدعاً تقام حول القبر ، وعسى أن يكون أهل العلم قد قاوموها وليس لهم من أثر على أن هذا قبر خالد بن سنان سوى ما شاع هنالك من أن بعض الصالحين أخبر بذلك .

* * *

انتهى الجزء الأول من « رسائل الإصلاح »

ويليه الجزء الثاني

الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

رقم الإيداع : ٢١٤٢ – ٨١

الترقيم الدولى : ٧-٧٣-٧٣٢٨-٩٧٧

دار النصر للطباعة الإسلامية

٢م نشـــاطى - شـــبرامصـــر

ت : ٩٧٠٢٢١